إلى/أمن نينوى/١٢ ١٩٨٣/١٠/١٨

من الراصد أبي تمام

المنشئ / ٥٢٦١ / برقيتكم ٢٥٩٤٥ في ١٩٨٣/١٠/٣

لدى إجراء التحقيق السرّي الدقيق وجمع المعلومات عن السادة المدرجة أسماؤهم أدناه تبين لنا ما يلي للتفضل بالعلم رجاء.

رائد الأمن

مدير أمن أبي تمام

مديرية أمن محافظة نينوى

العدد ١٣٤٤٠

التاريخ ١٩٨٣/١٠/١٨

١ ــ دريد عبد القادر نوري / والساكن الشقق التابعة لجامعة الموصل المركز الثقافي، تبين أنه من ذوي الأخلاق الحسنة والسمعة الطيبة، ومن أصل عربي مستقل من المنطقة وله اتجاه ديني.

٢ ــ الدكتور عماد الدين خليل / كان سابقاً مدرس أستاذ في كلية الآداب قسم التاريخ ونقل قبل أربعة سنوات، وذلك لعدم صلاحيته للتدريس فكرياً، وحالياً يعمل باحث في مكتبة المتحف الحضاري بالموصل التابع لوزارة الإعلام ولا توجد لديه أية علاقة في جامعة الموصل، ولم تتوفر لدينا أية معلومات أخرى عنه.

ورقة تبليغ

مديرية أمن نينوى

معاونية أمن باب الجديد

١٩٩٤/٨/١٧

إلى السيد (عماد الدين خليل عمر)

تهديك هذه الدائرة أجمل تحياتها وتدعوك للحضور في مديرية الأمن العامة م.ش٥ الاستعلامات صباح يوم الخميس المصادف ١٩٩٤/٨/١٨ وبدون تأخير رجاءً.

المبلغ

عن. نقيب الأمن

ضابط أمن باب الجديد

كما تم العثور على قائمة بخصوص الأساتذة والتدريسيين الجامعيين تحمل عنوان (قائمة بأسماء الرافضين بالانتماء للحزب القائد) وقد رتبت بالشكل التالي:

الاسم الثلاثي المواليد القومية الكلية والقسم المهنة رأي قيادة الفرقة الملاحظات

وقد تضمنت القائمة ٦٤ اسماً كلهم رفضوا الانتماء للحزب بعد مفاتحتهم بالموضوع. ولذا كان رأي قيادة الفرقة التوصية بإخراجهم من سلك التعليم.

وبالنسبة للدكتور دريد عبد القادر نوري (تسلسل ٥٠ في القائمة) تشير قيادة الفرقة إلى أنه فوتح بالحزب مرات، ولم يتعاون مع الحزب القائد. يعاد التحقيق الأمني معه لمعرفة اتجاهه الديني. ويدقق في حقيقة صلته بالدكتور عماد الدين خليل المشار إليهما في كتاب هـ/٧٦١٥ في ١٩٩٣/٨/٣.

❁ ❁ ❁

وهكذا جرجرت مراراً وتكراراً إلى دوائر الأمن المحلية في الموصل، والمركزية في بغداد، للتحقيق فيما نسب إلي. وعبر ذلك كانت رئاسات قسم التاريخ، وقد لمست صمودي، تستدعيني للتحقيق معي حتى في طرائق التدريس التي كان بعض الطلبة يرفعون بخصوصها التقارير المسمومة إلى رئاسة القسم يجعلون فيها الأبيض أسوداً. ولا زلت أذكر ذلك الحوار الذي دار بيني وبين رئيس القسم الجديد (توفيق اليوزبكي)، والذي نقل لي فيه الكثير من (السلبيات) التدريسية التي رفعت ضدي بالحق والباطل. قال إن تدريسي يغلب عليه الطابع الكلاسيكي القديم، وإني أعتمد في التدريس كتباً ذات طابع معين، وأني أركز اهتماماتي على الجوانب الدينية السياسية فحسب، وأساعد الطلبة الذين يؤيدون فكرتي واعتقاداتي، وأرفض إجراء المناقشات والحوار المفتوح داخل الصف، وأمارس تمييزاً غير مقبول بين الذكور والإناث...

أما تدريسي لمناهج البحث وفلسفة التاريخ فهو غاية في الروعة والدقة والتزام الأسلوب العلمي، الأمر الذي دفع الطلاب إلى التشبث بي وعدم استبدالي بمدرس آخر...

ولقد رددت عليه بأن القول بكلاسيكية تدريسي يتناقض مع التزامي بأحدث المناهج التربوية والنفسية التي تعلمناها في كلية التربية، ومن خلال الممارسة التدريسية الطويلة في كلية الآداب، وبأن قوائم المراجع الأساسية التي أقدمها للطلاب في مطلع كل عام تتناقض مع القول بأني أعتمد مراجع ذات طابع معين، وبأن مجال تدريسي أساساً هو التاريخ السياسي والديني لا الحضاري، لأن هذا له محاضراته الخاصة، وأما التمييز بين الطلبة بسبب موقفهم الفكري أو انتمائهم الديني أو الجنسي فتدحضه قوائم الدرجات الفصلية، وأما عدم إتاحة المجال للمناقشة فهو مخالف أساساً لما يجري في الصف فعلاً من تحويل المحاضرات إلى ندوات مفتوحة يتم فيها تبادل الآراء ويسودها مبدأ الأخذ والعطاء بين المدرس والتلميذ، ويحدوها التركيز على تخريج طالب جامعي (مثقف) وليس موظف متعلم نصف أمي... وهذا التناقض بين الواقع وبين ما يقال دائماً هو نتيجة النقل الكاذب الذي يقوم به بعض الطلبة الحاقدين بسبب درجاتهم السيئة، وبدون حماية (المدرّس) من هذا الأسلوب؛ فإن الحقائق ستضيع، وسيلتبس الحق بالباطل، ولن يتبين طريق!!

المقابلات الاستفزازية نفسها تمت مع رؤوساء القسم الآخرين: د. مفيد محمد نوري، المدرّس الهزؤة أمام طلبته، والدكتور خضر الدوري القادم من أمريكا برداء ماركسي، غطي برداء بعثي ثان لتضييع الآخرين... ولكني عرفت كيف أرد عليهما اتهاماتهما الباطلة فأخرسهم.

لاحظ الدكتور عبد الرحمن برج، أستاذ التاريخ المعاصر الذي استعيرت خدماته من مصر، ما أبذله من معاناة في صراعي المنفرد مع هذه الحفنة الانتهازية من أساتذة القسم، فحرصاً منه على وضعي في الكلية وما قد يجره الصراع من متاعب نفسية وصحية... قال لي: يا دكتور عماد إنك تبذل جهداً متواصلاً لا يحتمله إنسان... فأرجوك أن تخفف من مجابهتك المعلنة هذه قبل أن يقع المحذور... لكنني ما لبثت أن طمأنته بأن ذلك كله لن يثنيني عن المضي في الطريق بمعونة الله وحده...

ويوماً وأنا أقف كعادتي على المنصة لكي ألقي محاضرتي على طلبة قسم التاريخ، يدق الباب، فلما أذنت بالدخول إذا بغانم عبد الجليل، وزير التعليم العالي والبحث العلمي، والرفيق الحزبي الكبير... يدخل مبتسماً، ومن ورائه محافظ نينوى خالد الكبيسي، ورئيس الجامعة، ورئيس قسم التاريخ... ورددت على تحية الزائر واستمريت على إلقاء محاضرتي متيحاً الفرصة للطلبة لكي يسألوا ويناقشوا... فلما سألني عن ورقة الغيابات أجبته بأني أفضل دائماً قراءتها في ختام المحاضرة، كسباً للوقت، فأعرب عن تأييده لذلك وغادر القاعة لكي ما يلبث أن يبعث على أحد الطلبة المناقشين، الذي هرع إليه وهو يرتجف خشية أن يتلقى ما لا تحمد عقباه... ولكنه تلقاه بصدر رحب، وشدّ على يديه وقال له: لشدّ ما أريد من الأساتذة الجامعيين أن يمارسوا دورهم بهذا القدر من الحرية للطلبة كما فعل أستاذكم... وتبرع له بهدية قيمة، فعاد الطالب وهو لا يملك نفسه من الفرح...

فيما بعد، في عام (١٩٧٩م)، حيث تسلّم صدام حسين السلطة في العراق في أعقاب ما قيل عن مؤامرة من داخل الحزب للإطاحة به، ساق غانم عبد الجليل والكبيسي، محافظ نينوى، وجملة من كبار القادة الحزبيين إلى الموت!! وقد تبين لي ـ وربما أكون مخطئاً ـ أن موقفه لدى زيارته تلك جاء في سياق تحرير سياسات الحزب من عقيدته الشمولية التي تكره النقاش والحوار المفتوح، وأنه وزملاؤه بتوجههم هذا لمنح الحزب شرعيته الحقيقية في العمل ذهبوا ضحية رغبتهم تلك في كسر التفرّد والانفتاح المطلوب.

وكانت السيمنارات التي يعقدها القسم بين الحين والحين، هي إحدى نقاط الصراع القاسي مع أصناف من التدريسيين، أولهم الصنف المزدوج بين قناعاته الماركسية الإلحادية وقشرته البعثية... والصنف الآخر من المستقلين والإسلاميين الذين لم يكونوا ينبسون ببنت شفة إسناداً للحقّ، لأنهم كانوا يهيئون أنفسهم ليوم سيعلنون فيه انتماءهم للحزب القائد، وليجنوا من وراء ذلك المكاسب والمناصب الزائلة للأسف الشديد... وثمة فئة ثالثة من

الطائفيين الذين كانت تؤذيهم مناقشاتي في تفنيد مقولاتهم الخاطئة، فكانوا يكظمون غيظهم ولا يقدرون على مواصلة النقاش. أذكر منهم الدكتور يحيى الدجيلي، القادم من أمريكا أسوةً بالدكتور خضر الدوري، والذي أزعجه أن أفند عبر إحدى السيمنارات كل مقولاته الطائفية دون أن ينبس ببنت شفة... فلما غادر الموصل إلى بلد آخر بعث برسالة إلى رئيس القسم الدكتور اليوزبكي يبلغ فيها تحياته إلى كل أعضاء القسم دون أن يذكر اسمي حقداً وغيظاً.

ويوماً جاء الدور عليّ لإلقاء بحثي في سيمنار القسم عن السياسات المالية في خلافة عمر بن عبد العزيز، لكني في اللحظة الأخيرة أردتها فرصة لمجابهة الشيوعيين المبطنين ببحث بديل يحمل عنوان (الاستشراق بين الصليبية والماركسية) كنت قد أعددت قبل يوم واحد، رؤوس نقاطه، ورحت أشرح الموضوع بتمكن وانسياب، معززاً وجهة نظري بين الحين والحين بنصوص من كبار الكتاب، وكنت أحس بسعادة نفسية طاغية وأنا أشن هجومي على مقلدي الفكر الغربي وتلاميذه السذج... وكنت أرى أعين القوم تدور في محاجرها وتتميز تجهماً وغيظاً، بينما رحت أنا أشدّد هجومي بأسلوب علمي هادئ رصين بعيد عن اللغو والإنشائيات، وعندما حان دور النقاش عرفت كيف أردّ على هجومهم واحداً بعد الآخر، فلم يقدر أحد منهم على أن ينفذ إلى شيء مما أشرت إليه في المحاضرة، وغادرت القسم وأنا أحمد الله على أن وفقني لما كنت أطمح إليه...

وفي يوم آخر، أتلقى تقريراً من أحد طلاب الصف الثالث يبين فيه موقفاً ماركسياً لا دينياً هداماً لأستاذ آخر في قسم التاريخ، فيتملكني حقد مرير، ورغبة في الصراخ والتدمير... يا لها من محنة... وينتابني شعور قاس بأن كل جهودنا في الكلية تضيع عبثاً... ومن نحن؟ قطرات في بحر متلاطم من الفكر المعادي الهدام الذي لن نستطيع مهما فعلنا أن نكفَّه عن الهدير، أو نعطيه ـ على الأقل ـ لوناً وطعماً... وتنتابني الرغبة في الانتقام ولكن كيف... كيف؟ وكل الهدامين في كليتنا محسوبون على الوضع... والحوار معهم قد يؤدي إلى

مصير غير معلوم... كيف؟ لكن العزاء ما يلبث أن يتنزل من فوق من الله ﷻ... إذ علينا أن نعمل ونجهد، ولا يهم بعد ذلك نتائج العمل والجهد، ما دامت مسطرة عند الله الذي لا يعزب عنه سبحانه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

ولا زلت أذكر أنني على مدى عشر سنين، وأنا أبذل جهداً استثنائياً خلال مهمتي التدريسية لجعل أعناق الطلبة الضالين تفيء إلى الحقّ... دون أن أحظى إلا بالقليل... القليل... ولكن ما ألبث أن أفاجأ بعد ذلك بسنوات قد تطول وقد تقصر، وإذا بعدد كبير منهم انتمى طواعية إلى خط الإيمان... فأحمد الله ﷻ...

وخلال دعوة وجهت لي لحضور مهرجانات الربيع قررت الاعتذار عنها، خشية أن يكون فيها نوع من الملق السياسي، انتابني نفس الشعور القديم بالعزلة المؤلمة، وبأني طالما ضيعت على نفسي فرصاً اجتماعية ممتازة، ما كان لها أن تضيع لولا هذه الحساسية الفائقة تجاه ما يمس قناعاتي ويدفعني دفعاً إلى اختيار هذا الأسلوب... وفي شرفة نادي جامعة الموصل قلت لأحد الأصدقاء الأساتذة: لقد كدحنا في عالم الدراسة الشاقة ما يقارب ربع القرن، وكان لنا أخيراً أن نقطف ثمار هذا الجهد المرير حياة اجتماعية هنيئة وفرصاً جامعية مفتوحة، إلّا أننا لم نحظ بشيء ووجدنا أنفسنا نرتطم بجدار العزلة التي لم نخترها ولكنها فرضت علينا فرضاً، لأن أية محاولة لتخطيها سوف تقودنا إلى الانتهازية والاندماج... والضياع!! فلم يحر الرجل جواباً، لأنه هو نفسه كان يومذاك يتحفز لاجتياز الحصار واللحاق بالآخرين!!

وأفاجأ ذات يوم بورقة موضوعة على مكتبي، يطلب مني فيها رئيس القسم (توفيق اليوزبكي) أن أبيّن مبررات عدم حضوري للكلية في عيد الطالب، ويطلب مقابلتي... فأحسست أنه يستفزني بطلبه هذا، إذ ما أكثر المرات التي تغيّب فيها التدريسيون عن مناسبات كهذه، ورغم أنه كان قبل فترة قصيرة قد استدان مني مبلغاً من المال، وكان يتحتم أن يكون على شيء من الوفاء معي إزاء ذلك... إلا أنه بسكرته البعثية مضى في الاتجاه المعاكس، فبعث إلي بتلك

الورقة، وكرر طلبه بضرورة مقابلتي... فما كان مني إلا أن أرفض الذهاب إليه وأن أتعامل معه على مستوى الكتب الرسمية... حيث بينت له أنني تغيّبت دونما أي عذر، وأن له أن يتخذ من الإجراءات ما يشاء ضمن الضوابط القانونية... لقد تصوّرت أن ذهابي إليه يعني تنازلاً عن شيء من كرامتي وتراجعاً عن موقفي الذي قررت اختياره لمجابهة تصرفه... ولذا قررت عدم الذهاب وليكن ما يكون.

وبعد يومين فحسب تلقيت العقوبة الرسمية التي أحسست معها بخيبة أمل قاسية، وبأن العلاقات الأخلاقية أخذت تنهار في كليتنا بشكل مريع، سيما وأن العميد الذي كان بيني وبينه في يوم ما علاقات عميقة في سياق العمل الإسلامي، قد اشترك هو الآخر في صياغة العقوبة وتنفيذها... وطيلة الليالي التالية كنت أصاب بأرق مركّز كانت تجتاحني خلاله أحقاد مريرة ضد هذين الرجلين، لم تكن العقوبة التافهة بحد ذاتها لتهمني، ولم تكن حتى العبارات القاسية التي صيغت بها لتزعجني كذلك، لكن ما آلمني هو الموقف الإنساني نفسه... فلم يعد هناك على ما يبدو موقف من هذا النوع على الإطلاق... إن العمل التدريسي في الجامعة أصبح ملعوناً!!

لم تكن مسألة العقوبة لتسبب أكثر من إحساس بالحقد ورغبة بالانتقام، لكن ما حدثني به أحد مسوؤلي الجامعة الأصدقاء من أن هنالك محاولة أكبر بكثير لإخراجي من الجامعة، أو حجب قانون الخدمة الجامعية الجديد عني، أو على الأقل إلحاق الأذى بي كمحاولة تأديبية لموقفي السلبي المضاد... هذا الحديث الذي غمرني بالفرح أول الأمر، سرعان ما استحال طيلة الأيام التالية إلى ندم لم أعرف له في حياتي مثيلاً... إن ما كنت أريده هو أن أتلقى الأذى (السعيد) بسبب موقفي الفكري، لا بسبب خطأ أو تصرّف شخصي انفعالي... وأن أشد ما يؤلمني أن أتلقى أي أذى أو خسارة بسبب خطأ من هذا النوع... إن الإحساس بأنني أنا الذي قدت نفسي ومستقبلي إلى الدمار بسبب تصرّف شخصي خاطئ كاد يسحقني سحقاً... وعلى خلاف ذلك فإنني على استعداد لأن أتلقى الدمار الكامل

إذا كان ذلك بسبب موقف عقائدي... إن الدمار سيتحول إلى رحلة سعادة بالغة في عالم البذل العطاء... إنه الأذى الذي كنت أنتظره بصبر فارغ منذ عهد دراستي الجامعية... إنه الامتحان في الله... فهنالك يتبين الذهب من التراب، وأنا لحدّ الآن لم أتفحص معدني، ولم أكو بنار التمحيص التي لا بدّ منها لكي أعرف هويتي أمن ذهب هي أم من زبد وتراب؟

ويكتسحني الندم العميق... الندم الذي لا يطاق... لماذا؟ لأن العقاب المنتظر سيجيء هذه المرة بشكل أو بآخر، بتصرف شخصي انفعالي محض، كان بمقدوري بشيء من التنازل المقبول، والمرونة المطلوبة أن أتجاوزه، ومن ثم يجيء العقاب الكبير خالصاً نقياً مصدره واضح بين: الموقف وليس غير الموقف!!

ويزيدني ألماً أن هذا الإحساس بالندم يجيء لكي يدمر عليّ سعادة التوقع التي انتظرتها منذ سنين طوال... توقع الأذى والصبر عليه... ها هو خطأ ثانوي يوهمني بأنه السبب وراء ما سيأتي... وعبثاً أحاول تعزية نفسي بأن هذا الخطأ الشخصي نفسه وليد رفضي حضور اجتماعي القسم اللذين توقعت أن ستثبت في محضرهما العبارات اللا أكاديمية إياها، وبأن العقاب المتوقع، كما أكد لي أحد الأصدقاء، مسألة أقدم بكثير وأعمق جذوراً بكثير، وأن هذا التصرّف لا علاقة له البتة بالموضوع من قريب أو بعيد.

ومن ثم بدأت فكرة الاستجابة لإلحاح الأصدقاء وتقديم قدر من التنازل الشخصي لرئيس القسم بالذهاب إليه في مكتبه تراودني بين الحين والحين... وبعد تردد ممض طويل أصابني بإرهاق عصبي يصل إلى حد الغثيان، قررت الذهاب... وفي اليوم التالي توجهت إليه بحجة تقديم تمهيد للبحث الذي سأناقشه قريباً في مناظرات القسم، ولقد لمست في ملامحه قدراً كبيراً من الاستجابة والارتياح... وغادرت المكتب وأنا أتساءل: هل سأمنح فرصة جديدة؟ ويقيناً لو تم هذا فإنني سأعرف كيف أفرّق بين ما هو شخصي وما هو عقائدي، فأكون مرناً في الأولى صلباً في الثانية، ولن تشتبه عليّ الأمور بعدها أبداً... ترى ـ مرةً أخرى ـ هل سيتاح لي ذلك؟

ويوماً وأنا ألتقي الدكتور أحمد الحسو، مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية، فإذا به يحدثني ذلك الحديث الممتع والمقلق عن وضعي المتأزم في الكلية، وأغادر بيته وأنا أتأرجح بين مشاعر المتعة والقلق... المتعة التي تنبثق كالنبع الثر من شعوري بأنني أصبحت ذا جدوى، وأنني أضع خطواتي على طريق التطهر والتوحد، ومن ثم تندفع مشاعري باتجاه مزيد من الرفض، ومزيد من التطهر والتوحد حتى لو أودى ذلك بمستقبلي... والقلق بسبب الخوف، وفقدان الضمان، والرغبة في حماية منجزاتي المادية والاجتماعية التي تعبت كثيراً من أجل الوصول إليها، ويساورني خوف عميق من تضييعها ببساطة من جراء موقف يتخذ أو عبارة تقال أو كلمة تنشر في مجلة أو كتاب... ولكني سأظل أقاوم...

أسرعت بتقديم نسخة غير كاملة من كتاب **(دراسة في السيرة)** لغرض التعضيد، وسرعان ما أعادها رئيس القسم طالباً أن أتقدم بنسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة وفق الأصول المتبعة... ومن ثم كانت الأيام التالية سلسلة طويلة مرهقة من القلق والهم والتعب لإيجاد مخرج لهذا العبء الجديد، وأخيراً وبعد اتصالات عديدة مع أكثر من طبّاع، وبعد تردد بشأن مفاتحة العمادة تمكنت من إنجاز المهمة بعد جلسات مملة قاسية في أحد المكاتب.. ورغم ذلك ــ قلت في نفسي ــ إن المسألة ليست مؤكدة النتائج على الإطلاق.

وتمرّ الأيام والأسابيع، وينتابني إحساس مؤكد بأن عضوَي اللجنة اللذين أحيل إليهما طلب التعضيد يتعمدان الإهمال لسبب أو آخر... وأخيراً قررت أن أكتب عريضة أطلب فيها سحب الطلب إشارة إلى عريضتي السابقة التي قدمتها قبل أكثر من شهر، وبينت فيها أني سأضطر إلى سحب الطلب خلال شهر واحد إذا لم أحظ بجواب... وها قد مضى أكثر من شهر دونما جواب... وأتجه إلى الكلية وأنا أتميز غيظاً، وأحاول أن أضبط أعصابي قدر الإمكان كيلا تفلت مني كلمة أو عبارة في العريضة المقدمة، ربما تؤدي إلى نتائج غير طيبة، ولكنني وبعد لحظات من تسليمي العريضة للطبع أعلم بأن اللجنة قد

أبدت رأيها في الموضوع، وبعثت بمطالعتها إلى لجنة التعضيد المركزية في رئاسة الجامعة، فأشعر بنوع من الارتياح العميق، وبأني قد تخلصت بذلك من أثقال حقد مرير، ربما كان سيستنفذ مني جهداً نفسياً وعصبياً كبيراً.

ولكن سرعان ما عكّر عليّ هذا الإحساس السعيد، إحساس آخر أقرب إلى الوهم، وهو أنني قد تنازلت بشكل أو آخر من أجل ضمان المال. وأعزي نفسي ـ عبثاً ـ بأن المبلغ الذي سأحصل عليه سوف يذهب إلى ما وراء دائرة مصلحتي الشخصية. إلا أنني ما لبثت أن فاتحت مساعد رئيس الجامعة، الصديق أحمد الحسو، ذا العلاقة المباشرة بموضوع التعضيد، فأكد لي بأنه تسلّم التقرير قبل انقضاء مدة الشهر، لكنه قال: يا حبذا لو سحبت الطلب من أول الأمر...

لم آبه للعبارة لحظتها، إلا أنني ما لبثت أن وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الاحتمالات القاسية: وهي أن اللجنة قد استغلت طلبي لقليل من المال، فراحت تعمل في البحث تشريحاً ونقداً، كمحاولة للتنفيس عن الحقد والحسد، وكتعبير عن الخلاف الفكري والمنهجي بيني وبينهم، ورغم أن رئيس القسم عبر عن سلامة التقرير وإيجابيته، إلا أنني لم أرتح للموضوع، وسارعت ثانية لمقابلة مساعد الرئيس، كعادتي دائماً في الإلحاح على تحديد المواقف، وسألته أن ينصحني بخصوص الإجراء الأسلم في الموضوع. فبيّن لي ـ بعد تردد ـ أن من المستحسن سحب الطلب لأن مروره في ظروف فكرية كهذه عبر ممر الجامعة كمؤسسة رسمية، أمر غير مقبول، ويمثل تناقضاً واضحاً مع معطياتي الفكرية نفسها... ولقد اقتنعت بالفكرة، وأنا ألعن الأرضية الفكرية التي تقود المفكر الجاد إلى مواقع السلب والاضطهاد... وعدت إلى البيت وأنا أحسّ بفرح عميق... فرح من ألقى عن وزره حملاً ثقيلاً...

وبدأت الغيوم تتجمع... وعبر حديث مع (الحسّو) مساعد رئيس الجامعة، أعلمني عن احتمال إلغاء شمولي بقانون الخدمة الجامعية الجديد، وضرورة مقابلة رئيس الجامعة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان. ولكنني ترددت في

الموضوع... وعبر مقابلة أخرى مع مساعد الرئيس يتم تأكيده على الموقف نفسه، وينصحني بأن أتساهل قليلاً في قضية نشر بحوث ومقالاتي في المجلات المعادية!! وأن أخصص بعضها لصحف الدولة والحزب تعبيراً عن الولاء قبل أن يصدر عنهم ما لا تحمد عقباه... فأجبته إجابة قاطعة لا مساومة فيها: إلا هذه!! ولن يجدوا مني كلمة واحدة مما يريدون!!

في اليوم الثالث من شهر تشرين الأول عام (١٩٧٧م) تصدر قوائم المتفرغين الذين سيحظون بمكاسب قانون الخدمة الجامعية الجديد، فأطلع عليها، فإذا بي لست منهم... وكانت بحق فرحة غامرة كنت أنتظرها منذ زمن طويل... فرحة أترعت وجودي بإحساس من السعادة لا يوصف... فثمة الخلاص من الدوام المرهق الذي أضاف ساعات أخرى يتوجب فيها البقاء في الأقسام العلمية، وثمة الاقتناع النهائي بضرورة إعارة خدماتي لإحدى الجامعات خارج العراق... وثمة ما هو أهم من هذا كله انني أدفع بقدر من التضحية المادية ضريبة موقفي الفكري وما يقتضيه من بذل عطاء...

ومن غرائب المفارقات، أن يرشحني رئيس القسم عضواً في لجنة قانون ضبط التفرغ، وإبداء الرأي فيه، مع أستاذين آخرين، رغم أنني من غير المشمولين بالتفرغ، ومع ذلك فقد اجتمعنا حسب الموعد المحدد وقدمنا عدداً من الاقتراحات، السخيفة، ثم تبين أن رئيس القسم فهم الأمر خطأً!!

في صبيحة الخميس، حيث كنت عائداً من رحلة إلى بغداد بخصوص متابعة قضية الإعارة ومحاولة إنقاذها من الفشل المحتوم، نقل لي بعض المدرسين ما جرى في ندوة يوم أمس، والحملة العنيفة التي شنّها عميد الكلية على الخرافة والمخرّفين، المتشبثين بالفكر الغيبي، وأنهم سوف لا يسمح لهم في البقاء بالكلية بعد اليوم... وكم كان لذلك الموقف من وقع سيئ في نفسي، لا سيما وأنني كنت قد اتصلت في الليلة السابقة تلفونياً بالعميد أعلمه بأنني قد عثرت له في بغداد على دار للإيجار، لكن لم يكن موجوداً، فطلبت من أهله أن يتصل بي بعد عودته، إلا أنه لم يتصل نهائياً، الأمر الذي أكد لي

أنني أحد المستهدفين من حملته العنيفة تلك... وقلت في نفسي: كم كان جميلاً لو سمى الأشياء بمسمياتها، وقال إن الفكر الديني لا مكان له في الجامعة... أما أن يلجأ إلى أسلوب خبيث، وطريقة قذرة في الحرب النفسية فيسمي حملة الفكر الديني بالمخرفين، فذلك أمر مغيظ حقاً...

بعد يومين تلقيت كتاباً من مديرية الأمن العامة في بغداد يطلب حضوري بالسرعة الممكنة، ولقد أطلعت على الكتاب كما لو كان أمراً اعتيادياً، ورجحت أن له علاقة ما بمسألة إعارة خدماتي أو أنه على أبعد احتمال مجرد استفسارات عن بعض كتاباتي ومواقفي في الكلية التي بولغ في تصويرها... ولكن سرعان ما تبين أنه بسبب وصول جملة أعداد من صحيفة مغربية تتضمن هجمات قاسية ضد القيادة العراقية، حيث سارعت بإرسال برقية إلى المغرب، أطلب إيقاف إرسال الصحيفة.

في عصر اليوم نفسه التقيت بأحد الأصدقاء فأعلمني أن وضعي في الكلية مهتز إلى حد كبير، وأنهم كانوا قد قرروا بشكل نهائي نقلي إلى وظيفة إدارية، ولكن القرار جمد مؤقتاً، فتلقيت النبأ بسرور باطني عميق، فلعل الإدارة تنقذني من مشاكل التدريس... كما أن هذا الإحساس استمد من معين الرغبة بالتضحية... كما حدثني الصديق نفسه عن ندوة الأربعاء، وأن العميد لم يقصدني شخصياً، وإنما كان يتكلم في نطاق عام، وأكد لي المعنى نفسه الدكتور عمر الطالب الذي زرته قبل سفري متوجهاً إلى بغداد.

في اليوم التالي كلفني القسم بتدريس محاضرتين أسبوعياً لطلبة قسم الماجستير الذي افتتح حديثاً، فتلقيت الأمر بعدم ارتياح إذ أن ذلك يتطلب مني مزيداً من الجهد في التحضير والتدريس، في وقت كانت فيه حالات ضيق النفس المركزة خلال التدريس تزداد عنفاً وشراسةً... وبعد يومين ألقيت المحاضرة الأولى على طلبة الماجستير، وكان لقاء ممتعاً تبودلت فيه الآراء واشترك الطرفان في بناء المحاضرة... وغادرت الغرفة وأنا أحسّ بارتياح عميق، إذ أن تدريس مادة السيرة النبوية سوف لا يقتضي تحضيراً بسبب

تمكني من المادة، وبسبب الجدول الموضوعي الذي نظمته لعرض المادة ومناقشتها.

في مساء ذلك اليوم تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الأصدقاء يخبرني فيها ـ بعد تردد ـ بنبأ نقلي من جامعة الموصل إلى مديرية الآثار العامة في بغداد... ولولا أنني كنت مرهقاً ذلك اليوم لتلقيت النبأ بارتياح عميق ولأنني كنت أتوقعه، بل أنتظره... فضلاً عن أن هذا الإجراء سيقتضي مني جهداً جديداً وسفراً متواصلاً لمتابعته في بغداد، ومحاولة الحصول على مكان في الموصل... كما أن الدور القذر الذي لعبه بعض الزملاء في الكلية أشعل في قلبي حقداً مرهقاً!!

في اليوم التالي اتصلت برئيس القسم أطلب الانفكاك، فأعلمني أن علي أن أواصل التدريس لحين صدور الأمر بالانفكاك، فألقيت محاضرة أو اثنتين بشكل طبيعي تماماً، وفي المساء اتصلت بعدد من الأصدقاء لتهيئة الوساطات بصدد تعييني في الموصل، بدلاً من بغداد، وفي لقاء مع أحدهم شعرت بارتياح عميق وإحساس بالغ بالثقة، وهو يحدثني كيف أن مقالي الأخير في مجلة (العربي) الكويتية ذات الانتشار الواسع، والذي يحمل عنوان (**الإسلام ليس تراثاً**) كان أحد الأسباب في نقلي. ولقد كانت تعليقات بعض الأصدقاء بصدد مؤلفاتي وكتاباتي ودورها في متاعبي الوظيفية، تجد في نفسي تقبلاً عظيماً، هذا فضلاً عن أنها تطرد من نفسي الأحقاد الشخصية ضد عدد من الزملاء في القسم، تلك الأحقاد التي أخذت تسدد إلي سهاماً قاسية لا تطاق.

والحقّ أن كلّ ما بذله هؤلاء (الزملاء) وأتباعهم في اتحاد (الطلبة) من جهود لزحزحتي عن الكلية وعلى مدى سنوات طوال، لم تأت بنتيجة، بسبب رصانتي العلمية، والتزامي الدقيق بمطالب عملي الأكاديمي، والفائدة الكبيرة التي كان الطلبة يحصلون عليها من تدريسي إياهم ومحبتهم لي، والتفافهم حولي... فضلاً عن إنتاجي العلمي المتواصل، وتحويل المحاضرات الصفية إلى ساحة للحوار المفتوح... ولذا كان صدور الأمر بنقلي من الجهات العليا في

بغداد، جاء على غير توقع منهم... ففوجئ به عميد الكلية، ورئيس قسم التاريخ فيها..

وأغلب الظن، كما أكد لي عدد من الأساتذة المقربين من مواقع السلطة في بغداد، فإن الأمر قد طبخ في مكاتب القيادة القومية لحزب البعث بعد اطلاعهم على جملة من مؤلفاتي خارج العراق، وعلى رأسها (**تهافت العلمانية**) و(**التفسير الإسلامي للتاريخ**) و(**مقال في العدل الاجتماعي**) وكلها تبحر في اتجاه مضاد تماماً لمعطيات الفكر القومي العلماني، الذي تتبناه القيادة القومية، حتى أن قائدها المعروف (شبلي العيسمي) في كتابه عن (**القومية والدولة الدينية**) شن هجوماً قاسياً على ما ورد في كتابي (**تهافت العلمانية**) تجاوز فيه منطق الحوار العلمي وكأنه يستعدي على السلطات... ثم جاء مقالي الذي نشرته مجلة العربي واسعة الانتشار والذي يحمل عنوان (**الإسلام ليس تراثاً**) بمثابة الرّد العلمي المفصل على أطروحات (ميشيل عفلق) وأدبيات الحزب، وكتابات (إلياس فرح) التي طالما حاولوا فيها اعتقال الإسلام في دائرة التراث... جاء هذا المقال بمثابة الإشعار الأخير في ضرورة وقفي عن العمل الأكاديمي كيلا يكون لي التأثير المضاد في عقول الطلبة الجامعيين.

وبعد تردد بصدد تحديد موعد سفري إلى بغداد، قررت أن أسافر في اليوم التالي وأنا أحس بقدر من الارتياح، دفعني لحضور جملة من الفعاليات الرياضية التي شهدتها ساحات الجامعة... وفي اليوم التالي جاءت فرحة موافقة المدير العام للمؤسسة العامة للآثار والتراث على تعييني في الموصل... وعدت ثانية إلى بلدي لكي ألقي محاضرتي هناك ذلك اليوم بإبداع ومتعة... وأزف إلى زوجتي نبأ تعييني في مديرية آثار ومتاحف المنطقة الشمالية بالموصل.

في المساء زرت أحد الإداريين الأصدقاء في داره، وجلست هناك الساعات الطوال، ودار حديث متشعب وطويل غسل الكثير من الأحقاد الشخصية في نفسي، لأن محوره كان ينصب على أن السبب الأساس في متاعبي الجامعية ونقلي بالتالي، هو كتاباتي وأفكاري المضادة للتوجه القومي لحزب البعث، وأنني

لو قدمت شيئاً من التنازل، وأبديت قدراً من (المرونة!!) فإن هذا ما كان ليحدث... وذلك هو ما كنت أسعى للتأكد منه... أن متاعبي هي نتيجة طبيعية لمواقفي الفكرية، وليست نتيجة أخطاء شخصية أو خلافات خاصة... وفي البيت أعلمني الأهل باستعدادهم للسكنى معهم إذا ما أخرجوني من الدار الجامعية، فكانت فرحة أخرى.

في اليوم التالي ألقيت محاضرة الوداع الأخيرة... أفرغت فيها جهدي... وبعد تثبيت موعد الانفكاك غادرت الكلية غير مأسوف عليها... وأستيقظ يوم الخميس وأنا أعاني قلقاً بصدد دوامي الجديد وأين سيكون؟... وفي مديرية آثار نينوى اتصل المسؤول هاتفياً بالمدير العام في بغداد فأعلمه هذا أن بمقدوري أن أسجل مباشرتي في الموصل... وأن أداوم هناك لشهر أو شهرين، ريثما يعاد تنظيم مؤسسة الآثار، وحينذاك سيتم تثبيت مكاني بشكل نهائي.

وكان هذا الموقف بمثابة بشارة كبيرة ملأتني فرحاً وحبوراً... ها أنا ذا إذن قد تخلصت من الذهاب المزعج إلى بغداد لتسجيل المباشرة، وضمنت إلى حد كبير بقائي في الموصل... وغادرت الدائرة إلى الكلية لتسلّم أمر الانفكاك وأنا أكاد أطير فرحاً، وعدت ثانية لتسليمه إلى دائرتي الجديدة، وتسجيل مباشرتي، واتجهت إلى رئاسة الجامعة لمتابعة المسألة، ثم عدت إلى البيت لكي أخبر الأهل بهذه البشرى السارة، فما كان من زوجتي إلا أن تطبع على خدي قبلة الفرح!!

أما قضية إعارة خدماتي للعمل في إحدى جامعات الخليج، فتلك مطحنة أخرى استهلكت من أعصابي ووقتي وراحتي الشيء الكثير، ولا زلت أعض أصابع الندم على أنني سمحت لنفسي بالدخول في دوامتها القاسية التي لم تتمخض عن نتيجة على الإطلاق، وأنه كان يتحتم عليّ قبل ذلك أن أتخذ قراراً حاسماً باستقالتي من جامعة الموصل والسعي من ثم للإعارة أو أن أظل على ما أنا عليه وأكفّ عن ملاحقاتها القاسية، والمعقدة، والتي لم تسفر عن شيء.

ذلك أن مثقفي البلد، وعلماءه، كانوا يعيشون في ظل حكم شمولي لن

يسمح لأحد منهم كائناً من كان أن يتجاوز خطوطه الحمراء، وأن يغادر العراق على هواه للعمل في جامعة أخرى، إلا أن يكون حزبياً، يتلقى تعليماته من قيادة الحزب وينفذ دورهم المرسوم... وإلا فإن ألف محاولة خارج دائرة الحزب لن تتلقى سوى كلمة: (لم تحصل الموافقة)!!

بدأت أولى محاولاتي البائسة للإعارة، يوم قمنا برحلة عائلية إلى الكويت في شتاء عام (١٩٧٦م) حيث انتهزت فرصة علاقتي الوثيقة بالأستاذ الدكتور (رشيد الفيل) رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يملك موقعاً مؤثراً في جامعة الكويت لتقديم طلب بإعارة خدماتي لكلية الآداب فيها... وفي نفس الوقت، وبعد مضي شهر على تقديم الطلب، وقبل أن يأتيني الجواب اتصلت ببعض أصدقائي من الأساتذة العراقيين الذين يعملون في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أطلب منهم متابعة موضوع طلبي للعمل هناك.

ما لبث الدكتور الفيل أن بعث إليّ برسالة يخبرني فيها حول موافقة جامعة الكويت المبدئية على العمل فيها... تملكني فرح غامر لم أحظ بمثله إلا نادراً... فكأن أبواب السعادة والخلاص قد فتحت لي، وعدت إلى البيت وأنا أكاد أطير فرحاً لكي أبشر زوجتي بالخبر غير المتوقع.

بعدها بأسابيع معدودة تصلني رسالة جوابية من الأخ والصديق الأستاذ الدكتور أكرم العمري حول امكانية العمل في جامعة المدينة المنورة، قسم الدراسات العليا، وترحيبهم بي هناك... حيث انتابني فرح عميق مشوب بحيرة بالغة حول الاختيار بين الكويت والسعودية، واتخاذ قرار نهائي بأن تكون السعودية خط رجعة لي في حالة عرقلة العمل في الكويت... فما دمت قد قررت العمل في الخارج هذه السنة، وربما التي تليها، فإن هذه الرسالة تفتح لي باباً آخر لتحقيق هذا الهدف بإذن الله.

وتصلني برقية محيرة من جامعة الكويت حول ترشيحي عضواً احتياطياً، فأفاتح رئيس قسم التاريخ، حول احتمال عملي في الخارج، وإعلامه إياي بأن مواضيع كهذه هي من اختصاص وزارة التعليم العالي، وكنت خائفاً من أن

يقطع علي الطريق... ومن ثم أسارع بإرسال برقية جوابية لجامعة الكويت، أطلب فيها تحديد موقفهم النهائي من ترشيحي لكي أكون على بينة من أمري، ورحت أنتظر الجواب وسط دوامات القلق والحيرة بين جامعتي الكويت والمدينة، فيجيئني جواب جامعة الكويت مؤكداً استمرار ترشيحي كعضو احتياط، وأنه سوف لا يبت في الأمر على ما يبدو قبل مضي أسابيع أخرى... وتزداد الحيرة عنفاً بصدد الاختيار بين جامعتي الكويت والمدينة المنورة... حيرة مشوبة بخوف من ضياع فرصة ذهابي إلى المدينة، حيث يتواجد عدد غير قليل من أخلص الأصدقاء... لكن جامعة الكويت لها إغراءاتها هي الأخرى: فهنالك الأجواء الممتعة، والدار المؤثثة، والحياة العائلية السعيدة، بعيداً عن التغرّب والوحدة، إلا أن تعليقهم الجواب النهائي إلى شهر أيلول، ربما يؤدي إلى ضياع فرصتي مع المدينة، بل ربما يؤدي إلى ضياع الفرصتين معاً... فمن يدري؟!. وأحس أحياناً بأني بالموافقة على العمل في إحدى جامعات السعودية، قد تنازلت عن أحد مبادئي التي أعتز بها... ألّا أعمل في أي بلد رجعي، وألا أحضر مؤتمراً يخدم أية سلطة حاكمة.

بعد أيام قلائل تصلنا أنباء عن انتشار الكوليرا في السعودية، فأجدني أعود ثانية إلى دوامة القلق والحيرة، وأنساق وراء الموازنة بين سلبيات ذهابي للسعودية وإيجابياته... وأحس بين الحين والآخر بقدر غير قليل من الندم على إقدامي على هذه الخطوة، خاصةً وأن معظم خصومي في القسم قد غادروا الكلية إلى حيث لا رجعة!!

وما لبثت أن طالعتنا في الكلية صيغة قانون التفرغ (المعدّل) منشورة في الصحف... وكم كانت فرحتي غامرة جارفة عندما حسبت مقادير الراتب الجديد فوجدتها هزيلة تافهة لا تقارن البتة بما سأحصل عليه هناك في المدينة المنورة.. وامتلأت قناعة بصواب إقدامي على إعارة خدماتي لهذا العام.

عصر يوم السبت الخامس عشر من تشرين الأول عام (١٩٧٧م)، يتصل بي أحد الأصدقاء ويعلمني أنه تلقى معلومات تشير إلى أن معاملة إعارة

خدماتي سترفض، إن لم أتداركها بوساطات قوية وبالسرعة الممكنة، لأن ثمة من أثار المتاعب في طريق المعاملة... وكان للنبأ وقع مرّ في نفسي، وإن كان قد اقترن بقدر غير قليل من الارتياح شأني كلما أُمنَى بخسارة في هذه المسألة أو تلك!! ومهما يكن من أمر فقد عزمت في اليوم التالي على أن أشمر عن ساعد الجدّ، وأحرّك من أستطيع تحريكه لإنقاذ المعاملة... فاتصلت تلفونياً ببغداد، فأكد لي المسؤول عن الإعارة في الوزارة، بأن عدداً من الطلبات قد بدأت ترفض فعلاً... كما هرعت إلى أحد الأصدقاء علّه يعينني في الأمر عن طريق أحد أقربائه، وما لبثت في اليوم التالي أن ركبت القطار في طريقي إلى بغداد.

كان أوّل اتصال بأحد أساتذة قسم أصول الدين في كلية الآداب، حيث بين لي استحالة الموافقة على سائر طلبات الإعارة المتبقية، لأن تعليمات عامة قد صدرت بشأن عدم الموافقة، وأن الذين خرجوا جاوزوا الحدّ المطلوب... اتجهت إلى المستنصرية والتقيت بصديقين هناك من أساتذة قسم اللغة العربية فأعلماني بأنهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً... اتجهت إلى الوزارة لكي أتأكد أن معظم الأجوبة الأخيرة جاءت بالرفض.

في صباح اليوم التالي اتجهت ثانيةً إلى كلية الآداب حيث التقيت بعميدها ورئيس قسم التاريخ فيها فأعلماني أنهما لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً... ثم ما لبثت أن غادرت بغداد عائداً إلى الموصل، وتذكرت أن ثمة وساطة فعالة يمكن أن أعتمدها في إنقاذ معاملتي من الفشل المحتوم... وانتابني ندم شديد: لماذا لم أعتمد هذه الوساطة قبل ضياع الأمل، لماذا لم أفد من هذه الفرصة الذهبية في الوقت المناسب... فلو أني قد تذكرت وقتها إذن لكنت قد ضمنت الموافقة... ومع ذلك فإن الأمر بيد الله ﷻ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم... وبعد أن طرحت الأمر على أحد الأصدقاء أعرب عن الاستعداد للاتصال بأخيه لبذل جهوده... وكان عليّ أن أسافر ثانية إلى بغداد من أجل كسب يوم في سباقي مع الزمن، والتقيت مساء الجمعة بالدكتور محمود الجليلي

ﷺ، لكي يعمل من جهته على المساعدة من خلال علاقته الشخصية بأحد الوزراء.

عدت ثانية إلى بغداد، وقمت بزيارة عدد من الأصدقاء للوساطة في مسألة الإعارة: كلية القانون، المستنصرية، وزارة المالية، الإمام الأعظم حيث لم أعثر على الشخص المطلوب، فتوجهت إلى وزارة التعليم العالي فإذا بي أفاجأ بكتاب رفض طلب إعارة خدماتي... وكان رد الفعل اعتيادياً، إذ أنني كنت أتوقع النتيجة مسبقاً، ومما زاد من ارتياحي أن تاريخ الرفض يسبق محاولات الوساطة جميعاً.

ثمة شبكة من المتاعب التي لاحقتني بخصوص مقدمات قانون الكفاءات التي صدرت عام ١٩٧٥م) والمتمثلة بمنح قطعة أرض لمن لا يملك قطعة للأساتذة كافة، والسماح لهم باستيراد سيارة بسعر الشركة المصدرة دون أن يترتب عليها أية رسوم.

أما قطعة الأرض فقد حسمت موقفي منها بعد لأي وتردد، بأن اعتذرت عن تسلّمها لأني سبق وأن اشتريت أرضاً في منطقة الطيران، وإن كان إفراغها لا يزال معلقاً بسبب تعقيدات المعاملة... والتي مارست تعذيبي الشهور الطوال بسبب مطالبها المتشابكة... رغم أن العديد ممن كانوا يملكون أرضاً حصلوا على قطعتهم الثانية... إلا أن حساسيتي الفائقة وتخوفي من أن يفتح عليّ ذلك بوابة واسعة للنقد، والاتهام بالتزوير... خاصةً وأن وضعي المهتز في الكلية مما يسمح بذلك... دفعتني إلى الاعتذار، رغم خسارة مبلغ مالي كبير...

وأما السيارة فقد استنزفت مني وعدد من الأصدقاء الكثير من الجهد والقلق، حيث تم الاتفاق مع الدكتور (عمر الطالب) وزميله (بكر عاصي فرحان) على السفر إلى ألمانيا والعودة بسيارات المرسيدس من هناك... يسبق ذلك السفر إلى بغداد للحصول على التأشيرات الضرورية لعدد من البلدان التي سنجتازها.

سبقتهما في السفر إلى بغداد، وانطلقت عبر ظهيرة بغداد الحارة إلى

السفارة التركية لتسليم جواز سفري فأرجؤوا تسلّمه حتى صبيحة اليوم التالي... وفي العودة عبر شوارع الوزيرية الهادئة المشجرة، تذكرت سنوات الدراسة الجامعية، التي عشناها هنا في هذه المنطقة... ورحت أحدث نفسي: هنا عملت كذا... وهناك التقيت بفلان... وهنا تحدثنا عن المسألة الفلانية، وهكذا عدت إلى الفندق لأرتاح قليلاً، ثم لأخرج مساء في جولة تخط طويلة المدى عبر شارع الرشيد والسعدون وأبي نواس، تلك الشوارع التي تعبت أقدامي من ذرعها في السنين الخوالي، والتي كنت أبدؤها دوماً وأنا في حالة من التوازن النفسي والانتشاء والانسجام ثم أنهيها وأنا أعاني من الاضطراب والكآبة والتشتت...

في صباح اليوم التالي سلمت وصديقيَّ الآخرين جوازات سفرنا إلى السفارة التركية، ثم انطلقنا إلى الشركة العامة للسيارات لنستفسر عن بعض المشاكل المتعلقة باستيراد السيارات... ورحنا عبر الأيام التالية نتابع المعاملات، ونحن نتأرجح بصدد السفر إلى الخارج لشراء السيارات بين الاستقرار والقلق... فحيثما تبدى لنا أن الطريق الوحيد هو السفر شعرنا بسعادة بالغة وبأن أتعابنا لن تذهب سدى... وحيثما التقينا بمن يقول بأن هناك محاولة بشكل أو آخر لاستيراد جماعي للسيارات، أصابنا الهم وشعرنا بأننا نضيع وقتنا عبثاً، وأن الآخرين الذين بقوا مرتاحين في الموصل يجنون الثمار دونما تعب أو عناء.

وبعد سبعة أيام استخرجنا خلالها، وبشق الأنفس، تأشيرات الدخول إلى تركيا والنمسا وألمانيا وقفلنا عائدين إلى الموصل لكي نجابه طيلة الأيام التالية بمزيد من القلق والمتاعب نظراً لكثرة الحلول المطروحة وتناقضاتها في الوقت نفسه. وقد تأكد لي أول الأمر أن أية محاولة جماعية لاستيراد السيارات لم تقم أساساً، لكنني فوجئت بعد يومين بأن محاولة كهذه قائمة فعلاً، فانتابني القلق القديم، ولكنني ـ رغم ذلك ـ قررت والصديقان الآخران مواصلة معاملة السفر حتى النهاية... إلا أننا فوجئنا بأن ثمة صعوبات شتى تكتنف السفر عبر

الطرق البرية في تركيا، وخلال ذلك قرر أحد الأقرباء الذي اتفقت معه على العودة بالسيارة من ألمانيا، إلغاء السفر، فأضاف متاعب جديدة إلى متاعبنا لكننا ما لبثنا أن سمعنا، في اليوم نفسه، بأن مندوب الشركة زار كلية الآداب واتفق مع أحد القمسيونجية على تولي المهمة بشكل جماعي، وبأن قوائم المدرسين الراغبين باستيراد سياراتهم عن هذا الطريق قد نظمت فعلاً... فكان ذلك برداً وسلاماً على قلوبنا، وكأنه الماء البارد ينصب على جوف يلتهب بنار القلق والإرهاق... ومهما يكن من أمر فإن شعوراً بالندم سرعان ما انتابني بسبب ضياع السفرة الموعودة إلى ديار الغرب.

وخلال ذلك كنت أمارس التعلّم على قيادة السيارة، بواسطة أحد المكاتب، فأخرج للتدريب مرتين في اليوم، صباحاً ومساء، وأحسّ بمتعة بالغة وأنا أشعر بتحسّن قدراتي في مجال السياقة يوماً بعد يوم.

بعد أيام قلائل هرعت إلى الرجل القومسيونجي حيث التقيت هناك بأحد الأصدقاء، وسجلنا معاً المواصفات التي نطلبها لسياراتنا، وشعرت بسعادة بالغة وأنا أقارن بين الميزات التي أتمتع بها هنا وبين انعدامها في الشركة العامة التي اختار البعض الاستيراد عن طريقها. وزاد شعوري بالسعادة تلك الخطوة المالية الناجحة التي أقدمت عليها بإشارة من الرجل، حيث جمدت تحويلي القديم، وقمت من جديد بتحويل المبلغ وفق السعر الجديد المنخفض للمارك الألماني، وغادرت المصرف وأنا أحسب المبلغ الكبير الذي حققته في هذه الصفقة والذي يتجاوز المائتي دينار!! وعدت إلى البيت وأنا أحس بأني قد ألقيت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً، كان قد ركبني عفريته ما يزيد على الشهر بأكمله..

عندما تسلمت السيارة المرسيدس في بغداد، وعدت بها وأحد أقربائي إلى الموصل، وعبر قيامنا بجملة من الجولات العائلية فيها، كان يدور في ذهني أكثر من هاجس، ويجتاح نفسي أكثر من إحساس سالب... فهنالك إحساس تناقضي حاد بين الحفاظ على السيارة من أي أذى، ولو كان تافهاً صغيراً،

وبين الرغبة العاتية في التخلص منها... إنني في الحقيقة أحمل من جهة رفضاً للاكتمال الخارجي، لكنني من جهة أخرى يدفعني إحساسي الجمالي إلى الحفاظ قدر الامكان على أي شيء أقتنيه، تافهاً كان أم كبيراً، بأكبر قدر من النظافة والجمال... إن المتعة التي أتحقق بها ـ مثلاً ـ عندما أقرأ في كتاب جميل نظيف، أكبر بكثير من تلك التي أحظى بها وأنا أطالع في كتاب ممزق... فليس ثمة غرابة في الأمر... فأنا لا أريد الاستكثار من المقتنيات لئلا أقع في إسار التكاثر بالأشياء؛ الذي أعلنت عن رفضي له على مستوى الفكر والتمليك، ولكن (الأشياء) إذا ما حدث وأن جاءت، أو أرغمت على قبولها، فإنني أجدني، بإحساسي الفني، ورغبتي القديمة بالتنسيق ملزماً بحمايتها والحفاظ عليها نظيفة، سالمة، جميلة... إن جولاتي في السيارة، وتعلّمي فيها على السياقة التي بدأتها في أخريات الشهر، تثير في نفسي هذه المعاني فأعود في أعقاب كل جولة متعباً مرهقاً.. وما أن أغادرها حتى أشعر بالحرية حقاً!!

في أواخر أيلول من عام (١٩٧٠م)، وأنا أقلّب عقرب المذياع إذا بي أستمع إلى صوت أنور السادات يعلن وفاة عبد الناصر... كان الخبر مفاجئاً، رغم أن المؤشرات الصحية للرئيس المصري كانت تتحرك منذرة بقرب المصير... تلقيت النبأ بحزن عميق، رغم موقفي الواضح من عبد الناصر الذي بذل جهداً مستميتاً من أجل التفرّد بالسلطة... ومن أجل ذلك وجه طعناته القاسية لكل قوى المعارضة والمطالبين بالديمقراطية في مصر وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين التي تعامل معها بوحشية أسطورية... ومع الإخوان كان موقفه من الرئيس المصري محمد نجيب والعديد من أعضاء مجلس قيادة الثورة لا يتسم بأي قدر من الوفاء... وكان مع شهيته الأسطورية للسلطة يعشق حب الظهور وتلقي التصفيق والهتافات من آلاف العبيد الذين كانوا يتجمهرون عند الشرفات التي يطل عليهم منها عبد الناصر... وكانت سياساته جملة من الأخطاء الاستراتيجية التي دفع ثمنها من صحته وعافيته ومن مصير الأمة التي عبدته من دون الله... التفريط بالوحدة التي كانت حلمنا جميعاً... والتي

ما كان يخطر على بال أحد منا أن تنتهي، نتيجة جملة من الأخطاء، إلى الفشل الذريع، وتقود بعدها كل محاولات الوحدة والاتحاد في البلاد العربية إلى الفشل الذريع... مجازفته بالتأميم... اندفاعه الأعمى للدخول في معمعة الثورة اليمنية التي كلفته خمسين ألف جندي واستنزفت ماليته... خطيئة حرب حزيران التي أتت على الأخضر واليابس... ومع ذلك ظل الناس يصفقون له، وظلت الأحزاب القومية ترفع شعاراته وتبرر كل أخطائه تلك...

ومع ذلك كله... فعندما تلقيت نبأ وفاته، كان الأمر بالنسبة لي صدمة قاسية... وفي اليوم التالي، حيث شيع إلى مثواه الأخير، ونقل التشييع الذي كان واحداً من أكبر محاولات التشييع في التاريخ، عبر شاشات التلفزيون... وخرج الشعب المصري يسير وراء جثمانه باكياً حزيناً... لم أمسك نفسي عن الدموع... ورحت أتابع المشهد بتأثر بالغ... ولم تخطر ببالي يومذاك، أية خاطرة من شماتة على الإطلاق... فيما ذكرني بالموقف الحزين نفسه، زمن هزيمة الخامس من حزيران، وإعلانه الاستقالة.

لقد نسيت يومها كل إخواني الذين ذبحتهم سكين عبد الناصر... كل عذاباتهم التي يصعب وصفها... وسجونه ومعتقلاته... كل الهزائم التي ألحقها بنفسه وبالآخرين... وركزت مشاعري عند بؤرة الحزن المرادفة للموت الذي لن يفلت من قبضته أحد من الناس حاكماً كان أم محكوماً... وحيث يتجاوز الإنسان كل صفحات الأذى والغدر التي صدرت عن هذا الرجل أو ذاك... لحظة الوداع الأخير.

وتشتعل حرب العبور في العاشر من رمضان عام (١٩٧٣م)... الأمل الذي كنا نحرق الشموع من أجله... ويعبر الجيش المصري قناة السويس ببطولة نادرة، وتخطيط مدهش، ويكتسح خط بارليف الذي طالما ادعى الإسرائيليون باستحالة اختراقه... وفي الجبهة الشمالية يتقدم الجيش السوري لتحرير الجولان...

كنت أستقل سيارة أحد الأصدقاء للذهاب معاً إلى المركز الجامعي

للاستماع إلى إحدى محاضراته الثقافية، وعند جسر السويس توقف قليلاً حيث أقل الدكتور محيي الدين توفيق، ذلك الرفيق الحزبي الذي كان يكن لي كراهية سوداء، بسبب مواقفي المعروفة، ويقف في طريقي ويترصّد بي، حتى أنه عندما أصبح عميداً لكلية التربية الناشئة ورشحني قسم التاريخ للتدريس فيها، رفض قبولي في كليته، دون أن يدري أن ذلك كان بمثابة فرحة غامرة بالنسبة لي... ولطالما تساءلت بيني وبين نفسي: لماذا هذا السعير الملتهب من الكراهية التي يعاملني بها هذا الأستاذ البعثي أو ذاك، وهذا الطالب الاتحادي أو ذاك؟ وكنت أتلقى الجواب واضحاً بيناً لا لبس فيه ولا غموض: إنه ليس الحرص على مبادئ الحزب من اختراق خصومه... ولكنها المصلحة... ومحاولة التقرّب إلى الجهات الأعلى... والرغبة العاتية في صعود السلّم الحزبي إلى أدواره العليا.. والحصول على المزيد من المكاسب المالية، حيث كان هذا الرفيق البعثي، رغم عماه، يتجه إلى بغداد، بين الحين والحين، ويلتقي بصدام حسين متوسلاً إليه أن يمنحه أرضاً جديدة أو مبلغاً من المال، حتى أن العديد من زعماء السلطة، بما فيهم صدام نفسه، كانوا لا يرتاحون لكديته هذه!!

مهما يكن من أمر فقد استفزه موقفي يومذاك، ونحن ننصت لسماع البلاغات العسكرية من إذاعة القاهرة، فكنت أرفع صوتي وأصفق لدى سماعي أي بيان... وكان هو يكظم غيظه ويلتزم الصمت، حيث لم يكن موقف القيادة السياسية في العراق قد اتضح بعد.

ووصلنا المركز الجامعي وفوجئنا بأن المناسبة هي قراءات شعرية لعدد من شعراء اليسار العربي وتعليق عليها... وإذا بهم جميعاً يتغزلون بجيفارا، وآيندي، الزعيم التشيلي الشيوعي، دون أن يشيروا بكلمة واحدة إلى ما كانت الساحة العربية تشهده من صراع مصيري مع إسرائيل... فما كان منا إلا أن نسكتهم، عن طريق السخرية من هذه المفارقة التي أوقعوا أنفسهم فيها، ونمضي في حديثنا، وبأعلى الأصوات عن الانتصار العربي الكبير.

وتمضي أيام ثلاثة ونحن وسط إحساس غامر بالانتصار الذي حرمناه

طويلاً... وكان يعكر هذا الإحساس حيناً بعد حين، نبأ تبثه هذه الإذاعة أو تلك، إلا أننا سرعان ما نقف أمام الحقائق الأثقل حجماً: أننا منتصرون!! إلا أن الأيام تمضي متباطئة بعد ذلك، والانتصارات على الجبهتين تقل عدداً وتتحول الحرب إلى ملل ثقيل وانتظار باهظ، وترمي القيادة العراقية بجيشها لإسناد الجبهة الشمالية التي انفتحت أمام التقدم الإسرائيلي صوب دمشق، لولا تصدي القوات العراقية لها وإيقافها عند حدّها...

ثم ما نلبث أن نسمع باختراق الجبهة المصرية في سيناء، ووصول القوات الإسرائيلية إلى الدفرسوار، وعبورها القناة إلى الإسماعيلية التي هي على بعد حجر من القاهرة... وإذا بنا نفاجأ بقبول الطرفين لوقف إطلاق النار، ونتساءل، والمرارة تملأ حلوقنا، لماذا نعطي دائماً الفرصة الكاملة للانتصار لبني إسرائيل، في اللحظة التي يريدونها هم، كما حدث عام (١٩٦٧م)؟ ولماذا لا نستمر على المقاومة، ونجعل القوات الإسرائيلية تنتشر على مساحات واسعة، وواسعة جداً، من الأرض العربية، حيث ستتعرض للتآكل وفقدان السيطرة بسبب ما ستلاقيه من مقاومة شعبية وعسكرية معاً؟ لماذا؟

ويجيء الجواب أن حكامنا يحرصون بالدرجة الأولى على حماية مناصبهم، حتى لو خسروا من أراضيهم الكثير.. أن ينجوا بجلدهم... وهم يعرفون أن شعوبهم المدجنة سوف تصفق لهم، وأن إعلامهم المضلل سوف يحول الهزيمة إلى نصر، ومهما يكن من أمر، فهنالك من رأى بأن ما شهدته حرب رمضان، لم يكن سوى لعبة ذكية خطط لها عراب السياسة الخارجية الأمريكية (هنري كيسنجر) بأن يعطي الطرفين فرصة انتصار جزئي لأحدهما على الآخر، من أجل كسر جدار الرفض بين الطرفين، وسوقهما ـ من ثم ـ إلى موائد المفاوضات... مجرد وجهة نظر، لكنها مهما امتلكت من أسباب القوة والإقناع، لن تعتم على الجهود الأسطورية الهائلة، والمدعمة بقوة الايمان المصري، والتي مكنت من تحقيق الانجاز الكبير للعبور في العاشر من رمضان.

في عام العبور ذاك، شهد العراق واقعتين خطيرتين، تمثلت أولاهما فيما

سماه البغداديون بمذابح (أبو طبر) التي ملأت نفوسهم خوفاً ورعباً، حيث كان يتسلل على حين غفلة إلى دور الناس في أعماق الليالي ويعمل فيهم تقصيباً (بساطوره) الحادّ الذي لا يرحم أحداً، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة، حتى أن العديد منهم، وخوفاً من أن يستغل أبو طبر كثافة الأشجار في حدائقهم البيتية فيكمن فيها، قاموا باقتلاعها جملة واحدة... بل إن جاري في الموصل، الدكتور صلاح أمين، البعثي المعروف، مارس الشيء نفسه في حديقته، بعد أن أشيع بنقل أبو طبر خدماته المرعبة إلى المحافظات.. والحق أن هذه الشائعة ملأتنا خوفاً ورعباً، فأشعلنا المصابيح الكهربائية في السطوح، حيث كنا ننام، كي لا يتسلل إلينا أبو طبر بساطوره الرهيب...وزادنا قلقاً ورعباً أن أحد ضحاياه في بغداد كان ابن جارنا الأستاذ جميل الحاج أحمد، والذي ذهب ضحية أبو طبر هو وعمته وزوج عمته... حيث خرجنا في مساء يوم حزين لاستقبال الجثث ودفنها في مقابر الموصل... بينما مضى أبو طبر يقطع أوصال جثث ضحاياه ويفصل رؤوسها... وكنا نتساءل: كيف تتم كل هذه الجرائم اليومية، دون أن يقدر الأمن البعثي، بكل عنفه وسطوته، على الكشف عن القائمين بها؟!

لعلها إحدى (لعب) القيادة البعثية في بغداد... قال كثير من الناس... أن يتركوا أبو طبر يمارس جرائمه المنكرة، وهم ساكتون، حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلن فيه عن منع التجوّل في بغداد، لملاحقة أبو طبر والذي أتاح لقوات الأمن كبس العديد من البيوت ولم السلاح المخزن فيها، ثم الكشف عن هوية القاتل وتقديمه للقصاص!

مجرد تخمين قد يصدق وقد لا يصدق... ولكن المهم أن (كاظم هضم) وهذا هو الاسم الحقيقي لأبو طبر، طلع على الناس يوماً بوجهه المظلم، لكي يتحدث عن أولئك الذين قضى عليهم، ومن كان يعاونه من أقربائه رجالاً ونساءً قبل أن يساق، حسبما قيل، لينال جزاءه العادل، حيث تنفسنا جميعاً الصعداء.

أما الواقعة الأخرى فكانت المحاولة الانقلابية التي قادها صنيعة صدام: ناظم كزار، مدير الأمن العام والرجل الحديدي صاحب الصولات المرعبة في قصر النهاية، عبر تصفيته لخصوم الثورة طيلة ما يقرب من الأعوام الخمسة، بخنقهم بإصبعيه الفولاذيتين أو تذويبهم في مغطس التيزاب.

ها هو ذا السحر ينقلب على الساحر، كما يقول المثل المعروف، والمصيدة الإلهية تنصب له الفخ الذي صنعه بيديه، بعد أن رأى هيمنة العناصر التكريتية على مقدرات السلطة في العراق، وقرر أن يستغل مركزه الخطير في قيادة الأمن، وطاعة جيوش جرارة من العناصر الأمنية، فضلاً عن مركزه الحزبي المتفوق الذي يستطيع من خلاله استدعاء أي وزير يشاء لاجتماع عاجل، فيأتيه مذعناً...

كان رئيس الجمهورية (أحمد حسن البكر) في طريق عودته من زيارة له لأوربا الشرقية، إلى بغداد، وهناك وعبر اللحظات التي سيتم فيها نزوله من الطائرة واحتضانه لنائبه صدام حسين، تقع الواقعة، ويتعرضان وكل من يحيط بهما من القادة والوزراء، لإطلاق نار كثيف، يعلن كزار بعده عن اكتشاف مؤامرة خطيرة والقضاء عليها، يسانده في ذلك عدد من القادة الحزبيين الذين ما كانوا هم الآخرون مرتاحين لهيمنة التكارتة على مقدرات الأمور.

ومن أجل إحكام الخطة، استدعى كزار كلّاً من حمادي شهاب وزير الدفاع، وسعدون غيدان وزير الداخلية، بحجة اجتماع حزبي عاجل لكي يضعهما في ثلاجة ويقفل عليهما... ريثما تتم مؤامرته بنجاح... لكن الذي حدث أن طائرة البكر تأخرت عن موعد وصولها أكثر من ساعتين، بسبب من إلحاح زعيم بلغاريا على استضافة البكر، الأمر الذي أدخل التوجس والخوف في نفوس الانقلابيين، وأحسوا بأن في الأمر شيئاً ما، فما كان منهم إلا أن ينفضوا... أما زعيمهم كزار فقد بدأ بقتل حمادي شهاب وأخذ غيدان رهينة في سيارته الخاصة وانطلق مسرعاً باتجاه الحدود الإيرانية، لكنه سرعان

ما اكتشف أمره، وألقي القبض عليه، وأعيد إلى بغداد لكي يلقى مصيره العادل!!

كنت يومذاك أجتاز الجسر الحديدي، مساءً، في طريقي إلى إحدى الكازينوات، فرأيته خالياً من المارة... وثمة أجواء من الهدوء غير الطبيعي تسيطر على شوارع المدينة، فإذا بإذاعة بغداد تعلن عن اكتشاف مؤامرة للإطاحة بالقيادة المركزية يتزعمها ناظم كزار، وأنه قد ألقي القبض عليه قبل وصوله الحدود الإيرانية، فعدت إلى البيت لمتابعة الأخبار عبر الإذاعات والتلفاز حيث تم الكشف عن تفاصيل المحاولة.

في العام التالي أخذت العلاقات بين بغداد والقيادة الكردية في الشمال تتوتر، والحملات الإعلامية بين الطرفين تزداد شراسة، وتعرض الصلح الهش الذي عقد بين الطرفين عام (١٩٧١م) للتأرجح، عندما قامت السلطات العراقية بمحاولة لاغتيال زعيم الحركة الكردية الملا مصطفى البارزاني، من خلال جملة من العبوات الناسفة وضعت في عباءات الوفد الحكومي من علماء الدين، دون معرفتهم... فلما وقع التفجير لم يصب الملا مصطفى سوى بجرح بسيط... ثم ما لبثت الحرب، بعد أن ازدادت المواقف تأزماً أن أعلنت بين الطرفين، حيث تكبد الجيش العراقي خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، بسبب من الدعم الكبير الذي كان الكرد يتلقونه من شاه إيران.

فما كان من صدّام إلا أن غادر إلى الجزائر على جناح السرعة لكي يعقد عام (١٩٧٥م) اتفاقية الجزائر مع شاه إيران، تنازل فيها عن حقوق العراق البرية والنهرية، على الحدود مع إيران، التي ما لبثت أن أوقفت دعمها للحركة الكردية فوجدت هذه نفسها بدون ظهير فأعلنت استسلامها... لكن ذلك الاتفاق لم يكن سوى الإسفين الذي دقته اتفاقية الجزائر بين البلدين، ولسوف يقود بعد سنوات قلائل إلى جملة من المصائب والويلات والحروب الدموية التي تواصلت حتى وضعت مقدرات العراق أخيراً بيد كل من إيران الطائفية والولايات المتحدة الأمريكية.

وكنا نتابع ذلك كله بجملتنا العصبية، ونتحمل تبعاته ومراراته الواحدة تلو الأخرى والتي افترست من أعمارنا ما يقرب من الأربعين عاماً... وما كان ذلك كله ليحدث لولا اثنتين كأنهما اتفقتا على ميعاد أسود، هدفه أن يقود العراق والعراقيين إلى الدمار... فأما أولاهما فهو جملة من الأخطاء الاستراتيجية في التعامل مع التاريخ، وأما ثانيتهما فهي إرادة أمريكية مسبقة في أن تبني على هذه الأخطاء، وأن تنشئها إنشاء من أجل تحقيق المطلوب.

في تلك المرحلة المبكرة من حكم البعث، أفلتُّ بإرادة من الله وجهود الأخ والصديق سالم عبد الرزاق ﷺ رجل الأوقاف المعروف من مأزقين كان يمكن أن يقوداني إلى التهلكة.

فأما أولهما فهو ذلك التحقيق الذي أجري مع صاحب جريدة (الفكر العربي) الأسبوعية، سالم عبد الرزاق، واستمر لعدة أيام بخصوص موقفها المعادي والحادّ ضد البعث في أعقاب سقوطه على يد عبد السلام عارف عام (١٩٦٣م)، وكنت يومها رئيساً لتحرير الجريدة وأردت أن أجعل منها منبراً إسلامياً أواصل من خلاله الهجوم على المرتكزات العلمانية للفكر القومي، حتى أني قمت بنشر فتوى الشيخ أمجد الزهاوي ﷺ بتكفير البعثيين، وحتى أن القوى الناصرية انزعجت من هذا الإلحاح في الهجوم على الفكر العلماني، فبعثت إلى أحمد الحسّو تعاتبه وتطلب منه أن يوقف هذا الهجوم، ولكن أسلوب الحوار الذي تعامل الأخ سالم عبد الرزاق من خلاله مع السلطات الأمنية، وتغطيته الذكية على اسمي، أنقذنا كلينا من الحساب العسير.

وأما المأزق الثاني فهو تبرعّي وابن عم لي بالذهاب بمعية سالم عبد الرزاق إلى كردستان لمقابلة أحد كبار أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي، المسؤول عن الجانب الديني، بالسعي من أجل الإفراج عن عالم الموصل الشيخ الجليل بشير الصقال (الذي اعتقلته السلطات العراقية بسبب مواقفه المضادة للهيمنة البعثية)... وقد استدعي الأخ سالم من قبل السلطات الأمنية للتحقيق معه حول هذا الموضوع الذي يمثل بالنسبة للبعث حساسية بالغة، ولكنه استطاع بتغطيته

على اسمي واسم ابن عمي وبأسلوبه المعروف في الحوار، أن يجعلنا نخرج من هذا المأزق بسلام.

ويوماً عرضت علي اللجنة التأسيسية لجمعية التراث المزمع إنشاؤها في الموصل، الانتماء إلى عضويتها فوجدت نفسي أدخل في دوّامة من حيرة قاسية بين القبول وعدمه، وأخيراً، وبعد ليلة مزعجة من القلق والتأرجح قررت الثانية وشعرت بارتياح كبير... ذلك أن العمل في مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني في ظلال حكم شمولي كالذي كنا نعانيه في العراق، كان لا بدّ له من تقديم جملة من التنازلات، وربما الملق والمداهنة من أجل الاستمرار... ومن هذا المنطلق كنت أسارع بالاعتذار عن أية دعوة للانتماء إلى هذه الجمعية أو تلك، تجنباً للشبهات، من مثل اعتذاري عن الانتماء لعضوية اتحاد المؤرخين العرب الذي كانت قيادته في العراق، أو حضور مناسبات تكريم المؤرخين العراقيين من قبل القيادة السياسية، وغيرها كثير.

وخلال تلك السنوات لم آل جهداً في المشاركة الفاعلة في جملة من الأنشطة العلمية والفكرية: حضور مؤتمر التعليم الجامعي الذي عقدته في بغداد وزارة التعليم العالي عام (١٩٧١م)... إلقاء محاضرة في المركز الثقافي عن البعد الاجتماعي في مواقف الرسول ﷺ، والتي حظيت بجمهور كبير ولقيت قبولاً حسناً، ومحاضرة أخرى في رابطة علماء المسلمين عن (التفسير الإسلامي للتاريخ) لقيت هي الأخرى ترحيباً من الجمهور الكبير الذي حضرها في قاعة الربيع بالموصل، رغم أنها سببت لي بعض المشاكل مع الأمن واتحاد الطلبة...

كما أنني دعيت لحضور الندوة التي أقامها قسم اللغة العربية، بدعوة من الدكتور عمر الطالب الذي قال بأنه سيتحدث فيها عن مسرحيتي الأولى (**المأسورون**) ويحفزني على استئناف نشاطي في حقل الكتابة المسرحية... ثم ما لبثت أن وقفت على المنصة أمام حشود الطلبة كي أبين وجهة نظري في بعض المسائل، والتي أكدت فيها على أن النشاط الأكاديمي، ما لم يتم منحه المساحة الضرورية من حرية الرأي، وموضوعية الكلمة، فلن يخرج سوى

مجموعات من الطلبة الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً... وكان الدكتور محيي الدين توفيق حاضراً، وأنصت جيداً إلى تأكيدي على مسألة الحرية الجامعية، فازداد كراهية ومقتاً... وراح ينتظر الفرصة للرد، وكانت إحداها رفضه نشر أي مقال لي في مجلة الجامعة التي يرأس تحريرها... فضلاً عن أنه في رحلة إلى الحضر مع عدد من الأساتذة الزائرين، نكث موعده معي بأن جعل السيارة تنطلق قبل حضوري.

وبخصوص معارض الكتب المقامة في الكلية، عبر كل عيد للجامعة، ترددت كثيراً بين الإقدام والإحجام، سيما وأن الموافقة على عرض مؤلفاتي للناس، كانت تعني عندي الرغبة في الظهور الذي لا بدّ وأن يجيء على حساب الأجر الذي لا أبتغيه في قضية التأليف وجهده المكافح؛ إلا من الله وحده... ولكني عدت فرأيت في المناسبة فرصة ممتازة لإعلام أكبر عدد من الناس بنماذج من الكتب الإسلامية... وأخيراً اخترت حلاً وسطاً، وذلك بعرض عدد محدد من كتبي وليس كلها... ورغم ذلك فقد كلفني الأمر في الأيام التالية جهداً نفسياً مرهقاً، وشعوراً بأنني قد أقدمت على نوع من المساومة أنزلتني درجات عن القمة التي طالما تمنيت، في هذا المجال على الأقل، أن أظل فوقها... ولسوف تتكرر هذه التجربة في المستقبل القريب والبعيد.

ويوماً ألحّ علي دافع لا يقاوم في إجراء لقاء مع المستشرق الجيكي (الدكتور نيسلي)، الذي دعي للقسم كأستاذ زائر لأيام معدودات... فدعوته وزميل آخر في القسم وهو الدكتور جزيل الجومرد، على جلسة غداء في صالة فندق المحطة الهادئة والمدفأة... ولكنني ما أن بدأت الحوار معه والذي دعوته من أجله، وأوغلت معه قليلاً في توجيه بعض النقدات والتساؤلات عن الماركسية والتفسير المادي للتاريخ، حتى شعرت بأنني فقدت حالة التوتر الذهني والنفسي التي ساقتني إلى الحوار معه، بسبب أجوبته الموضوعية، وعدم تشبثه بالباطل، بل بسبب أنه هو الآخر راح يوجه بعض النقدات للفكرة المذكورة.

في الكلية كلفت بأن أكون أحد الأعضاء في لجنة الترقية العلمية لرئيس القسم... لم يكن في الأمر مشكلة ما لولا أن كان كتابه عن الوطن العربي ضمن الأبحاث التي يجب أن أدلي برأيي فيها، على ما في الكتاب من رؤى قومية حادة، وتناقض مع العديد من الثوابت الإسلامية... ورغم مناورات العميد، فقد استطعت أن أخرج من المشكلة بسلام دون أن اضطر إلى إبداء رأيي فيه باعتباره خارجاً عن اختصاصي، وشعرت من جراء ذلك بارتياح عميق.

والمقدمة التي كلفني بكتابتها (حكمت نجيب) (أحد زملاء القسم رحمه الله) حول كتابه عن تاريخ العلوم عند العرب، أورثتني بعض المتاعب بسبب ما كان يتضمنه الكتاب من عبارات واتجاهات، أقف منها في الطرف النقيض، رغم إلحاحه المتواصل علي، وإعطائه الفرصة لأن أقول ما أشاء... فقد اخترت الاعتذار... وكفى الله المؤمنين القتال.

كلفني رئيس القسم بقراءة إحدى مسودات كتاب من تأليفه عن النظم الإسلامية، وكعادتي أعلنت ــ في البدء ــ عن موافقتي، لكنني ما لبثت أن شعرت بإحساس عميق بالندم، وبأنني قد أقرّه على معطيات، ربما تقف على طرف آخر من قناعاتي، ومعنى ذلك أني أشجعه على الخطأ، فما لبثت بعد يومين أن أعلمته باعتذاري عن المهمة بسبب كثرة مشاغلي، وغادرت مكتبه وأنا أحسّ بارتياح عميق.

ما لبث صديقي (حكمت نجيب)، التدريسي في قسمنا، وصاحب الروح المرحة، والنكات المتلاحقة، وتحويل الجدّ عبر المناقشات والسيمينارات إلى جلسات في منتهى المتعة والانسجام... أن توفي بالسكتة القلبية... كان قبل أيام قلائل قد خرج من المعتقل بسبب تهمة مالية كاذبة، لكنه حمل معه من هناك همّاً ومرضاً ما لبثا أن ساقاه إلى الموت... تلقيت نبأ موته، لدى وصولي إلى الكلية ــ أوّل الأمر ــ وكعادتي بنوع من التجريد العاطفي، ثم ما لبث الحزن أن انقض علي بشجاه المر وحسرته العميقة...

في الطريق إلى المقبرة جرى حديث مع عدد من الأساتذة، بما فيهم

رجل دين مسيحي، عن الموت والحياة، وموقف الشرقي والغربي من واقعة الموت... وتذكرت حديث (البيركامو) ـ الأديب الوجودي ـ عن الموت ومقولاته الحادة... وأننا ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى... وأن الحياة البشرية هي في المحصلة النهائية «رياضيات دامية»... وتذكرت الموقف القرآني النقيض... الموقف المتفرد العظيم الذي يحوّل اللغز إلى وضوح مشرق، والموت إلى حياة، والانقطاع إلى ديمومة واستمرار، والرياضيات الدامية إلى معادلات مقنعة.

في عصر ذلك اليوم الذي شيّعنا فيه (حكمت نجيب) أظلمت السماء وأرعدت، ثم سحّت مطراً غزيراً... لقد تركناه وحيداً في العراء... وانفضّ عنه المشيعون... فهل يتعلم الإنسان؟!

وتصلني رسالة من الأخ (محفوظ عزام) في مصر يعرض عليّ فيها التفرغ للعمل في إحدى المنظمات الإسلامية في أوربا، والإشراف على تنظيم إحدى الدورات الثقافية هناك، والإسهام بمؤلف لمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام... وأقول في نفسي: إنها فرصة كبيرة واسعة لم تخطر لي على بال، لكن التزاماتي الوظيفية وشبكة العوائق السياسية، مع الارتباط العائلي، تقف ولا شك في الطريق... فيما سيتكرر مستقبلاً عبر عشرات الدعوات ومئاتها!!

سبّب سفر أخي الأصغر (نبيل) إلى إنكلترا، لإكمال دراسته للماجستير في تخصص الهندسة الكهربائية (الآلة الحاسبة) الكثير من الوحشة والاكتئاب، وكان ذلك يتجسد أكثر وأكثر في أعقاب قيلولة العصر، وخلال لحظات الاستيقاظ في أعماق الليالي... وبمرور الوقت رحنا نتبادل الرسائل المطولة والمترعة بالمفارقات المضحكة، تنفيساً عما نعانيه من هموم... ولا زلت أحتفظ برسائله كافة تلك التي كنت أنتظرها بصبر فارغ.

وتدور الأيام... ويمضي الزمن مكتسحاً في طريقه كل المنغصات والمسرّات والآلام.. وإذا بموعد عودة أخي من إنكلترا يحين، بعد سنتين من

التغرّب القاسي، ونستقبله في أجواء عائلية من الفرح الغامر والإحساس باستعادة شيء عزيز مفقود... ونقيم لمناسبة قدومه جملة من دعوات المشويات اللذيذة التي رحنا نلتهمها ونحن ننصت إليه وهو يقص علينا تفاصيل رحلته إلى إنكلترا...

ويوماً انطلقنا عصراً في سفرة ربيعية عائلية ممتعة إلى (بادوش) غربي الموصل، حيث مارسنا اللعب هناك في فضاء واسع من الأرض، وقضينا وقتاً طيباً، لولا أن عكر علينا صفونا النبأ المؤلم الذي بثته إذاعات العالم باغتيال ملك السعودية (فيصل) رحمه الله...

وخلال العودة، حدث وأن تأخرت سيارة أحدنا طويلاً عن اللحاق بنا، فانتابنا القلق وقفلنا عائدين للبحث عنه، فلما وجدناه، وخلال المداورة، وعبر لحظة من زمن كدنا نغدو خبراً من الأخبار حيث تعرضنا لمحاولة اصطدام مريعة، لولا أن إرادة الله ﷻ وحده أحاطتنا بالحماية من المصير المفجع بفضل منه ومنّة، جلّ في علاه... ولقد تكررت مقابلة الموت في حياتي مراراً تكراراً، وفي كل مرة كانت إرادة الله هي المنقذ من المصير الأسود.

وثمة جملة من المتاعب الصحية التي عذبتني عبر هذه المرحلة من العمر: الجيوب الأنفية، الفقرات، الزائدة الدودية، الأسنان، القلق المعدي، ضيق النفس وآلام الذراع الأيسر وارتباطها بالكتابة والتبييض، هذا فضلاً عن تزايد متاعب القلب، وظهور حالات مخيفة من اختراق نقطة ما لقلبي من بدئه حتى منتهاه، مع انسداد يكاد يكون تاماً في النفس...

وأستيقظ في الليل خائفاً مرتعباً، وأنا، أقفز من منامي بحثاً عن شيء من الهواء فيما خيّل إليّ أن الموت يترصد بي... ويقف على بعد خطوات... ولم أكن أعلم أن السبب في هذا كله هو انسداد الصمام الأهليلي... كما أن أحداً من الأطباء لم يكتشف ذلك إلا بعد أكثر من عشر سنين!!

لكن المتاعب الصحية الكبرى هي تلك التي سبقت وأعقبت عملية استئصال الزائدة الدودية التي كانت تخزني بين الحين والحين فلا أكترث

لها... حتى إذا قيّض لي أن أرتب رحلة مشتركة مع زميلي الدكتور عمر الطالب في صيف عام (١٩٧١م) إلى سوريا ولبنان، ونقضي هناك أوقاتاً طيبة، ثم ما نلبث بعد مضي أكثر من شهر أن نقفل عائدين إلى حلب لكي نتهيأ للعودة بالقطار السريع (الأوتومتريس) إلى الموصل... فإذا بي في أعقاب إلحاحي في تناول جملة من الأطعمة والحلويات أحسّ بتمزق هائل في أمعائي لم يدعني أرتاح لحظة واحدة عبر طريق العودة إلى حلب... فلما وصلناها هرعت إلى أحد الأطباء، فلم يكتشف السبب، وأعطاني جرعات من الدواء الذي زاد من وضعي سوءاً...

ورحت في مساء ذلك اليوم، ونحن نتخطى عبر شوارع حلب أترنّح من شدة الألم... وعلى حين غفلة خطر ببال الدكتور عمر أن يأخذني إلى أحد المستشفيات الأهلية، فيكشف الطبيب حدوث التهاب حاد في الزائدة الدودية، وأنها توشك على الانفجار إذا لم يتم تداركها بعملية جراحية صباح الغد، وأعطاني جملة من المسكنات حيث قضيت في الفندق ليلة لا أحسد عليها.

وفي صباح اليوم التالي هرعنا إلى المستشفى لكي يأخذ الطبيب توقيعي بالموافقة على المداخلة الجراحية، فوقّعت وأنا أبكي بصمت، خشية ألا أستيقظ بعدها أبداً، وأنا أتذكر أهلي وخطيبتي في الموصل أولئك الذين لا يعلمون شيئاً... ثم ما لبث بعد أن حقنني بالمخدر أن غبت عن الوجود عبر نومة عميقة مشبعة استيقظت بعدها على تهاني الطبيب والدكتور عمر على سلامتي... وبقيت بعدها في المستشفى ثلاثة أيام، كانت من أقسى الأيام في حياتي بسبب ما أثارته المداخلة الجراحية، والمخدر، من كتم لأنفاسي... دون أن أدرك أن السبب فيما لقيته عبر تلك الأيام كان الانسداد في الصمام الإهليلي، ولولا عناية الله ﷻ، وأخذه بيدي إلى شاطئ السلامة، لكنت قد فارقت الحياة...

عاد الدكتور عمر إلى الموصل، وبعثت معه إلى الأهل رسالة أقول فيها أن الذي أخرني عن العودة معه هو أن عدداً من الأصدقاء أغروني بالبقاء لعدة

أيام أخرى، لكي أقضي في متنزهات حلب، وشمال الشام أطيب الأوقات، ثم ما لبث الأخ الأديب الشاعر محمد الحسناوي رَحِمَهُ اللهُ أن جاء وعرض علي التحوّل إلى شقته في حلب، ولحسن الحظ فإن زوجته كانت ممرضة (رحمها الله)، فوجدت في هذه الفرصة مخرجاً من المأزق الذي كنت أعاني منه في المستشفى، وهنالك في بيت أخي الحسناوي، وعبر أمسيات طيبة مع حشود الأدباء والشعراء، بما فيهم الأخ عبد الله الطنطاوي، قضينا أسعد الأوقات... وبدأت أتماثل للشفاء، الأمر الذي شجعني على التهيؤ لمغادرة حلب والعودة إلى الموصل، في رحلة مريحة في الأوتومتريس.

في شتاء عام (١٩٦٩م) توفيت جدتي لأمي بعد صراع طويل مع المرض... فقدت بغيابها ركناً متيناً من أركان حياتي... كانت تحبني حباً جماً... وكنت في أعقاب كل مرة آخذ فيها نتيجتي الامتحانية بالنجاح، وأشتري السكاكر وأوزعها على الأهل والأقرباء... أبدأ بها... وكنت ألمح في نظرتها المترعة بالمحبة، مدى فرحها بنجاحي... كانت عندما تأتي إلى بيتنا لكي تبيت عندنا عدداً من الأيام، نتلقاها بفرح يصعب وصفه، ونتحلق حولها عبر ليالي الصيف والشتاء، وهي تقص علينا جملة رائعة من القصص الشعبي الذي عرفته الموصل (والذي قيض له فيما بعد الأستاذ أحمد الصوفي رحمه الله لكي يجمعه في كتاب)... وكنا في طفولتنا المبكرة نأوي إلى أحضانها كلما تهددنا الأب أو الأم بالعقاب العسير... فتحمينا من غضبتهم... ونحس أننا نلجأ إلى حصن حصين.

لن أكون مبالغاً إذا قلت أنها ببشاشتها الدائمة... بسخائها العجيب... بتقواها العميقة... برعايتها للأيتام والفقراء وإيوائهم في دارها السنوات الطوال... بقيامها بتوزيع المواد الغذائية عليهم، حيث كانت تجول في أزقة الموصل وحواريّها بحثاً عنهم... في سماحتها... في صدرها الرحب الذي يعرف كيف يتعامل مع المصائب والآلام دون أن يتأفف أو يشكو... وفي لحظات مرضها الذي استسلمت له، وراحت تتابع أورادها اليومية، كأن شيئاً لم

يمسها... وعبر ساعة الفراق، حيث كنا قد جئنا بها إلى دارنا لكي نتابعها تحت أنظارنا... وجلست أنا عند رأسها أتلو ما تيسر من كتاب الله، وأدعوه ﷻ الرفق بها في لحظات الوداع الأخير... وهي تردد وكأنها ترى المصير رأي العين: من الظلمات إلى النور... من الظلمات إلى النور...

كانت في هذا كله امرأة فريدة نادرة، قادمة من عصر غير عصرنا... من جيل الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان... عليك رحمة الله يا جدتي العزيزة... ويا حصني الغالي الذي انكسر في شبابي فترك ظهري مكشوفاً!!

كانت، فيما حدثتنا به، تنتمي إلى عشيرة العباسيين، الذين هربوا من بطش المغول في أعقاب مذبحة بغداد، إلى شمال العراق، واستقروا في مدينة العمادية في إقليم كردستان... (أولئك الذين قيض لهم فيما بعد الشيخ الصديق محفوظ العباسي رحمه الله لكي يؤلف عنهم كتاباً كبيراً)... ودائما كنا نردد أن أصل الإنسان هو الذي يساهم إلى حد كبير في تشكيل شخصيته، وسلوكه، وقيمه الأخلاقية...

ولسخائها العجيب، كنا نحن الأطفال نطمع فيها... ولا زلت أذكر كيف أنها كلما تلقت هدية من الشمال مكونة من (حبة السعرت الخضراء) ذات الحجم الكبير والطعم المتميز... تضع كميات منها في جيوبها ثم تقوم بتوزيعها علينا بكلتا يديها حتى لا تبقي منها لنفسها شيئاً... وكانت تمارس الكدح اليومي من الفجر حتى العشاء، لكي تقدم للأهل والزائرين أطيب الأكلات الموصلية: القلية، الباسطرمة، الباجة، الكبب، عروق التنور... وهي الأكلات التي لا أعتقد أن أحداً في العالم كله يجيد صنعها كما كانت تفعل... يا لتلك الأيام السعيدة...

ولا زلت أذكر يوم عضني دبور أسود من أسفل قدمي، وأنا أمارس اللعب في حديقة دارهم الواسعة، وكيف أنني غادرت المكان وأنا أصرخ وأتلوى من الألم، وأطالب بالإسراع في رش شيء من الملح على مكان اللدغة، وأمطرها بالشتائم والسباب... كيف أنها هرعت إلى المطبخ، وأخذت بيدها حفنة من

الملح، وراحت تتفرس بي وهي تضحك، حتى تغرورق عيناها بالدموع، وأنا أصرخ فيها أن تسارع في رش الملح... وكيف أنها، تعويضاً عما اعتقدته أغاظني، وبعد أن نفذت المطلوب قفزت إلى أحد المجرات وجاءتني بكمّ كبير من الفستق الحلبي الذي أنساني متاعبي وآلامي...

يرحمك الله أيتها الجدة الغالية، والأم الرؤوم، والمربية النادرة... وأنا لا زلت حتى اليوم، وفي أعقاب كل صلاة أتوجه إلى الله ﷻ بأن يتقبلها في الصالحين... وأتذكر رؤيتها المبشرة التي طالما قصّتها أمي عليّ وعلى إخوتي، كيف أنها أيام ولادتها، رأت جدتي في المنام رجلاً صالحاً يتلو: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] فكانت هذه الرؤية المؤثرة حصننا الحصين، طيلة ما تبقى لنا من حياة... فالحمد لله...

ورغم كل المتاعب والمنغصات التي شهدتها مرحلة السنوات العشر (١٩٦٨ ـ ١٩٧٧م) والتي تحدثت عن جوانب منها في هذا الفصل، فقد انطوت على العديد من المتع والأفراح والمناسبات السعيدة... وتلك هي دراما الحياة البشرية التي عجنت بالأفراح والأحزان... بالمسرات والمتاعب... وبالضوء والظلمة... ولولا ذلك لما أحسسنا بطعم الأشياء وتذوقنا نعيم الخروج من النقر والممرات الضيقة إلى الفضاء الفسيح والسماء الكبيرة...

ومن بين تلك الأشياء والخبرات السعيدة، لا زلت أذكر: تحوّلنا في مايس عام (١٩٦٩م) إلى الدار الجديدة التي بناها والدي في منتصف شارع رفعت الحاج سرّي بمنطقة الطيران... وهي دار واسعة محاطة بالحدائق والأشجار، وتطلّ مباشرة على الشارع العام حيث خصصت لكل واحد منا غرفة مستقلة... زواج أخي مظفر بعد ذلك بأشهر معدودات من زوجة صالحة من آل الحافظ وخروجه إلى بيت مستقل، حيث ترك في نفوسنا فراغاً كبيراً... طلعات الفجر الصباحية، بمفردي، أو مع ابن عمي (شمس الدين)، حيث كنا نجتاز الشوارع الطويلة، والبراري الشاسعة، ولما تشرق الشمس بعد، في طريقنا إلى السوق، حتى إذا بلغنا هناك كان الجوع والتعب قد فرضا علينا الحصار، فنبدأ بالتهام

الفطور اللذيذ في مطاعم السوق المتميز: الباجة، أو القلية، أو اللحم بعجين، أو الكباب، أو الكص أو اللحم أو المعلاق... ثم نتحول للجلوس في مقهى البلدية الرائع المطل على نهر دجلة، باتجاه الجانب الأيمن من الجسر الحديدي، حيث كانت تهب علينا في ضحى الصيف الحار نسمات رقيقة مترعة بالعذوبة لكي نتحدث أو نمارس لعبة الداما التي عشقناها.

أما في الشتاء، وعبر الأجواء الماطرة فكنت أتجه بمفردي ومعي إحدى الروايات العالمية: زوربا، أو الأخوة الأعداء... أو... أو... لكي أجلس في الصالة الزجاجية المقفلة والمدفأة بالموقد الذي تشتعل فيه الأخشاب وتتحول إلى جمر يزيدنا متعة ودفئاً... بينما المطر خارج اللوحات الزجاجية للصالة يرتطم، وهو ينزل بعنف، على صفحة دجلة، في منظر لا أروع ولا أجمل... وأنا غارق في مطالعة هذه الرواية أو تلك، حتى يؤذن الليل بالحلول.

وكنا أحياناً نصطحب معنا زميلنا عبد الجبار أحمد المحامي لكي نتوجه إلى أحد أفران اللحم بعجين، عبر الموسم الشتوي، ونقف عند حافته لكي نتلقى منه الدفء وننتظر إنجاز طلبنا اللذيذ من ذلك الطعام الموصلي المحمص... ثم ما نلبث أن نأوي إلى أحد المقاهي الشعبية لشرب الشاي، ومنها نغادر بالسيارة، وقد توقف المطر، وأشرقت شمس الربيع، إلى إحدى براري محافظة الموصل أو دهوك، البادوش، أو الخضر بساطلية، أو أسكي كلك، أو أتروش، أو زاويته، أو سوارا توكا أو مندان، ولا نرجع إلا وقد حلّ الظلام.

ولقد تكررت الرحلات الربيعية عبر تلك المرحلة وازدادت كثافة، بمعية العائلة والأقرباء حيناً، ومع الأصدقاء حيناً آخر، وبصحبة الجمعية التي سبقت الإشارة إليها حيناً ثالثاً، ومع طلبة كلية الآداب وأساتذتها حيناً رابعاً... لم ندع مكاناً ربيعياً مما يؤمه الناس إلا وعسكرنا فيه، سواء في براري المحافظة، أم في المدن والمواقع البعيدة في الشمال، وصولاً إلى دهوك وزاخو وأربيل وكركوك والسليمانية... وكنا في كل رحلة نمارس اللعب، والأحاديث الجادة،

والهزل والضحك وترتيب المقالب... وتناول وجبات الطعام التي كان يتولى بعضها الأخ المهندس المعماري عبد المالك الأعرجي ﵀ كالقوزي، والأمعاء المحشية، والطاوة... وغيرها.

ومع تلك الرحلات الربيعية المكثفة، استمر عشقي للعب كرة المنضدة، في البيت مع أخي نبيل ﵀ أو في الكلية مع الطلبة والتدريسيين، حتى أنني دخلت في تصفيات اللعبة مع أساتذة الجامعة وانتهى بي الأمر إلى اللعبة النهائية على كأس الجامعة مع الزميل العزيز الدكتور أنس الشيخ علي (المستشار الأكاديمي للمعهد العالي للفكر الإسلامي في لندن، فيما بعد)، وهو الوحيد الذي كان بفنه المتميز في اللعب يقف حجر عثرة في طريقي إلى القمة، ومع ذلك فقد حصدت عبر رحلتي مع اللعبة العديد من الكؤوس.

وكانت جلساتنا اليومية مساء كل يوم، في المقاهي والكازينوات والجرادغ والصالات، تمثل إحدى تقاليدنا الموصلية الأصيلة، التي لم يكن بمقدور أحدنا أن يتجاوزها... فكنت أذهب أحياناً بمفردي أحمل معي صديقي الحميم: الكتاب، لكي أطالع هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، أو بمعية عدد من الأصدقاء، حيث تدور الأحاديث والحوارات ويتم تناول العشاء اللذيذ، لكي ما نلبث بعدها أن نغادر المكان للقيام بجولات متطاولة في سيارة أحدهم حتى ساعة متأخرة من الليل.

ثم جاءت الجلسات العائلية المتحلقة حول التلفاز مساء كل يوم، لمتابعة إحدى حلقات المسلسلات التلفازية التي بلغت يومذاك القمة في إخراجها وأدائها، والتي أصبحت تقليداً يومياً لمعظم العوائل، حيث يتابعون بشغف السهرات الدرامية الرائعة من أمثال: رأفت الهجان، وقال البحر، وهارب من الأيام، والضحية، والرحيل، والشهد والدموع، ودعوني أعيش... الخ...

وثمة أمسيات الخميس مع أعضاء جمعيتنا حيث كنا نسهر إلى ما بعد منتصف الليل وسط أجواء الأحاديث الساخنة، والنكات المتواصلة، والحوار الجاد، ووجبات الطعام المتميزة... وحيث كان تنوع المنتمين لهذه الجمعية، من

فنانين تشكيليين إلى مخرجين، إلى مؤرخين وأساتذة جامعيين، إلى مهندسين معماريين، إلى محاسبين ورجال أعمال، إلى مدراء عامِّين؛ يضفي على جلساتنا المزيد من البهجة، والتغاير في وجهات النظر.

هذا فضلاً عن الأمسيات العائلية في الدار الجامعي الذي استقرينا فيه على مدى خمسة أعوام (١٩٧٣ ـ ١٩٧٧م)، والذي كان رغم صغره يتميز بالأناقة، وبغرفته الرائعة المطلة على الشارع العام حيث أصوات ارتطام المطر بالسطوح المعدنية يضفي المزيد من المتعة على تلك الأمسيات، وحيث كان ابني البكر محمد وقد بلغ السنتين من العمر، يطل عليّ بوجهه الجميل، وشعره الأصفر المتموج، وخدوده المكتنزة، من نافذة الغرفة لكي يودعني صباح كل يوم وأنا في طريقي إلى كلية الآداب، وقد لصق وجهه بزجاج النافذة فازدادت خدوده سمنة وانفراجاً... وأما في دار الأهل المطل على شارع رفعت الحاج سرّي، ودار عمي (حسين الزرقي) القريب من المنطقة، فقد شهد العديد العديد من الأمسيات الرائعة، ووجبات الطعام الشهية، والمشاهدة التلفازية التي لا تملّ.

وثمة مهرجانات الربيع التي كانت تقام في بدايات نيسان من كل سنة، حيث كنت أغادر الدار في وقت مبكر، لتناول الفطور في السوق، ومن ثم التوجه إلى أحد الشوارع التي ستجتازها مواكب المهرجان الرائعة، حيث نقضي هناك وسط الناس، والعروض الجميلة، أسعد الأوقات.

ولقد شهدت هذه المرحلة أيضاً جملة من الرحلات إلى خارج العراق، بدأتها برحلاتي الثلاث إلى لبنان وسوريا في الأعوام (١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٤)، ثم ما لبثت أن أعقبتها برحلة عائلية إلى الكويت عام (١٩٧٦م) (ويمكن للقارئ أن يجد يوميات هذه الرحلات بتفاصيلها في الملحق الخاص بالأسفار الخارجية).

في صيف عام (١٩٧١م) اجتزت مرحلة التردد في اختيار شريكة حياتي، حيث كانت طالبات الجامعة يتمنين أن يقع اختياري على إحداهن... ولكني، ربما لأسباب دينية وأخرى عائلية، أعلنت عن ترحيبي بالزواج من ابنة خالتي

(رواء)، التي لم تكن يومذاك قد جاوزت في دراستها السادس الإعدادي، وكانت تنتمي إلى أسرة آل الزرقي المعروفة في الموصل، حيث كان أبوها هو اللواء المتقاعد حسين الزرقي، أما أمها فهي بطبيعة الحال من آل البزّاز...

وبعد شهرين من متابعة الأمور الإجرائية تمّ عقدي عليها في العشرين من أيلول من ذلك العام، حيث قضيت معها أشهر الخطبة الأربعة التي سبقت الزواج وسط أجواء من الشوق والمتعة والانسجام، حتى إذا حان موعد الزواج في بدء العطلة الربيعية للجامعة (١٩٧٢م) ركبنا الطائرة في طريقنا إلى بغداد لكي نقضي في فندق (الامباسادور) ثلاثة أيام أو أربعة ثم نقفل عائدين إلى الموصل، حيث كنت قد استأجرت في محلة الطيران داراً قريبة من بيت أهلي، وأتممت تأثيثها، لكي نقضي فيها سنة واحدة، ثم نتحول إلى الدار الجامعية القريبة من جامع الملاح، في منطقة الطيران ذاتها، والتي بقينا فيها على مدى خمس سنوات (١٩٧٣ ــ ١٩٧٧م).

في خريف عام (١٩٧٣م) رزقنا الله ﷻ بابننا البكر محمد، في أعقاب مداخلة جراحية صعبة رافقها نزف خطير لأمه... وقد كان بطبعه المشاكس، وعدم رغبته في النوم إلا بعد إعطائه جرعة من الدواء المنوم (الببتال) يومياً؛ قد أحال حياتنا إلى قلق متواصل، لكنه ما لبث أن شب محمد عن الطوق بعد سنة أو سنتين، حتى أصبح جماله يغطي على متاعبه، وغدا متعتنا اليومية، حيث كنت أحياناً أنفذ طلباته بالاصطراع معي، فكنت أجيد دوري في الاشتباك معه ثم ما ألبث أن أسقط بين يديه مغلوباً على أمري لكي أشعره بسعادة الانتصار... وإلا فإن صرخاته ستتجاوز البيت إلى المديات البعيدة، فيما كنت لا أرجوه ولا أطيقه!!

ويوماً، وأنا مستلق في صالة الدار أمارس قيلولتي اليومية، وكان هو في الطرف الآخر من الصالة يعبث كما يشتهي ولا يدعني أنام... فما لبثت أن صرخت به... فإذا به يزحف على بطنه، ولم يكن قد تعلّم المشي بعد، ويأتي

إلي ويصعد على صدري ويفرك أذني مؤدباً إياي كي لا أعود لمثلها مرة أخرى، فأجرح مشاعره بصراخي... ثم ما يلبث أن ينزل لمواصلة لعبه مع عبثه...

وفي يوم آخر، وكان قد بدأ الوقوف والمشي منفرداً، استمعنا إلى صوت هائل... جسم ثقيل ينقض على الأرض، فهرعنا إلى الصالة، فإذا بنا أمام مشهد لا ينسى، لقد تمكن الطفل من سحب جهاز التلفاز ـ على ثقله ـ إلى حافة المنضدة، ثم طرحه أرضاً... كان وجهه مصفراً من الخوف... فلم نحاول أن نزيد من خوفه بصراخنا عليه... وكان الذي يهمنا أن يكون قد خرج من الضربة دون أن يصاب بكسر... فلو أن الجهاز سقط على قدميه الطريتين لسحقهما سحقاً... ولكن الله ﷻ سلّم!!

في عام الزواج هذا صدر الأمر الجامعي بترفيعي، وترقيتي إلى درجة أستاذ مساعد، وبعدها بأربع سنوات حيث يحق لي الترقية إلى درجة الأستاذية في عام (١٩٧٦م)، وحيث كنت قد أنجزت العديد من البحوث التي تؤهلني للمطلوب وتفيض عن الحاجة، ملأت الاستمارات الخاصة بالموضوع وأرفقتها بالبحوث المطلوبة، ثم توجهت إلى رئيس القسم لتسليمه إياها، فما كان منه وهو يتلقاها مني إلّا أن نظر إليّ نظرة مترعة بالكراهية والحقد والغيرة، وكأن ملامح وجهه كانت تعرب عن رغبته المريضة في وقف المعاملة... ولقد أوقفت فعلاً، حتى إذا تم نقلي من الجامعة لم يعد لها أية قيمة... ولقد حاولت أيام وجودي في المتحف أن أحرّك المعاملة ثانية أسوة بالأساتذة الآخرين المبعدين عن الجامعة، إلا أنني وجدتني قبالة آذان صم، وجدار صلب يصعب اختراقه. حتى ذلك الرجل (محمد سعيد التكريتي) الذي تولى رئاسة الجامعة، وكان الصديق الحميم لي أيام دراستي في القاهرة، حيث كنا نلتقي مساء كل يوم لكي نقوم بجولاتنا المشتركة في أماكن القاهرة ومتنزهاتها، وحيث كنا نتناول العشاء معاً، ونتبادل الرسائل المترعة بالود... هذا الرجل سرعان ما نسي هذا كلّه، وخلع رداء الوفاء الذي يميز الإنسان عن الكائنات الأخرى، ورفض أن يسعى في الموضوع خشية على مركزه في سلّم السلطة.

ومن عجب أن معظم أولئك الذين سعوا في محاربتي أيام صراعي معهم، انتهى بهم الأمر إلى نهايات لا يتمناها إنسان: أحدهم عانى من الأمراض التي لا تحتمل ثم ما لبث أن توفي شاباً... الآخر اغتيل في بغداد من قبل عصابة طمعت في سيارته الفاخرة... والثالث أحاق به مرض ثقيل حوّله في أخريات حياته إلى ما يشبه القرود ثم ما لبث أن توفي... والرابع تم اغتياله في الجزائر، ربما لأسباب سياسية... حيث كان يتمتع بإعارة خدماته هناك... والخامس أصيب بأمراض قاسية تركته قشوراً ودفعته إلى اللجوء إلى الله... ثم ما لبث أن توفي... والسادس أصيب بسرطان في رأسه وهو الآن لا يدري متى سيموت؟... والسابع أصابه العمى ثم ما لبث أن توفي... دون أن يكلف هؤلاء أنفسهم سجدة واحدة لله ﷻ: اللهم لا شماتة... ولكنها العبرة التي يجب أن نتعلم منها جميعاً...

وأخيراً وبعد ثلاثة عشر عاماً من موعد استحقاقي لدرجة الأستاذية، أحصل عليها من جامعة صلاح الدين في أربيل يوم كنت أعمل فيها، وذلك في ربيع عام (١٩٨٩م)، بعد أن تأخر النظر في بحوثي من قبل أحد الممتحنين الخارجيين، ثم ما لبث أن جاء جوابه بالاعتذار عن إبداء رأيه... رغم أن بيني وبينه صداقة حميمة، وأكل عيش، ورحلات عديدة، ومبيت مشترك في الأقسام الداخلية... ولكن هل تستطيع قوة الأرض أن تعدّل الأخلاق الملتوية التي جبلت على عدم الوفاء؟!

مهما يكن من أمر، فقد حوّل الطلب إلى ممتحن شريف آخر، وجاء الجواب سريعاً، لكي أحظى بالأستاذية، وأنا أردد مع نفسي: كل شيء بميعاده ولا رادّ لكلمة الله!!

الفصل السادس

١٩٧٧ ـ ١٩٨٧م

سارت الأمور في السنوات الأولى من دوامي في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية، والمرتبطة بالمؤسسة العامة للآثار والتراث في بغداد... على خير ما أشتهي وأريد... فكأنهم بنقلي هذا أرادوا لي التفرّغ للقراءة والكتابة، حيث اتخذت لي منضدة واسعة في مكتبة المتحف كنت أخلو إليها يومياً الساعات الطوال لإنجاز مشاريعي التأليفية، وتنقيحاتي لمؤلفاتي الصادرة، وشبكة مراسلاتي مع الناشرين والطلبة والقراء... حتى أنني عددت يوماً ما أجبت عليه من الرسائل التي كانت تتدفق عليّ من بلدان شتى؛ فإذا بها تتجاوز الثلاثمائة عدداً...

ولكن ـ وكما يقول المثل ـ فإن دوام الحال من المحال... فسرعان ما كلفت بمتابعة بعض المسائل المتعلقة بالتراث وكتابة التقارير بخصوصها... فاخترت أن أبدأ رحلتي مع التراث بكتابة بحث عما أسميته (مثلث الخدمات)، وهو قطاع من أكثر قطاعات الموصل غنى تراثياً، وبسبب من خصوبة البحث واستقصائه الميداني، سرعان ما قبل للنشر في مجلة (سومر) المعروفة التي تصدرها المؤسسة العامة للآثار والتراث في بغداد... ثم مضيت للكتابة عن قطاع آخر لا يقل أهمية، هو ذلك الذي يمتد على الساحل الأيمن لمدينة الموصل، بدءاً من الجسر الحديدي وانتهاء بقلعة باشطابيا في شمال المدينة.

وقد أغراني هذا الإنجاز بتنفيذ خطة عمل تستهدف مسح قطاعات الموصل كافة بمعية جملة من الموظفين والموظفات، وكتابة البحوث والتقارير عنها، فضلاً عن تسقيط مواقعها التراثية من دور للسكنى، إلى قناطر ومقاه

وحمامات عامة، إلى أبنية تعبدية إسلامية ومسيحية ويهودية على خرائط الكادسترو، وبألوان متميزة، فضلاً عن توثيقها بالسلايد والصور الملونة، ووضعها في ألبومات خاصة.

وقد تحقق المطلوب بعد سنتين من ذلك، عندما تحوّلت الدائرة إلى مديرية عامة، وجاءنا من بغداد، الدكتور بهنام أبو الصوف ليكون مديراً عاماً، فما لبث أن أصدر أمره بتعييني رئيساً لقسم التراث في المديرية الناشئة.

وبقدر عدم ارتياحي للتعامل مع الآثار، ربما لارتباطها بالعمق الوثني، كان عشقي للتعامل مع التراث الذي يملك علي عواطفي وأحاسيسي... إنه متابعة معطيات القرون الأخيرة من الزمن، ومسحها وتوثيقها، بالتقرير والبحث والخارطة والسلايد والصور الملونة.

مهما يكن من أمر؛ فإن هذا الواجب الذي ألقي على كاهلي، رغم تعاطفي معه، افترس من وقتي في المتحف الشيء الكثير، لكنه لم يغط كل ساعات الدوام اليومي الست التي كنت أعرف كيف أوزعها بين مطالب العمل الوظيفي وبين إنجاز مشاريعي التأليفية... فضلاً عن حصولي على إجازة اعتيادية في صيف عام (١٩٧٨م) للقيام برحلة عائلية مع زوجتي إلى الأردن ولبنان استغرقت ما يقرب من العشرين يوماً (انظر تفاصيل الرحلة في الملحق الخاص).

ولكن الذي حدث قبل هذه المتغيرات جميعاً، وبعد مرور سنتين على التحاقي بالمتحف، أن يصدر أمرٌ ثان، من المؤسسة العامة، بنقلي مع ستة آثاريين، إلى عانة في خريف عام (١٩٧٩م)، حيث كان سدّ حديثة الذي أنشئ على نهر الفرات سيغمر عانة بالمياه، فكان يتوجب مسح آثارها، وإيجاد الصيغة المناسبة لنقل فنارتها الرومانية إلى مكان أمين.

وشيء طبيعي أن يتجه ستة من الآثاريين إلى ذلك الموقع لأداء عملهم في سياق تخصصهم وخبراتهم في العمل الآثاري... أما إلحاقي بهم، أنا الذي لا خبرة لي بالتنقيب، فقد أحاطته علامة استفهام كبيرة، بحيث أنني قضيت

هناك حوالي الأشهر الأربعة دون أن أفعل شيئاً يذكر، وعندما عاتبني رئيس الموقع، ولا زلت أذكر اسمه (راتب) على ذلك... صرخت في وجهه: وهل أنا الذي طلبت المجيء إلى هنا؟ إن العروض المغرية تتدفق علي من خارج بلدي، للعمل الأكاديمي، أو الصحفي، أو الإداري، وأنا أعتذر عنها الواحدة تلو الأخرى مفضلاً البقاء في بلدي، وإذا بي أجدني قبالتك لكي توجه لي هذا العتاب الذي لا مبرّر له.

ورحت أقلب الأمر على وجوهه، وقلت في نفسي: إما أن يكون الأمر غير مقصود بإرسالي مع ستة من الزملاء إلى هذا الموقع... وإما أن تكون التقارير المسمومة من عقارب الجامعة، والدائرة نفسها، مما أوغر قلب رئيس المؤسسة (الدكتور مؤيد سعيد)، فحشر اسمي بين الآثاريين كاستمرار للعقاب الذي سيقربه أكثر فأكثر من رضا الجهات العليا... أسوة بالأساتذة الجامعيين إياهم. إذ نقل لي أحد الزملاء المخلصين (الدكتور أحمد قاسم جمعة) أن (مؤيد سعيد) هذا، عندما وصله نبأ نقلي إلى دائرته، راح يتهدد ويتوعد، وأنه سوف يكسر عظمي إذا تطلب الأمر... مزايدات رخيصة لغرض الصعود وإثبات الولاء للحزب والسلطة... ولكن الدكتور (أحمد) عرض عليه الصورة الحقيقية، والأسباب الكامنة وراء نقلي... وحينذاك كف الدكتور مؤيد عن توعّده بالأذى... وغيّر موقفه مني...

ولا زلت لحد الآن، لم أعثر على جواب حول سؤالي ذاك... هل كان نقلي إلى عانة عفوياً، أم مقصوداً؟ المهم أنني قضيت هناك في عانة أربعة أشهر تخللتها جملة من العودات إلى الموصل، وقد كانت رحلة عانة ــ بحق ــ إحدى الحلقات الرائعة في حياتي الوظيفية، حيث كانت جزيرة عانة، التي سيقدّر لها أن تغمر بمياه السدّ، التي تركز عليها العمل من قبل اللجنة إياها، آية من آيات الله في جمال تكوينها الطبيعي، حيث الخضرة الممتدة على بساطها من بدء الجزيرة حتى منتهاها، وحيث تظللها أشجار النخيل الباسقة المحملة

بأطيب أنواع التمور. وكان موسم الخريف الذي حللنا فيه على الجزيرة مما يعد بالكثير من الثمار.

فكنا نخرج صباح كل يوم، حيث يقلنا زروق خاص إلى الجزيرة، لكي نقضي هناك ساعات الدوام بأكمله، وبينما كان الزملاء منهمكين في التنقيب الآثاري، كنت أحمل معي كتاباً أطالع فيه الساعات الطوال، وأقطع المطالعة يومياً بجولة تخط عبر الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها متناولاً بعض خضارها كلي أغسله بماء السواقي العذبة، أو ملتقطاً حفنات من تمر (البربن) الذي أعشقه لكي ألتهمه، ثم ما ألبث أن أعود إلى موقع العمل بانتظار الزورق الذي سيقلنا ثانية إلى الضفة الأخرى.

أما في المساء، فكنا نركب السيارة ونتجه إلى راوة لشراء ما نحتاجه لطعامنا اليومي، أو إلى الدائرة المشرفة على العمل الآثاري في سدّ حديثة، حيث كنا نلتقي ببعض الأساتذة الآثاريين، ومن بينهم الدكتور باقر الحسيني وهم يلقون محاضراتهم وتوجيهاتهم، ثم نعود إلى الدار التي استأجرناها في عانة، لكي ما يلبث الزملاء الستة، أن ينصرفوا إلى تناول الخمور، ومن ثم يفقدون توازنهم النفسي والسلوكي ويتحولون إلى شيء آخر لا يمت بصلة إلى إنسانية الإنسان، وسيقدر لثلاثة منهم أن يفيئوا إلى حظيرة الإيمان والالتزام، ويتوفى اثنان، ويلجأ السادس إلى بلده في إقليم كردستان. فكنت أنا أجلس بعيداً عنهم، أمارس القراءة أو مشاهدة التلفزيون، أو أتناول العشاء بمفردي، أو أغادر الدار متجهاً إلى نادي موظفي عانة، أو إحدى مقاهيها لكي أقضي أمسيتي هناك.

وأنا في عانة، تأتيني جملة من الدعوات الخارجية لحضور المؤتمرات، أو للتدريس على مدى أسبوعين أو ثلاثة في بعض الجامعات... فأبذل جهوداً مترعة بالقسوة والمتابعة المريرة للحصول على الموافقات الرسمية، وأحظى بتلبية عدد من تلك الدعوات: إحداها لحضور المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية المنعقدة في الدوحة في خريف عام (١٩٧٩م)، وثانيتها للمشاركة بإلقاء

بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين المنعقد في عمان (الأردن) (١٩٨٠م)، وثالثتها ورابعتها رحلتان إلى الرياض في السعودية تلبية لدعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لإلقاء جملة من المحاضرات على طلبة الدراسات العليا في شتاء عام (١٩٨٠م) وخريفه (انظر التفاصيل في الملحق الخاص بالرحلات الخارجية).

بعد أربعة أشهر من المكوث في عانة، صدر أمر إعادتي إلى دائرتي في الموصل، فكان يوماً من الأيام السعيدة في حياتي الوظيفية... وعدت لكي ما ألبث أن أتولى رئاسة قسم التراث في المديرية، وأن أؤسس لأنشطته وأعماله... حيث تم التحرك على مستويين: مستوى الاستمرار في كتابة البحوث والتقارير التراثية (التي قدّر لبعضها أن تصدر في كتابي: خطوات في تراث الموصل، الذي صدر عن دار ابن الأثير التابعة لجامعة الموصل عام ٢٠٠٨م)، ومستوى الجولات الميدانية شبه اليومية مع ثلة من الموظفين والموظفات، لكي نمسح المدينة القديمة شبراً شبراً وبيتاً بيتاً... ونسجّل مواقعها ذات الغنى التراثي ونتابع خصائصها المعمارية المتميزة... وبمعيتنا المصوّر المتألق (نور الدين حسين) يلتقط الصور ذات الحجم الكبير وبالألوان الطبيعية لكل وحدة أو عنصر تراثي... ثم بعد العودة أنصرف لكتابة تقرير شامل عن القطاع الذي تم مسحه...

وكنت قد قسّمت مدينة الموصل القديمة إلى سبعة قطاعات أساسية تفصل بينها الشوارع الرئيسية لمدينة الموصل، وذلك من أجل السيطرة على كل التفاصيل التراثية للمدينة من أقصاها إلى أقصاها... ورغم أن أقدامنا كلّت من كثرة المسير والتجوال عبر الأزقة والطرقات، وأيدينا كلّت من الطرق على الأبواب... وألسنتنا تعبت من محاولات إقناع البعض بفتح أبواب دورهم للجنة المسح، إلا أن ما كان يعوّضنا عن هذا كله هي متعة الاكتشاف... دهشة الوقوف أمام الفن المعماري الأصيل لبنّائي الموصل القدماء... روعة القناطر، والأزقة الملتوية، والحمامات الشعبية، والمقاهي، والقيصريات، والمطاعم

الشعبية والخانات... متعة العثور على المزيد من المواقع التراثية من الجوامع والمساجد والكنائس والبيع والمدارس و... و... الظلال الباردة، والرطبة، والنسمات الرقيقة ونحن نتجول عبر هذا الزقاق الضيق أو ذاك، ونجتاز هذا الحي العتيق أو ذاك... فكنا ننسى تعبنا وإرهاقنا ونواصل المسير عبر الساعات الطوال، لكي ما نلبث أن نعود إلى المتحف لتسقيط ما اكتشفناه وعثرنا عليه من مواقع تراثية، على خرائط الكادسترو وفق القطاعات السبعة إياها...

وكان الزوار العرب والأجانب عندما يزورون المتحف، ويجيئون إلى مكتبي، كنت أطلعهم على الألبومات الرائعة للصور التراثية التي التقطها الفنان نور الدين حسين، خليفة المصور العالمي مراد الداغستاني ﷺ بكاميرته الحساسة التي يعرف بها كيف يلتقط الجزئيات والتفاصيل... فكانت تثير إعجابهم. لكن مما يؤسف له أنني عرفت بعد سنوات طويلة من مغادرتي المتحف أن هذه الألبومات تعرّضت للسرقة، عبر المصائب المتعاقبة التي شهدها العراق، وأن السلايدات الملونة وخرائط الكادسترو ضاعت هي الأخرى فلم يعثر لها على أثر... أما التقارير والبحوث فقد أتيح لي أن أحتفظ بنسخ منها وأن أنشرها في كتابي المذكور: (خطوات في تراث الموصل).

في خريف عام (١٩٨١م) طلب مني المشاركة في المؤتمر العالمي للآثار والتراث الذي ستعقده المؤسسة العامة في بغداد، ويحضره خبراء الآثار والتراث في العالم، ببحث يتناول ما تم إنجازه في قسم التراث في الموصل، وراح المشاركون كل يدلي بموجز لمحاضرته بلهجة عامية في أغلبها، وباتكاء على عروض سينمائية على الشاشة، الأمر الذي دفع رئيس المؤسسة إلى شن حملته القاسية ضد المحاضرين وطرائقهم... حتى جاء الدور عليّ عصر اليوم الثاني للمؤتمر... فإذا بوزير الثقافة والإعلام (لطيف نصيف جاسم) يكون من بين الحاضرين... سميت باسم الله، حيث لم يتفوه أحد من المحاضرين بها على الإطلاق، وانطلقت مرتجلاً محاضرتي بلغة عربية محكمة، وبتسلسل يمسك بعضه برقاب بعض، حول صيغة العمل التي اعتمدت... وما تم إنجازه...

والمشاريع المستقبلية... واعتماد التوثيق التراثي على جملة من الآليات: كالمسح، وكتابة البيانات الوصفية للمعطى التراثي... وإنجاز الدراسات والبحوث... والتصوير الفوتوغرافي... والتصوير بالسلايد... والتسقيط على خرائط الكادسترو، والتصوير السينمائي... واعتزام تكليف كبار الفنانين التشكيليين في الموصل بتقديم لوحات تتضمن حرفيات الموصل... الخ... الخ...

وإذ كنت أتكلم بطلاقة، وبأداء عربي سليم، وفق عرض منهجي محكم وتحليل دقيق، إذا بالوزير الذي كان يتابعني بشغف يلتفت إلى رئيس المؤسسة الذي يجلس بجواره يسأل عني... وإذا بهذا يهمس في أذنه ببضع كلمات أغلب الظن أنها محاولة خبيثة منه لتشويه وضعي في الدائرة، وأنني من المنقولين من جامعة الموصل بسبب مواقفي المضادة للحزب والثورة... ومع ذلك فربما دخل في روعه أن ما أبداه الوزير من إعجاب بطرحي، قد يقوده إلى طلب تعييني في موقع أعلى، ربما يؤثر على مواقع الآخرين.. حيث أنني ما أن عدت إلى مكاني حتى التمّ حولي وكيل الوزارة والمدراء العامون وراحوا يبدون لي الكثير من المجاملة والودّ... تحسباً منهم لما يمكن أن يشهده المستقبل.

ثمة إحساس عميق بالفرح والانتصار ملأني في تلك اللحظات سعادة، فها أنا ذا قد رميت عدة عصافير بحجر واحد: تعزيز مكانتي في المؤسسة والمديرية... وحتى في الوزارة... إثبات قدراتي الكلامية والعلمية والوظيفية... طرد شبح العمل في الهيئات الخارجية حتى النهاية... إثبات أن نقلي من الجامعة لم يكن عملاً صائباً... احتمال الحصول على تقدير معنوي أو مادي في الوقت المناسب، هذا إلى أني طرحت كلمتي بصيغ إيمانية لم يعتدها المشاركون من الآثاريين، فأثبت بذلك قدرة الإيمان على الاستجابة الممتعة للتحدي...

وعندما انفضت الجلسة وأخذنا طريقنا إلى نادي العلوية لتناول العشاء؛ إذا برئيس المؤسسة يقترب مني قائلاً: إنك تلمّ جيداً بأساليب العربية... كان وجهه محتقناً، وكانت الكلمات تخرج من لسانه بتكلف ملحوظ. فلما قفلت

عائداً إلى الموصل، إذا بالمدير العام ومعاونه يدعواني إلى رحلة مشتركة معهما للاطلاع على مجريات العمل في صيانة قلعة أربيل، دون أن يشيرا إلى ما حدث في بغداد، وكأنهما يريدان أن يرشياني بهذه الرحلة عما يمكن أن أطمح إليه في تصوّرهما... دون أن يدري هؤلاء، وأولئك الذين تحلقوا حولي في بغداد، أنني من أشد الناس كراهية للمناصب الإدارية ونفوراً منها، وأن اعتذاري عن قبولها معلق دائماً على طرف لساني... مساكين هم أولئك الذين أغوتهم الحياة الدنيا بزينتها الكاذبة، ومتاعها الزائل، ومناصبها الذاهبة، فحرصوا عليها، وعضوا عليها بالنواجذ والأنياب، ثم ما لبثوا أن تركوها ورحلوا...

ولقد تأكد حدسي عندما وصلتني دعوة الحضور للمؤتمر التالي للآثار والتراث في بغداد واطلعت على جدول محاضراته، فإذا بي لا أجد اسمي بين المتحدثين... لقد تعمد رئيس المؤسسة أن يغيبني عن الساحة كي لا ألفت نظر السيد الوزير، فما كان مني إلا أن أطوي الدعوة وأنا أحس بسعادة غامرة، حيث تحررت من الارتباط ببحث قد يتطلب مني الكثير.

وخلال ذلك العام وصلتني دعوة من جامعة العين في الإمارات العربية المتحدة لإلقاء جملة من المحاضرات في جامعتها ومدارسها ومنتدياتها الثقافية. أعقبتها في السنة التالية (١٩٨٢م) دعوة أخرى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمدى عدة أسابيع لإلقاء المحاضرات على طلبة دراساتها العليا (انظر تفاصيل الرحلتين في الملحق الخاص).

وثمة رسالة مفصلة من الداعية والمفكر المصري المعروف (محفوظ عزام) تتضمن دعوتي لمؤتمر سيعقد في لندن حول الأقليات المسلمة، واعتزام المجلس الدولي هناك ترجمة كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ) إلى الإنكليزية.

وصلتني أنباء حول قيام أحد حزبيي الموصل الشرفاء (ربما يكون صائل العبدلي) بالسعي لإعادتي إلى كلية الآداب، بعد أن تبينت له خطيئة نقلي من

الجامعة، وأنه اتصل بالأخ سالم عبد الرزاق، مدير الأوقاف، أكثر من مرة لكي يبلغني الأمر ولكني قررت الاعتذار عن قبول عرضه هذا.

وخلال ذلك كان مكتبي في المتحف قد تحوّل إلى منتدى يومي لاستقبال مثقفي الموصل من سائر الأعمار والاتجاهات، وإجراء حوار خصب في العديد من الأمور، ومن بين الذين كانوا يترددون على زيارتي: سعيد الديوه جي، والدكتور صديق الجليلي، والدكتور فيصل دبدوب، وصديق الشيخ علي، والعميد نكتل كشمولة، والحاج محمود الجومرد، والدكتور وجيه زين العابدين، والمحامي حسن العمري، وسعد الجميل، والشاعر أمجد محمد سعيد، والشاعر عبد الوهاب إسماعيل، وحازم حميد، والدكتور بهنام أبو الصوف، والدكتور العزاوي، والدكتور سيار كوكب الجميل، والدكتور جزيل الجومرد، والعميد سالم الجومرد، ورعد البرهاوي، والدكتور أحمد الحسو، والدكتور عمر الطالب، والشيخ عمر محفوظ العباسي، والخطاط يوسف ذنون، والمهندس حسن رزو، والفنان التشكيلي نجيب يونس، والفنان التشكيلي ضرار القدو، والأخ هشام البدراني، والأخ الوزير أرشد الزيباري... وحشود لا تعدّ ولا تحصى من أساتذة الجامعة وطلبة الدراسات العليا... حتى أن ذلك الأمر أثار مسؤولي المديرية فراحوا يلمحون لي بأن عليّ أن أكفَّ عن استقبال الزوّار... خاصة بعد أن تدفق عليّ يوماً حشد كبير من شباب العلوم الإسلامية المعممين، فنصحتهم ألا يعودوا لمثلها مرة أخرى، لأن ذلك مما يغيظ المسؤولين في الدائرة.

ولكني كنت ــ في مقابل ذلك ــ أقدّم الكثير الكثير من الجهد الملحوظ والمتميز لدائرتي سواء في سياق التقاليد التراثية أم الثقافية العامة، حيث كنت أشارك في كل أمسية أو ندوة ثقافية ببحث أو إضافة، أو نقاش... بل كنت أضع تأسيسات عدد من الندوات والمناسبات التي شهدتها قاعة المتحف وأوجه الدعوات إلى المعنيين للمشاركة فيها.

ولا زلت أذكر تلك المحاضرة المتميزة التي ألقيتها في إحدى ندوات

المديرية، والتي أثارت إعجاب كل الحاضرين، وراحوا يهنئوني عليها، ويبدون تقييمهم لما تضمنته من معطيات، وللغة التي تم عرضها بها.

ولا زلت أذكر ــ كذلك ــ تلك الندوة التي أقيمت في قاعة المتحف لقراءات في ملحمة جلجامش أدارها الشاعر أمجد محمد سعيد، وتكلم فيها القس يوسف حبي، حيث راح يجدف، ويعلن عن رفضه للفكر الغيبي، وللآخرة... والحساب... والجنة والنار، وفق منطق مادي صرف ينكر كل ما هو ليس بمنظور أو ملموس... فيما لا يليق برجل دين كبير مثله يحتل مركزاً قيادياً في التسلسل الكهنوتي... ولكنه حسب قناعتي أراد بذلك أن يهاجم مرتكزات الدين الإسلامي، فعمّم حملته على الأديان كافة تحت شعار (عليّ وعلى أعدائي يا رب)... فرفعت يدي في محاولة للرد، فتغاضى عنها أمجد محمد سعيد وأراد أن ينهي الجلسة، ولكنه أذعن لإصراري، وهناك تدفقت في الردّ على مقولات (حبي) وأفحمته بالأدلة القاطعة، بحيث أنه ما كان منه إلا أن يلملم أوراقه وينسحب من القاعة... إلا أن ردود الأفعال كانت تشير إلى أن معظم الحضور امتلؤوا غبطة، وراحوا يهنئوني، أو يبعثون لي بقصاصات من الورق يعربون عن سعادتهم بردي.

وكان المدراء العامون الذين تعاقبوا على المديرية، بل إن رئيس المؤسسة نفسه، يعرفون جميعاً الجهد الذي أبذله في عملي ونشاطي، فأتلقى منهم في كل مناسبة أو اجتماع التقييم والتكريم... وكان الدكتور بهنام أبو الصوف، المدير العام على رأس هؤلاء، وطالما كلفني أو استشارني في أمور عديدة لثقته بي، رغم أنني كنت أعتذر عن العديد من التكاليف التي كنت أشم فيها رائحة حزبية أو طائفية، من مثل دعوتي للمشاركة في ندوة الحضر التي ستطابق يوم السابع من شهر نيسان، حيث أعياد حزب البعث العربي الاشتراكي، وأنها ستعتمد ــ يقيناً ــ لممارسة طقوس الاحتفال، حيث حسمت الموضوع بالحصول على إجازة مرضية وتجاوزت الحضور.

وحدث يوماً وأن أعلن عن اكتشاف ثور مجنح آشوري كبير في الحفريات

الجارية في باحة النبي يونس (عليه السلام)، في وقت كان العمل فيه جارياً على قدم وساق لتوسيع الجامع وإعادة صيانته... فدعينا لاجتماع مشترك بيننا وبين مديرية الأوقاف في الموصل... كان عليّ بحكم انتمائي لدائرة الآثار أن أدافع عن هذا الاكتشاف المهم، وأن أؤيد وجهة نظر المدير العام وزملائه بضرورة وقف أعمال التوسعة، حماية لهذا الكشف المهم... وقد وجدتني للحظات في دائرة الحيرة بين أن أمضي مخلصاً لثوابت الدائرة التي أعمل فيها، وبين أن أبحر باتجاه معارض التزاماً بقناعاتي الدينية، وما لبثت أن اخترت الثانية، ووقفت بصرامة مع مدير الأوقاف ومهندس دائرتها، أدافع عن ضرورة إكمال توسعة الجامع وأؤيد أطروحات الأوقاف... الأمر الذي أثار حفيظة وتساؤل موظفي الدائرة... لكنني ومدير الأوقاف خرجنا منتصرين في صراعنا ذاك... ثم ما لبث الأمر أن صدر بإعادة ردم الثور المجنح، وفسح الطريق لتوسعة الجامع... وغادرت الاجتماع وأنا سعيد بإرضاء ضميري الديني والحمد لله.

ويوماً طلب مني المدير العام أن أكتب تقريراً عن كتاب لأحد المؤلفين من آباء الكنيسة في الموصل، فاعتذرت عن الطلب بحجة أنه يمسّ قناعاتي الدينية، وكذلك الحال عن حضور افتتاح كنيسة مسيحية في أحد الأقضية... فكان يتقبل ذلك مني برحابة صدر... بل إنه يوماً، ونحن نقوم بإحدى الجولات التراثية في أحد أحياء الموصل القديمة، صارحني بشكّه، وهو المسيحي الذي ينتمي إلى عائلة آل الصوف الأصيلة في الموصل، في قضية التثليث النصراني، وأنها مما لا يمكن أن يقبله العقل، فأعربت له عن ارتياحي البالغ لصراحته في هذه المسألة العقدية الشائكة في الفكر الديني المسيحي.

وحتى المديران العامان اللذان جاءا بعده، وهما كل من الدكتور منير يوسف والدكتور العزاوي، أعربا عن ثقتهما بعملي وسعى ثانيهما إلى توسيع نطاق مسؤولياتي في محاولة تعييني معاوناً للمدير العام أو رئيساً للجان صيانة المنطقة الشمالية، وجعلي نائباً له في الكثير من الأمور، ولكني أصررت على الاعتذار مكتفياً بإدارة قسم التراث، والذي أُلحقت به فيما بعد إدارة مكتبة

المتحف بعد نقل مديرتها الأخت الفاضلة (ناثرة الصراف)، التي قضينا معها ومع موظفات المكتبة الأخريات أجمل الأوقات وأكثرها عطاء، ونحن نحيا أجواء عائلية تسودها المحبة والانسجام... ولذا فلشد ما آلمني خبر تفييضها ونقلها، واعتذرت عن قبول إدارة المكتبة بدلاً عنها، ولكن إصرار المدير العام، وإعلامه إياي بأنها مرحلة قصيرة، وسأغادرها، جعلني أقبلها على مضض.

ولا زلت أذكر يوم جاءتني لكي أجد لها وساطة في مديرية التربية التي نقلت إليها، أن يضعوها في الإشراف على إحدى المكتبات المدرسية، فما كان مني إلا أن تذكرت أخي العزيز الدكتور حازم عبد الله رَحِمَهُ اللهُ الذي كان قد نقل هو الآخر من كلية الآداب بسبب مواقفه الصارمة ضد التدجين الحزبي، وقلت لها: يا سبحان الله، ها هو مثلث النقل قد اكتملت حلقاته... سألتني: كيف؟ قلت لها: تصوّري أن منقولاً يتوسط لمنقول لدى منقول آخر... فهل سيأتي بنتيجة؟

وفعلاً فقد سارعت بالذهاب إلى الشعبة التي يعمل فيها الدكتور حازم عبد الله، فلم أكد أرى رأسه الغارق في كدس هائل من الأضابير التي كان الخبثاء يكلفونه بها لتحديد مستويات الطلبة الخريجين من المدارس المتوسطة... وتذكرت، وأنا أحاول أن أعثر على وجهه لكي أحدثه بالمطلوب، مقولات كتاب المسرح العبثي (مسرح اللا معقول) التي طالما أكدوا فيها أننا نحيا عالم التكاثر بالأشياء التي تحيط بنا وتحاصرنا من كل جانب، فتعزلنا عن بعضنا، ولا تسمح لأحدنا بالتواصل مع الآخرين...

وعدت إلى الأخت ناثرة لكي أعلمها بأن الرجل لا يستطيع وسط حصاره ذاك أن يفعل شيئاً على الإطلاق... ومع ذلك فإن الأفاعي السامة في الجامعة والمؤسسة والمديرية على السواء كانت تتحين الفرص لإلحاق الأذى بي، وقد تأكد لي ذلك من خلال اثنتين سأقف عندهما بعض الوقت: إعارة الخدمات، وقوائم الفائضين!!

فأما قضية الإعارة فهي رواية تطول فصولها، ويشتد عناؤها، وتتتابع

ويلاتها... ثم ما تلبث أن تؤول إلى لا شيء، حيث في النظم الشمولية لا يسمح إلا للمنتمين إلى فكر الدولة، والمرتبطين بماكينتها، من الحصول على ما يطلبون، فلنبدأ القصة من أوّلها، وكأن تجربتي المريرة الأولى يوم كنت في الجامعة لم تعلمني... فها أنا ذا، معتقداً بأن وضعي الجديد، وبعدي عن لدغات الأفاعي سيسمح لي بأن أغادر العراق متحققاً بالاستجابة للعمل في هذه الجامعة أو تلك...

في شباط من عام (١٩٧٨م) أتلقى رسالة من صديق حول ضرورة التقديم لإعارة خدماتي لإحدى الجامعات بعد أن انخفض راتبي الشهري إلى ما دون المائة دينار، وهو أقل مما يأخذه بعض الفراشين!! فيتناوشني القلق والحيرة بين جامعتي العين في الإمارات العربية المتحدة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

في الشهر التالي أتلقى مكالمة هاتفية من صديق حول برقية وصلتني من الخارج، فينتابني القلق المركز بانتظار الصباح للاطلاع على مضمونها، تحسباً من أن تكون من جامعة المدينة، ومعنى هذا العودة إلى الحيرة القاسية بين جامعتي المدينة والكويت التي لا زلت أحلم بالعمل فيها... ثم تبين أنها من الأمين العام لجامعة الكويت، حول ترشيحي عضواً احتياطياً، واستبعاد الاحتمال الأول باعتباري عضواً أصيلاً... فينتابني الفرح الغامر بتجاوز الحيرة والعودة للتركيز على المدينة، يصاحب ذلك قلق متزايد على مضي الزمن دون وصول جواب من جامعة العين بالسلب أو الإيجاب، لكي أتحرك على ضوئه تجاه إعارة خدماتي المعلقة إلى جامعة المدينة... وثمة رغبة عميقة في توقف سير الأيام أو تباطؤها لحين اتضاح النتيجة!! ثم ما ألبث أن أتلقى اتصالاً هاتفياً من صديق في جامعة العين حول ضرورة السفر إلى بغداد، ومقابلة أمينها العام، وإقناعه بترشيحي... فما ألبث أن أسافر إلى بغداد وألتقي الأمين العام، وعدد من الأصدقاء وأقفل عائداً إلى الموصل وأنا في أقصى حالات الارتياح، لكي أتلقى رسالة من الصديق إياه حول ترشيحي شبه المؤكد للجامعة المذكورة،

تعقبها رسالة أخرى تؤكد سابقتها... وثمة عرض للإعارة من جامعة سودانية سرعان ما أعتذر عنه.

السفر إلى بغداد واللقاء مع أحد الأساتذة للاستفسار عن قضايا الإعارة وتلقي حديث صريح... تعقبه زيارة صباحية في اليوم التالي لكلية الآداب واستفسار غير مجدٍ من ملحقية الإمارات...

مخابرة من صديق حول عرض جديد للإعارة من قبل لجنة قدمت من جامعة مكة، وسعت للمطالبة بإعارتي شخصياً، ثم قرار بعدم التقدم، بعد قليل من القلق، بانتظار نتيجة معاملتي في جامعة العين، حيث أخذ القلق يتزايد بسبب تأخر جوابها.

في حزيران عام (١٩٧٨م) يحين موعد رحلتنا العائلية للأردن ولبنان، ينتابني القلق حول مصير الإعارة والتخوف من أن يأتي الطلب وأنا هناك، وتنتابني الحيرة بين تنفيذ الرحلة في موعدها المتفق عليه، وبين طلب تأجيل الحجز والإجازة الاعتيادية وما قد يسببه من متاعب ويقتضيه من متابعات... ولكني أقرر السفر في موعده رغم احتمال قدوم أحد الأساتذة من جامعة العين أو وصول الجواب نفسه، واحتمال عودتي إلى الموصل ثانية إذا اقتضت معاملة الإعارة ذلك... وثمة حيرة أخرى بصدد البدء بمعاملة الإعارة إلى المدينة المنورة. والتخوف من أن تتحول الرحلة إلى قلق متواصل، إذا تم الحصول على الجواب النهائي بشأن الإعارة... ثم قرار بالاتصال الهاتفي بملحقية الإمارات وفرحة الجواب بعدم الموافقة، إذ أنني لم أكن أريد أكثر من جواب نهائي، ثم التأكد السار بوصول رسالة من أستاذ صديق بعدم الموافقة.

قلق جديد بصدد استحصال الترشيح ثانية من الملحقية السعودية، وضيق الوقت قبيل الرحلة العائلية الموعودة، ثم قرار بالاتصال الهاتفي بالملحقية وتلقي الجواب المفرح من وكيل الملحق، والانطلاق فجراً إلى بغداد، والصراع مع الزمن رغبة في الوصول بأقرب وقت لاستكمال معاملة الإعارة الجديدة... الوصول والاتصال بوكيل الملحق، وتردده المزعج بمنحي ترشيحاً جديداً خوفاً

من أن يكون الترشيح القديم قد أخذ طريقه إلى الجهات العليا في وزارة التعليم العالي، وإقناع الوكيل بتسليمي الترشيح، والانطلاق إلى المؤسسة العامة للآثار والحيرة القاسية بصدد طريقة البدء بالمعاملة في دائرة ليست لديها سوابق في هذا المجال، فضلاً عن غياب المسؤولين في المؤسسة، والحيرة ــ كذلك ــ بصدد الاتصال بالمسؤول عن الإعارة في وزارة التعليم العالي. ثم ما تلبث التعقيدات أن تنحلّ واحدة إثر أخرى... فأتمكن من الاتصال بالوزارة، وأعرف أن ترشيحي الأول قد جمّد هناك بسبب نقلي إلى وزارة أخرى... ثم يتبين لي طريق البدء بالمعاملة الجديدة فأستكمل خطواتها الأولى، وسط إحساس غامر بالفرح والانشراح بعد ما كنت أعانيه من حيرة واختناق... أتجه ثانية إلى الملحقية لإعلام الوكيل بنتائج اتصالاتي وملء استمارة الإعارة، وأقفل عائداً إلى المؤسسة لمقابلة مديرها العام دون جدوى... والاكتفاء بأن أكتب له ورقة أبين فيها سبب قدومي إلى بغداد وأقفل عائداً إلى الموصل.

نعود من رحلتنا المرهقة إلى الأردن ولبنان (تنظر التفاصيل في الملحق الخاص)، وأقابل مسؤول الدائرة فيعلمني بأنه لم يستطع معرفة أي شيء عن مصير معاملتي في المؤسسة العامة... في اليوم التالي يحدثني أحد الأصدقاء عن خطئي بتفويت فرصة إعارة خدماتي لمكة المكرمة رغم ضمانها شبه المؤكد... وشيء من الندم يجتاحني... وصديق آخر يحدثني عن الموافقة النهائية على قبولي من إدارة جامعة المدينة المنورة.

اتصال هاتفي ببغداد وإعلامي عن خروج المعاملة من المؤسسة... وحديث لطالب من مكة عن تأخير الدوام الجامعي للموسم القادم إلى ما بعد العيد الكبير... ومعنى ذلك إتاحة مزيد من الوقت أمامي لإنجاز معاملتي بصدد الإعارة...

مكالمة من بغداد حول ضرورة كتابة صيغة جديدة لصحيفة الأعمال، وتأخر معاملة الإعارة بسبب ذلك... ثم قرار بالسفر إلى بغداد لتسليم صحيفة

الأعمال، واختزال الوقت، والاطمئنان على سير المعاملة، ولكنهم يرفضون تسلّم المعاملة بيدي لتحويلها إلى الوزارة.

قلق متزايد بصدد إعلامي من قبل أحد الأصدقاء عن رقم معاملة الإعارة في وزارة الثقافة، والعودة إلى تجربة الصراع المرير مع الزمن، كما كان يحدث أيام محاولتي مع جامعة العين... وإخباري برفض معاملته وصديق آخر، واحتمال رفض معاملتي أنا الآخر... وإحساس غامر بالفرح بسبب قرب اتضاح الموقف النهائي عن المسألة التي عذبتني الأشهر الطوال. واستمرار القلق بصدد تعليق معاملتي في الوزارة وضرورة الاتصال بالوساطات المطلوبة مع شيء من التردّد... وأخي يعود من بغداد ويؤكد لي خروج معاملتي من الوزارة خلال اتصاله بأحد الأصدقاء... وإحساس غامر بالفرح... وحديث آخر لصديق قادم من أبو ظبي حول احتمالات الإعارة الإيجابية هناك، وفتح باب وساطة جديدة تسبب لي قلقاً...

اتصال بالوساطة الجديدة والتأكد من عدم تواجدها في العراق، الأمر الذي يجمد قلق الوساطات وإشكاليات الإعارة إلى ما بعد العيد... وينتابني إحساس عميق بقيمة الاستقرار، يمازجه إحساس مترع بالمرارة في أعقاب سلسلة المتاعب المرهقة بسبب الإعارة، وبأنه لم يكن ثمة راعٍ أساساً لهذا الأتون الذي تتبدى نتائجه غير مجدية على الأغلب، والذي بذلت فيه من الجهد النفسي والذهني والجسدي أكثر بكثير مما سيتمخض عنه من نتائج... متاعب بدأت مع منتصف الربيع ولا تزال... فلو أنني اكتفيت بمحاولتي مع أبو ظبي لما كلفني ذلك عشر معشار ما عانيته عبر هذه الأشهر الطوال... ولكن ويا للأسف يبدو أن تصرفاتي التي عهدتها مدروسة بدقة، قد أخذت في السنين الأخيرة تفقد توازنها وعقلانيتها على حساب أعصابي المرهقة!

وأُطلب إلى بغداد من قبل رئيس المؤسسة، فأتجه إليه وسط توقعات شتى... فيشير عليّ بأن أتجه إلى مقر المخابرات العام في كرادة مريم، وأن المقابلة هي بخصوص محاولة الإعارة... فآخذ تاكسياً إلى مدخل الكرادة،

حيث الحراسات المشددة، ثم أغادرها إلى الداخل مشياً على الأقدام، وأنا أجتاز بين الحين والحين كابينة حراسة، يسألني الواقف فيها عن قصدي فأجيبه... حتى أن أحدهم انزعج لطريقتي المستقيمة في المشي ورأسي مرفوعاً واعترض على هذا الأسلوب... فكأنهم يريدون من المواطنين ألا يرفعوا رؤوسهم عالياً وهم يجتازون ممرات المناطق الحرام.

حتى إذا بلغت استعلامات المديرية، وقدّمت لهم أوراقي، أشاروا عليّ بمقابلة الضابط (هيثم)... دخلت عليه فرحب الرجل بي وراح يسألني عن سبب طلب إعارة خدماتي للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة... فبينت له الأسباب ولكنه ما لبث أن قاطعني قائلاً: هل ترغب في التعاون معنا أسوة بالكثيرين من زملائك، من أجل قضية الوطن؟ وكنت أعرف مسبقاً أن سؤالاً كهذا سيوجه إلي... نبهني إلى ذلك الأخ والصديق الدكتور محسن عبد الحميد، فأعددت له الجواب المناسب وقلت للضابط: ليس ثمة من يملك ذرة من شرف ولا تهمه مسألة الدفاع عن وطنه... ونحن نمارس العمل الجامعي منذ أكثر من عشر سنوات، فنغرس في نفوس طلبتنا عشق الوطن وضرورة حمايته، أما أن أرتبط بأية صيغة من الصيغ فهو أمرٌ مرفوض جملة وتفصيلاً...

تغيرت ملامح وجهه، ونهض قائماً وقال: يمكنك الانصراف... فغادرت المكان وأنا واثق من رفض طلبي، يغمرني إحساس عميق بالفرح والانشراح لتجاوزي هذه الحلقة المزعجة من متابعات الإعارة.

مخابرة من أحد الأصدقاء حول إحياء الأمل بإعارة الخدمات إلى جامعة العين، وتسليمي رسالة، وإعلامه حول التفاصيل، والتهيؤ للسفر إلى بغداد لاستلام الاستمارة وملئها وإرسالها بالبريد بالسرعة الممكنة، وقبل انتهاء موعد التقديم في نهاية العام، قائلاً في نفسي: لعل حساسيات الجهات المعنية في العراق من التعامل مع الجامعات السعودية هي التي قضت على محاولاتي معها... ربما تكون الإمارات أكثر تقبلاً... وأسافر إلى بغداد وأقابل أحد الأساتذة الأصدقاء فيعلمني عن رفض طلب إعارتي للمدينة المنورة، فيما كنت

أتوقعه... وأتوجه إلى ملحقية الإمارات وأحصل على الاستمارة المطلوبة ثم أقفل عائداً إلى الموصل لكي ما ألبث أن أرسل الأوراق والوثائق إلى جامعة العين بالبريد المسجل، وشيء من القلق بصدد عدم تصديق الشهادات المرسلة.

وصول كتاب عدم الموافقة على إعارة خدماتي للسعودية بعد ستة أشهر من القلق والانتظار... ورسالة من أبو ظبي بوصول الاستمارات... وأخرى من الحاج محمود شيت خطاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعد بالمساعدة الجادة بصدد الإعارة، وإحساس بالندم لعدم الإفادة من معونته في الإعارات السابقة... ورسالة ثالثة من صديق في الإمارات حول ترشيحي المؤكد ــ بإذن الله ــ للعمل في جامعة الإمارات، وردود الفعل المتأرجحة بين الفرح الغامر بتحقق الفرصة المنتظرة، وبين القلق والهمّ بسبب تعقيدات الظروف العائلية، وبخاصة مسألة دخول ابني محمد إلى المدرسة في بدء الموسم القادم.

برقية من الإمارات حول ترشيحي بصفة أساسية للتدريس هناك، وجواب مستعجل بالإيجاب...

برقية من جامعة الكويت تعلمني عن ترشيحي بصفة مبدئية وتدعوني للذهاب إلى الكويت بعد أيام قلائل على حساب الجامعة للاتفاق النهائي... وأقول في نفسي: أنها ضربة غير متوقعة... وحيرة مدمرة بين الالتزام الذي قيدت به نفسي قبل يومين فقط مع جامعة العين في الإمارات وبين إغراءات جامعة الكويت ومجالاتها الواسعة... ساعات من القسوة مترعة بالحيرة والندم والبحث اللا مجدي عن منفذ للخروج...

إحساس مرّ بأني لو رفضت عرض الكويت فإنني سوف أفرّط بأثمن فرصة في حياتي... وسوف أترك المكان الذي حلمت به طويلاً... المكان المليء بفرص التعبير عن الذات والنشاط الفكري والتأليفي والاجتماعي، فضلاً عن فرص الإبداع الأكاديمي في أجواء جامعية على درجة كبيرة من النضج والتنوع... وأختار المنفى البعيد في الإمارات... ولكن ماذا أعمل للتعهد الأدبي

الذي قطعته مع الجامعة الثانية؟! وماذا بصدد الميزة الوحيدة لهذه الجامعة، وهي احتمال ضمان إسهام لجنتها الموفدة إلى بغداد، بالمعاونة على تسيير معاملتي؟ ماذا لو رفضت الذهاب إلى الإمارات وعلقت مصير الإعارة على الكويت، ثم جاءني الرفض من العراق؟ حاولت أن أمتص المحنة النفسية بكتابة مسودة رسالة إلى جامعة الكويت دون جدوى...

وعدت إلى البيت متوتراً مرهقاً بعد ساعات قاسية من القلق والحيرة... وهناك عرضت محنتي على الأهل فخففوا عني بتأكيدهم على ضرورة اختيار الإمارات وعدم الدخول في متاهة الحيرة التي لا مبرر لها... ولكني بعد قليل عدت إلى الدوّامة إياها، ومضت الظهيرة والمساء والليل والنوم، ثقيلة قاسية مترعة بالقلق والحيرة والتوتر، خاصة بعد عدة محاولات فاشلة للاتصال الهاتفي بأستاذ جامعي في بغداد لاستطلاع رأيه حول الموضوع...

وفي صباح اليوم التالي بدأت أميل إلى الإمارات وخففت في نفسي شدة الحيرة وحرقة الندم على تضييع الفرصة الجديدة... ولست أدري ما الذي أنا صانع خلال الساعات القادمة؟!

الاستقرار بعد عناء مرير، ومشاورات، وموازنات مرهقة على توجيه اعتذار لجامعة الكويت... وتلتمع بين الحين والحين فرص التحقق الضائعة في الكويت فيغمرني ندم عميق، ولكن ليس ثمة مفر من اختيار كهذا...

حوار مع أستاذين من جامعة بغداد، لقيتهما في دعوة افتتاح مكتبة الأوقاف في السليمانية، يؤكدان فيه ضرورة تفضيل الإمارات باعتبارها أكثر ضماناً... وإحساس غامر بالسعادة...

تزايد الحيرة والقلق بصدد السفر إلى بغداد لتقديم طلب الإعارة إلى الإمارات حسبما نصح به أحد الأساتذة، أو تأجيله لحين قدوم لجنة التعاقد إلى بغداد حسبما طلب مني الأمين العام لجامعة العين... القلق مرة أخرى... وبعد مكالمة هاتفية مع الملحق الثقافي أقرر السفر إلى بغداد... وأبدأ بالمؤسسة حيث يتم إنجاز معاملة الإعارة هناك كخطوة أولى... ثم التوجه إلى

كلية الآداب ومقابلة أحد أساتذتها... واتصال هاتفي بآخر، ونصيحة مخلصة يقدمها أحدهما بصدد تجميد معاملة الإعارة وعدم البدء بها إلا بعد قدوم اللجنة من الإمارات لكي لا تتعرض للرفض منفردة وتضيع الجهود... وثمة الحيرة القاسية بين تسيير المعاملة وكسب الوقت وبين تجميدها بانتظار قدوم اللجنة، والاستقرار بعد لأي على الرأي الثاني... والعودة إلى الموصل...

رواية عن أحد الأساتذة الأصدقاء في جامعة الإمارات تعكرني قليلاً... مفادها أن علي ألّا أتشبث بالإعارة إلى الإمارات في حالة عدم ترشيحي، لأن بقائي في العراق أكثر جدوى... ووخزات من الندم على تضييع فرصة الكويت.

تصاعد القلق، وعودة الإحساس بالصراع ضد الزمن بسبب تجميدي لمعاملة الإعارة في المؤسسة بانتظار قدوم اللجنة التي يبدو أنها تأخرت بأكثر مما يجب...

قلق بصدد الاتصال الهاتفي بأستاذ من بغداد للاستفسار عن قضية الإعارة... فشل الاتصال وتزايد القلق والعناء ــ بعد لحظات يتصل بي الأستاذ نفسه لكي يعلمني بوصول اللجنة وبأنها ستتولى بنفسها استحصال الموافقة على كافة الأسماء المدرجة بقائمة المرشحين، بمعونة وزير من مجلس قيادة الثورة... فرح عميق بالنبأ... وليلة مترعة بالسعادة، واستيقاظ سعيد لم أذق طعمه منذ زمن بعيد.

عودة القلق والصراع ضد الزمن في أعقاب تأخر صدور أية نتيجة عن مساعي أمين عام جامعة العين مع الجهات الرسمية للحصول على موافقة جماعية على الإعارة... وخبر من صديق حول صدور تعليمات من وزارة التعليم العالي برفض أي ترشيح شخصي للعمل في الجامعات العربية... وشيء من القلق بصدد مخابرة فاشلة لأستاذ في بغداد حول مصير الإعارة، وتخوّف من ضياع فرصة تواجد الحاج محمود شيت خطاب في بغداد...

مخابرة مثبطة من أستاذ في بغداد: لجنة الإعارة لم تأت إلى بغداد وعليه فيتوجب المزيد من القلق والانتظار...

مكالمة من بغداد حول قدوم لجنة الإعارة من جامعة العين، تعقبها مكالمة من صديق آخر يبين فيها أنه لم يستطع التأكد من وجود اسمي مع قائمة المرشحين... وقلق بصدد السفر إلى بغداد، والاتصال بالوساطات... أو تأجيلهما.

اتصال هاتفي بالحاج شيت خطاب لكي يتوسط بصدد الإعارة... ورسالتان من صديقين في الإمارات عن التسهيلات السكنية والمدرسية، وحديث للدكتور عمر الطالب عن ميزات أخرى... وتخوّف من أن تبوء المحاولة بالفشل...

اتصال هاتفي بشيت خطاب لمتابعة الوساطة، وآخر بالعميد عبد الرحمن التكريتي للغرض نفسه...

توجيه ثلاث رسائل، بصدد الإعارة، إلى أمين عام جامعة العين، ورئيسها وإلى وزارة الثقافة والفنون...

مكالمة من أستاذ في بغداد حول ضرورة السفر للتوقيع على العقد في ملحقية الإمارات المتحدة... والذهاب إلى الملحقية والتوقيع على العقد... وحديث مقلق لأحد الحاضرين عن احتمال رفض ما يقرب من نصف المرشحين... وحديث آخر عن ضرورة التصديق على الأوراق والوثائق من عدد كبير من الجهات المختصة... ودقائق قاسية من القلق والحيرة والاكتئاب تضعني فيما يشبه المطحنة الشرسة... اتصال بالحاج محمود شيت خطاب، بعد عناء طويل مع الهواتف والتاكسيات للعثور على بيته، حيث يجري اتصالات عديدة بالجهات العليا، هاتفياً، دون جواب... ولحظات أخرى من الإحباط والقلق والحيرة... مغادرة الدار بعد الحصول على وعد منه باتصال آخر يوم غد... العودة إلى الموصل واتصال هاتفي بخطاب والحصول على وعد غير مؤكد بالسعي من أجل نجاحها...

السفر إلى بغداد، وزيارة كلية الآداب، وأحاديث عن قرب صدور الرفض بصدد الإعارة، وتعليقان من أحد الأصدقاء الأساتذة يضعاني في قلب الإحباط: احتمال رفض الموافقة على حضوري المؤتمر الدولي للسيرة والسنة النبوية في

قطر... واحتمال شبه مؤكد بعدم الموافقة على تجديد جواز سفري بسبب المنع، جواباً على رفض طلب إعارتي السابق للسعودية!!

ردود فعل مختلفة تميل إلى الارتياح لدى تسلمي رسالة من جامعة العين في الإمارات يعتذر فيها أمينها العام عن ترشيحي، ويعتبره لاغياً بسبب عدم مقابلتي اللجنة في الموعد المحدد... وشيء من الندم مرةً أخرى على عدم الإفادة من فرصة وساطة الحاج محمود شيت خطاب مع شخصية كبيرة...

والآن، وأنا أسترجع ذكرياتي المريرة مع محاولة الإعارة الثانية هذه، والتي تعمدت أن أسردها بتفاصيلها المملة لكي يشاركني القارئ مذاق الرحلة الجبلية الصعبة... ما الذي دفعني إلى بذل هذه الجهود (الأسطورية) من أجل قضية شبه خاسرة؟ وخاصة بعد مقابلة ضابط المخابرات في المحاولة الأولى ورفضي القاطع في الاستجابة لطلباته، وهو الأمر الذي انتهى بإخفاقها؟ أما كان يتحتم علي أن أكف عن ملاحقة إعارة جديدة سوف تستنزف مني الكثير... الكثير... دون جدوى؟ أهو التشبث بالمستحيل؟ وأنا أرى العديد من أصدقائي الأساتذة، يحصلون على الموافقة ويخرجون؟ أهو نوع من الإصرار الذي يخرج عن حدود مملكة العقل إلى حالة من الوسواس التسلطي الذي يدفع الإنسان رغماً عنه إلى المضي في الطريق حتى نهايته، رغم أنه طريق مقفل مسدود؟ أهي نوع من الإدمان على اللعب بعد جملة من الخسائر، في محاولة يائسة للتعويض، قد تخطئ وقد تصيب؟

إن اثنين من كبار قيادات الدولة ممن حاول كل من اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب، والعميد عبد الرحمن التكريتي، التوسط لديهما... قد لقيا حتفهما أحدهما إعداماً والآخر اغتيالاً على يد السلطات... فماذا لو لم يتعرضا للتصفية... إنها أسئلة كثيرة ومحيرة تدور في الذهن... ولا من جواب... سوى أن نظام الحكم الشمولي الذي كان ـ في سبعينيات القرن الماضي ـ يمسك برقبة العراق... لا يسمح إلا بالمتمسحين به والمتعلقين بأذياله... أن يمروا إلى أهدافهم... أما الآخرون... فلا!!

ها أنا ذا، لدى استرجاعي لتلك المحاولات البائسة والمريرة ينتابني الندم العميق... الندم الذي يكوي الجملة العصبية كالنار اللاذعة... وأظل أتساءل مرة ومرتين وثلاثاً وعشرين مرة... لماذا؟

أما عن قوائم الفائضين، فقد كانت الشائعات تنبثق بين الحين والحين عن صدور الأمر بنقل عدد من موظفي المديرية، أو ربما إحالتهم على التقاعد بحجة أنهم من الفائضين... حيث أصدر رئيس الجمهورية قراره المعروف بترشيق الدوائر، وإخراج الفائضين عن الحاجة منها، وتحويلهم إلى دوائر أخرى...

كانت هذه الشائعات تتردد على الألسنة، ومعها أسماء الفائضين... ولم أكن أنا من بينهم، لكنهم بين الحين والحين يحشرون اسمي فيها، فما يزيدني ذلك إلا ارتياحاً للسبب نفسه الذي ملأني غبطة يوم صدور أمر نقلي من الجامعة: إنها الرغبة بالتضحية في سبيل المبدأ، واستقلالية الرأي، وعدم الانخراط في صفوف الخاضعين لإغراءات الحياة الدنيا.

ويوماً جاؤوني باستمارة تتضمن السؤال التالي: هل ترغب في الاستمرار أم في التقاعد؟ فما كان مني إلّا ان أوقّع بالقلم العريض تحت عبارة التقاعد: نعم أوافق... وانتظرت الأيام والأسابيع والأشهر ولم أتلقَّ جواباً، وصدرت قوائم الفائضين ولم أكن أنا من بينهم... ويبدو أن أمراً قد صدر بالتريث بخصوص مصير الأساتذة الجامعيين المنقولين إلى الآثار... لأن النية قد عقدت على إعادتهم إلى وزارة التعليم العالي لأداء مهماتهم التدريسية فيها، بعد ذلك الانفجار الذي شهده العراق في النصف الثاني من الثمانينيات بخصوص إنشاء العديد من الجامعات الجديدة في محافظات العراق كافة... ومهما يكن من أمر فإنني لم أمدّ يدي بطلب للنقل... وإنما سيجيئني من الجهات العليا دون بذل أي مجهود... ولله في خلقه شؤون!!

وسواء كانت هذه الأنباء، بأفعالها وردودها، صحيحة أم لغرض الاستنزاف... فإن ما يؤكد مصداقيتها، ذلك الاجتماع الذي عقده مدير

المؤسسة العامة للآثار والتراث... الدكتور مؤيد سعيد... في إحدى قاعات المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية، لغرض تقييم أعمال مدراء الأقسام والشعب... حيث جاء الدور عليّ فقدمت عرضاً بسيل من المعطيات التي تم إنجازها بخصوص التراث... ولكنه أشاح بوجهه قائلاً: إنها لم تلبّ المطلوب... وأن عليّ أن أمارس الطريقة نفسها التي سلكها العاملون في شعبة التراث في بغداد... وراح يوجه نقداته إلى شعبة الموصل...

فما كان مني إلا أن أردّ عليه بعنف وأناقشه في كل طروحاته الخاطئة، وأصرّ على موقفي، ثم ما ألبث أن أترك الجلسة قائلاً: إذا لم يعجبه عملي، فإن له أن يفعل ما يشاء، ثم غادرت المكان وأنا أتقلب بين الغيظ من موقفه اللئيم وبين الارتياح البالغ لردّي المناسب عليه...

ثم ما لبثت، بعد أشهر معدودات، أن تلقيت طلباً من وزارة الإعلام بضرورة السفر إلى بغداد لمقابلة الوزير. ولم أكن أعلم يومها القصد الحقيقي من ذلك الطلب... ولقد قلبت الأمر على وجوهه فلم أصل إلى نتيجة...

فلما دخلت الوزارة فوجئت بوجود عدد من الأساتذة الجامعيين المنقولين يجلسون في الصالة بانتظار الموعد مع الوزير، فعرفت أن الأمر يتعلق بقضية إعادتنا إلى وزارة التعليم العالي... ودخلنا على الوزير (لطيف نصيف جاسم) فاستقبلنا بحفاوة وأشار علينا بالجلوس... ثم راح يسأل كل واحد منا عن سبب نقله من الجامعة، وفيما إذا كان يرغب في العودة إليها... وراح الأساتذة الجامعيون يمتحون كلامهم من بئر الانتهازية العميق... ويعلنون ولاءهم المطلق لقيادة الحزب والثورة، وأنهم في أي موقع كانوا سيظلون أولئك الجنود الأوفياء للسيد الرئيس القائد صدام حسين...

كنت أتابع تعابير وجوههم، وحركات أيديهم وأصابعهم، وكأنهم يعانون من حالة نشوة كتلك التي يقال أن الخمر تحدثها في نفوس الشاربين... وكنت أتابع أيضاً التعابير المرسومة على وجه الوزير والتي تعكس نوعاً من الامتعاض وعدم الارتياح، لهذا التملّق الرخيص والاستماتة من أجل العودة إلى العمل الجامعي...

فلما جاء الدور علي لم أزد في كلمتي على أن قلت: إنني ابن مدينتي الموصل، ولكني أعرف أنها من أكثر المدن العراقية حسداً وغيرة من العناصر المتفوقة... ولقد كان هذا سبب، من بين أسباب أخرى، هو الذي وقف وراء نقلي من الجامعة...

أحسست وأنا أتابع ردود فعل الوزير بارتياحه لكلامي... بتعاطفه مع المنقول الوحيد الذي لم يفه بكلمة واحدة تزلفاً وتملقاً... ثم ما لبث أن أذن لنا بالانصراف... فغادرت الوزارة وأنا أحس بأقصى درجات السعادة، والارتياح بسبب موقفي ذاك، الذي هو حلقة واحدة من عشرات الحلقات التي كافحت خلالها من أجل أن أظل ثابتاً على موقعي الفكري... وعدم الانجراف قيد أنملة باتجاه الانحناء للسلطة وممثليها.

ثم ما لبثت أن تلقيت نبأ عن أن كتاباً وجّه إلى كليات الآداب في الجامعات العراقية، حيث رحبت بي جامعتا البصرة وأربيل، وأعربت آداب الموصل عن عدم حاجتها إليّ... وثمة صديق من بغداد يؤكد حقيقة إعادتي إلى الجامعة، وإلحاح قسم التاريخ في آداب الموصل على عدم الحاجة إلي، بينما رحبت كل من جامعتَي البصرة وأربيل، وأن رئيس المؤسسة تنصل من وضع اسمي في قائمة الفائضين، مع سبعة آخرين، ربما بانتظار نقلنا إلى وزارة التعليم العالي مرة أخرى... وثمة اثنان من الأساتذة يحكيان عن مكانتي في قسم التاريخ مقارنة بهزال أساتذته الآخرين... وخبر عن أن أساتذة ومعيدي كلية التربية في جامعة الموصل أعربوا عن ترحيبهم بعودتي، لكن العميد خضر الدوري فقد وعيه وأصر بعنف، على عدم قبولي!!

الانطلاق فجراً إلى بغداد،مع مطلع شهر أيلول لاستكمال معاملة الانفكاك من المؤسسة، وقطع شوط طيب في وزارة التعليم العالي، وارتياح للموافقة على مذكرتي بتحويل تنسيبي من الجامعة المستنصرية في بغداد إلى جامعة صلاح الدين في أربيل... أعقبتها برحلة أخرى إلى بغداد لإكمال المعاملة... حيث تم

اللقاء برئيس لجنة المقابلة الدكتور سعدون خليفة الذي استقبلني بود وبشاشة، وسلمني استمارة إلقاء محاضرة (تجريبية) في جامعة بغداد...

فذهبت إلى كلية الآداب حيث أعرب أساتذتها عن استعدادهم لإنجاز المهمة في اليوم نفسه... ومن ثم ألقيت كلمة موجزة بعنوان (منهج جديد لتدريس التاريخ الإسلامي في الجامعات) أعقبتها مناقشة ودية وتسلّم كتاب بخصوصها إلى الوزارة... حيث أعرب الدكتور خليفة عن موافقته عليها... وأدخل في صراع مع الزمن لإنجاز المعاملة قبل نهاية الدوام، وأحس بالفرح الغامر وأنا أتلقى آخر لمسة في المعاملة قبيل نهاية الدوام، وأقفل عائداً إلى الموصل...

وفي اليوم التالي أستقل تاكسياً إلى أربيل لتسجيل المباشرة حيث الاستقبال الودي من قبل أساتذة قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين، واستكمال الأمر الجامعي بالمباشرة والعودة السعيدة إلى الموصل... والحمد لله...

تلقيت عبر هذه المرحلة من حياتي (١٩٧٧ ــ ١٩٨٧م) جملة كبيرة من الدعوات والفرص لحضور الندوات، والمشاركة في المؤتمرات العالمية، أو لتولي بعض المناصب المهمة في تحرير عدد من المجلات الكبرى، والكتابة في عدد منها... ولقد اعتذرت عن معظمها، وأخفقت في الحصول على الموافقات الرسمية لتلبية بعضها الآخر، بعد أن بذلت في ذلك الكثير من الجهد ولكن دون جدوى...

دعوة من المعهد العالمي للفكر الإسلامي لحضور مخيم في قبرص، اعتذرت منه... دعوتان للمشاركة في الملتقيات الجزائرية لم أفلح بالحصول على الموافقة فاكتفيت بإرسال بحوثي إليهما... دعوة الحوار في قضايا التراث من القاهرة لم أفلح في تنفيذه لعدم حصول الموافقة... دعوة من الندوة العالمية للأدب الإسلامي في الهند وأخرى من ندوة العلماء في الهند حول

معطيات المستشرقين، اكتفيت بإرسال بحوثي إليها متجنباً عناء المتابعات اللا مجدية في الحصول على الموافقات الرسمية...

دعوات عديدة من جامعتَي العين في الإمارات العربية والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة اعتذرت عنها جميعاً خشية أن أدخل في مطحنة العذاب الساحقة التي تحدثت عنها في صفحات سابقة من هذه السيرة... دعوة من كلية العلوم الاجتماعية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية اعتذرت عنها... دعوة من اتحاد الطلبة في جمهورية السودان اعتذرت عنها... دعوة من وزارة الأوقاف الأردنية وأخرى لحضور مؤتمر ترعاه دولة الكويت اعتذرت عنهما...

الاعتذار عن وضع منهج لدراسة التاريخ الإسلامي كلفت به من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية... الاعتذار عن إلقاء سلسلة من الكلمات في الإذاعة السعودية، الاعتذار عن المشاركة في مؤتمر حطين في بغداد... التوجّس من جائزة محافظة نينوى للمتميزين، الاعتذار عن قبول عرض مجلة (الأمة) القطرية الواسعة الانتشار، برئاسة تحريرها، بسبب ظروفي العائلية... وأخرى من مجلة (المسلم المعاصر) المصرية بقبول رئاسة تحريرها للسبب نفسه.

ولما كنت قد أخفقت في الحصول على الموافقات بخصوص العمل في الجامعات العربية لموسم دراسي كامل، حيث تبين استحالة ذلك بالنسبة لغير المنتمين لأجهزة الدولة والحزب، والمتعاونين معهما... فقد لجأت عبر النصف الأوّل من الثمانينيات إلى محاولة الإعارة لفصل دراسي واحد من بضعة أشهر، وبذلت في محاولتين أو ثلاثاً جهوداً يصعب وصفها باءت جميعها هي الأخرى بالفشل وعدم الموافقة، فقد أقفلت الباب نهائياً على أية دعوة من هذا القبيل أسوة بما فعلته مع الدعوات السابقة.

ولسوف نرى عبر أربعين أو خمسين سنة من حياتي كيف أنني تلقيت مئات الدعوات فلم أنفذ منها سوى العدد المحدود للأسباب آنفة الذكر...

وطالما حدثت نفسي: لو أنني كنت أعمل خارج بلدي، حراً من الارتباط بجملة من العوائق والقيود، أما كان بمقدوري ـ كما يفعل الآخرون الذين لم يفوّتوا فرصة واحدة، أن ألبي معظم تلك الدعوات؟ ولكن!!

في تموز من عام (١٩٧٩م)، بينما كنت منهمكاً في سقي أسس بيتي الجديد بالماء، إذا بأخي نبيل يأتيني ويقول: هل سمعت النبأ؟ فأجبته: أي نبأ هذا الذي تتحدث عنه؟ فقال: بيان من إذاعة بغداد حول محاولة انقلابية من داخل الحزب للإطاحة بصدام حسين، واكتشافها في اللحظات الأخيرة حيث تبين أن المشاركين فيها من كبار أعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادتين القومية والقطرية، والوزراء والمدراء العامين... الخ...

ومعنى ذلك أن انشقاقاً حزبياً كبيراً مزق تنظيمات البعث المركزية وشطرها شطرين... ثم ما لبثت أن غادرت المكان وهرعت إلى البيت لمتابعة الأنباء الساخنة... حيث قيل بأن محاولة انقلابية أحكمت خيوطها بالتعاون مع قيادة البعث في سوريا، لمنع صدام حسين من التفرّد بالسلطة، والتشبث ـ بدلاً من ذلك ـ بالشرعية في انتخاب رئيس الجمهورية، بعد أن أعلن البكر ـ مرغماً ـ عن تخليه عن منصبه، وتسليم الراية إلى نائبه صدام حسين...

لكن هذا الرجل الذي جعل من حياته النموذج الكامل لعشاق السلطة في التاريخ البشري، ما كان مستعداً بعد رحلته الطويلة لقطاف الثمرة، من سحب البساط من تحت قدميه، ولهذا كان ردّه عنيفاً قاسياً مزلزلاً... ومن أجل تشويه محاولة خصومه للتشبث بالشرعية الحزبية، ادّعى أنهم دبروا محاولة انقلابية، ولهذا سيكون حسابهم عسيراً...

وما لبث أن عقد اجتماعاً في قاعة الخلد في بغداد دعي إليها الأنصار والمعارضون، ووقف صدام حسين يوزع نظراته القاسية كالفولاذ على الموجودين، وهو يحكي تفاصيل المؤامرة... ويطلب من كل واحد من المشاركين فيها أن ينهض قائماً، ويغادر القاعة، حيث تتسلمه أيدي رجال الأمن فتذيقه سوء العذاب، لكي ما يلبث بعد أيام قلائل وعبر محاكمة شكلية أن يساق إلى

مصيره رمياً برصاص رفاقه أنفسهم الذين تعمد صدام حسين أن يكلفهم مهمة تنفيذ الحكم برفاقهم القدامى!!

ومن كان هؤلاء؟ مجموعة من أبرز العناصر البعثية وأكثرها عطاءً: غانم عبد الجليل... محمد محجوب... عدنان الحمداني... محيي عبد الحسين... محمد عايش... واللواء الطيار وليد سيرت... وليد الأعظمي... الكبيسي... الحديثي... وعبد الخالق السامرائي الذي كان معتقلاً منذ عام (١٩٧٣م) بسبب من الغيرة والكراهية الشخصية التي يكنها صدام له... فأدرج اسمه ضمن المتآمرين... ثم منيف الرزاز أمين عام القيادة القومية في العراق...

وقد يكون هؤلاء الرفاق الكبار ـ فعلاً ـ قد اتصلوا بقيادة البعث في سوريا، وزعيمها حافظ الأسد، في محاولة منهم للحفاظ على الوحدة التي كان مزمعاً إعلانها بين العراق وسوريا، حيث يتبادل الرئيسان البكر والأسد قيادة الاتحاد الجديد بالتناوب.. ومعنى ذلك وضع صدام حسين في الظل، أو في الخط الثاني من السلطة، فيما يرفضه الرجل أشد الرفض... وقد يكون ـ حسب رأي بعض المحللين ـ في هذه النقطة محقاً، إذ كيف سيتم التوحد مع قيادة علوية نصيرية صرفة، كان قد سبق لها أن افترست شرعية الحزب على مرحلتين: انقلاب عام (١٩٦٦م) بقيادة العلوي صلاح جديد، ثم ما سمي بالحركة التصحيحية، عام (١٩٧٠م) بقيادة العلوي حافظ أسد؟! حيث تركزت السلطة نهائياً بأيدي القلة الطائفية في سوريا؟!

مهما يكن من أمر فقد خسر حزب البعث في العراق، في هذه المحاولة، خيرة عناصره، وأتيح المجال المفتوح، ليس فقط لتفرّد صدام حسين بالسلطة، ولكن لتحوّله، على طريقة عبد الكريم قاسم: إلى الزعيم الأوحد والقائد الضرورة.

إذا أخذنا بنظرية المؤامرة، ولا بدّ... حسب رأيي المتواضع أن نأخذ بها بمقدار، وليس في حدودها البعيدة، ذلك أن الله ﷻ يقول في محكم كتابه

العزيز: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ وَإِذَا﴾ [الأنفال: ٣٠] ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

فقد يكون استعجال صدام بإزاحة البكر، وتعامله الرهيب مع المعارضين له، تمهيداً لإعلان الحرب على إيران التي أصبحت بعد نجاح ثورتها الإسلامية الشيعية، وقضائها على حكم الشاه، واندفاعها باتجاه مبدأ تصدير الثورة للأقاليم المجاورة، وبخاصة العراق بالتنسيق مع أحزابه الطائفية (الدعوة... والمجلس الأعلى... الخ) قد يكون هذا كله من وجهة نظر صدام، والقوى الغربية وبخاصة أمريكا التي آذتها قضية الهجوم على سفارتها في طهران واعتقال أكثر من خمسين من عناصرها، واتخاذهم رهائن لدى قيادة الحرس الثوري الإيراني... مبرراً للإسراع بتوجيه ضربة حاسمة للقوة الإيرانية، قبل أن تصلب ويشتد عودها، خاصة وأن المعارضة العلمانية، ولاسيما جماعة مجاهدي خلق، كانت لا تزال على قوتها، وقدراتها على تسلّم السلطة إذا ما اعتمدت الدعم الخارجي.

فالذي حدث، بعد محاولة عام (١٩٧٩م) الانقلابية في بغداد، هو تصعيد الحرب الإعلامية بين البلدين، وتشديد الخناق على حزب الدعوة، وتعريض كل من ينتسب إليه إلى الإعدام... واستفزاز الخميني للقيادة العراقية بدعوته أبناء الطائفة الشيعية في العراق، إلى الخروج إلى سطوح منازلهم وإعلان المفاصلة ضد السلطة... ثم محاولة أحد الإيرانيين اغتيال طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الثقافة والإعلام... والتراشق المدفعي بين البلدين على طول الحدود العراقية الإيرانية، ومحاولة السيطرة على العديد من المواقع هناك... وخطاب صدام الذي توعد فيه بالثأر لمحاولة اغتيال نائبه طارق عزيز، وقيامه باغتيال الرمز الشيعي الكبير محمد باقر الصدر الذي كان أنصاره يعدّونه خميني العراق، وإعلانه إلغاء اتفاقية الجزائر الجائرة التي سبق وأن عقدها مرغماً مع الشاه عام (١٩٧٥م).

في الثاني والعشرين من شهر أيلول عام (١٩٨٠م)، حيث كنت أشارك في

مجلس العزاء الذي أقيم بمناسبة وفاة الدكتور صديق الجليلي، في داره في محلة الإمام عون الدين... طرق أسماعنا صوت المذيع وهو يعلن قيام سلاح الجو العراقي بغارة شاملة على معظم مطارات إيران، وتدمير العديد من طائراتها الجاثمة على الأرض...

إذن فقد أعلنت الحرب... قائلين في أنفسنا: إن هو إلا أسبوع أو أسبوعين، وتعود الأمور إلى حالتها الطبيعية، فما كان أحد منا يتصور أن الأمر سيمتد ليس لأسابيع، وأشهر أو سنوات قليلة، وإنما سيفترس من عمر البلدين وطاقاتهما البشرية والاقتصادية ثماني سنوات بتمامها!!

في اليوم التالي، حيث كان بيت أهلي قريباً من ساحة المطار، استيقظنا صباحاً على حشود من الطائرات الإيرانية، وهي تغير على الطائرات الجاثمة فيه، وتسقط حمولتها، ثم ما تلبث أن تنسحب بعد أن جوبهت بنار كثيفة مخلفةً وراءها عدداً من الطائرات الإيرانية المحترقة...

في الأسابيع الأولى للحرب، اندفعت القوات العراقية على طول الجبهة لكي توغل في قرى ومواقع ومدن الجانب الغربي من إيران، وأخذ الإيرانيون يتراجعون أمام هذا الزحف السريع مخلفين وراءهم آلاف القتلى، ولكن ما أن مضت الأيام واستفاق الإيرانيون مما سببته لهم الضربة العراقية المفاجئة، حتى غدت الحرب أشبه بالكر والفرّ بين الطرفين... العراق يعتمد على قوته العسكرية، وتنظيمه التعبوي المحكم، وإيران تعتمد على الحشود البشرية الهائلة التي كانت تندفع ـ دونما خطة عسكرية دقيقة ـ إلى قلب المعركة، فتتلقى الهزائم المروّعة... وكان الخميني قد وعد المشاركين فيها بدخولهم الجنة، وسلمهم مفاتيحها، ما داموا يقاتلون عدواً كافراً!!

وقال صدام حسين في إحدى خطاباته على التلفاز: لقد جاءنا الفرس المجوس بعقيدة السماء وجئناهم بعقيدة الأرض، ولسوف نرى من ستكون له الغلبة في نهاية الأمر!!

في السنة الثانية للحرب، انقلبت موازين القوى، وبخاصة بعد تمكن

الإيرانيين من استعادة مدينة المحمرة (خرم شهر) ذات الموقع الاستراتيجي الحساس، وقضائهم على ما يزيد على الخمسين ألفاً من المدافعين عنها، واندفاعهم عبر الأسابيع التالية باتجاه المواقع العراقية الأخرى... الأمر الذي جعل صدام حسين يتخوف عاقبة الأمور، ويسارع بالطلب إلى الأمم المتحدة لقبول وقف إطلاق النار، بعد أن يكون قد انسحب بكل قواته إلى داخل الحدود العراقية.

ولقد كان هذا العرض فرصة مواتية للطرفين للكف عن هذا الصراع الذي وصفه المحللون العسكريون بأنه (لا معنى له)... والحق أنه ينطوي على معنى كبير... وكبير جداً... عندما أخذ يتبين للقريب والبعيد، هدفه الحقيقي الذي استغرق ثماني سنوات في مسألة كان يمكن أن تحسم بثماني أسابيع... إنها اللعبة الأمريكية القذرة في إدارة الصراع، ومدّه إلى أقصى مدى زمني ممكن، من أجل تدمير الطاقات البشرية والمالية والنفطية للبلدين المتحاربين، بحيث أنها على مدى هذه السنوات كانت تمد الطرفين بالسلاح وبالمعلومات الاستخباراتية التي تمنع أحدهما من سحق الآخر...

وأخيراً، وبعد ثماني سنوات من الصراع القاسي، وإصرار الخميني على احتلال العراق، وضمِّه إلى جمهوريته الإسلامية... رأت أمريكا، بعد أن ولغت في دماء الطرفين، ودمرت طاقاتهما العسكرية والاقتصادية، وأحرقت نفطهما... أن ترمي بثقلها لوقف الحرب وذلك بأن تمدّ أحد الطرفين وهو العراق بأحدث الأسلحة، وبالتقنيات الجوية المتقدمة... الأمر الذي مكن العراقيين من الاندفاع ثانيةً في العمق الإيراني وحصد عشرات الآلاف من الجنود المنهزمين... فيما دفع الخميني... خوفاً على مركزه من الضياع، وأسوةً بما فعله القادة العرب في حروبهم مع إسرائيل، إلى القبول بوقف إطلاق النار والاستجابة لمطالب الأمم المتحدة، قائلاً أنه يشرب بقراره هذا كأساً من السمّ... ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ.

ورغم ذلك فإن القيادة العراقية نجحت طيلة فترة الحرب بجعل ويلاتها

تتمركز على الحدود، أما في الداخل فقد سارت الأمور على خير ما يرام... بل إن صدام حسين الذي حرم شعبه من الطيبات عبر السنوات الماضية، فتح أبواب الاستيراد من الخارج، وأغرق الأسواق بألوان البضائع التي لم يكن العراقيون يحلمون برؤيتها... ومضى إلى أبعد من ذلك فقام بتنفيذ خطة كبيرة لمد شوارع (الهاي واي) السريعة وجسورها، في مناطق بغداد، وبناء الفنادق الضخمة ذات النجوم الخمس... وما لبثت بغداد أن حوّلت خلال تلك الأيام المعتمة إلى واحدة من أروع المدن التي يعشقها الزائرون ويتمنون البقاء فيها الأسابيع والأشهر الطوال!! وكنا نحن نقوم برحلات عائلية لأسبوع أو أسبوعين عبر موسم العطل الربيعية حيث تتألق بغداد في شتائها الدافئ المشمس الجميل... وفي كثرة متنزهاتها ومتاحفها وأسواقها ومطاعمها...

لكن هذا كله لم يكن سوى أحد أوجه الصورة زمن الحرب... بينما تشكلت خلالها صور أخرى من المنغصات والملاحقة والعذاب الذي طال المواطنين جميعاً على مدى سنوات الحرب... فكانت هناك حشود السيارات المشؤومة التي تحمل جثث المقاتلين لكي توصلها إلى أهليهم في المحافظات العراقية... وكانت هناك الخفارات الليلية في الدوائر، حيث كنا نتناوب عليها كل أسبوع أو أسبوعين، أنا وأحد الموظفين معي في المتحف، وسط تلك الليالي المرعبة التي ينطفئ فيها الكهرباء، ونتخبط في ممرات المتحف المظلمة حتى ساعة متأخرة من الليل حيث نسلم أنفسنا للنوم، وأزيز صافرات الإنذار والطائرات المغيرة يملأ الأجواء... وكانت هناك الملاحقات السياسية القاسية للانخراط القسري في الجيش الشعبي الذي قيل بأنه الظهير الأمين للجيش الرسمي المقاتل في الجبهة... وكانت هذه الملاحقات تنبجس بين الحين والحين على شكل موجات عاتية من الملاحقة التي ينفذها الرفاق مع كل مواطن يلتقون به أو يصطادونه، موظفاً كان أم مستخدماً أم مهنياً أم مدرساً أم أستاذاً جامعياً أم عاطلاً... فكانوا يسوقونهم رغماً عنهم إلى معسكرات خاصة أقيمت لتدريبهم على القتال، وإرسال بعضهم إلى الجبهة... وما أكثر الذين ذهبوا ولم يرجعوا إلا وهم محمولين على الأكتاف...

وكانت أجهزة الإعلام تعلن عن ضرورات التطوع في الجيش الشعبي لحماية الوطن من العدوان في أعقاب كل مرة يتعرض فيها الجيش العراقي لهجوم إيراني خطير... ولا زلت أذكر ثلاثاً من تلك الحملات الشاملة للمّ المواطنين، كالأنعام، وسوقهم إلى معسكرات الجيش الشعبي، أحدها عام (١٩٨٢م)، وثانيها عام (١٩٨٦م)، وثالثها عام (١٩٨٧م)، وكنت في كل مرة أبذل المستحيل وأنفق من جهدي النفسي والجسدي الشيء الكثير كي لا أقع في قبضتهم، رغم ما كانوا يشيعونه من أنهم سيكيلون الصاع صاعين لكل من يتأبى على الاستجابة لطلباتهم، بما في ذلك منعهم من السفر خارج العراق ورفض كل طلباتهم، وإنزال الأذى بهم بشتى صنوفه...

وكنت في كل مرة من هذه المرات الثلاث، أسمع من أقربائي وأصدقائي، ورجال البعث أنفسهم، أحاديث مثبطة حول ضرورة الاستجابة وإلا فإنه الويل... فلم أكن آبه لذلك، ولكني كنت قبل اتخاذ قراري النهائي، برفض التطوع، أو تنزيل اسمي في الأقل على قوائم المتطوعين في الدوائر، أتصل بعدد من الأصدقاء من ذوي الماضي المعروف بنشاطهم الدعوي، فما كنت أسمع منهم سوى كلمة: إن عليك أن تستجيب، وأن تدوّن اسمك في قائمة المتطوعين، دون أن يكلفك هذا الذهاب إلى معسكرات التدريب...

وكنت أرى مجرد التوقيع هذا نوعاً من التنازل عن الموقف المبدئي الذي اتخذته مع نفسي وقناعاتي، وإسهاماً غير مباشر في حرب غير مبررة... ومراراً كنت أتصل بعدد من شيوخ الدعوة، مطمئناً إلى أنهم سيعطونني دفعة قوية باتجاه الرفض، فإذا بهم ـ على العكس ـ يؤكدون ـ حرصاً منهم على سلامتي ـ على ضرورة التوقيع والانخراط!! وأذكر أنني في إحدى المرات تلقيت شيئاً مما كنت أريده من أحد الأساتذة، حيث التقيت معه في أحد جوامع الموصل، وعرضت عليه الحال في أعقاب صلاة العصر، وغادرته سعيداً بحصولي على ما كنت أبتغيه، الأمر الذي زادني إصراراً على رفض التطوع... ولكني ما أن وصلت البيت حتى تلقيت منه مكالمة هاتفية، يعلن فيها تراجعه

عن موقفه بسبب تعرضه لضغوط قاسية، وينصحني بأن أتراجع أنا الآخر، لكنني لم آبه لنصيحته وأصريت على الرفض...

كانت أياماً من العذاب اليومي لن أنساها ما حييت، ولقد ظللت في المرات الثلاث، رغم كل عوامل التثبيط والتخويف والتهديد، على موقفي الرافض، حتى أنني مرة فوجئت بقائمة متطوعين مكتوبة في مديريتنا، وحرصاً من موظفات المتحف على مصلحتي أدخلوا اسمي فيها ووقعوا نيابة عني على كوني ضمن المتطوعين، فما كان مني في لحظة غضب إلا أن آخذ القلم وأسوّد به اسمي مستأصلاً إياه من القائمة.

طبعاً ان هذا كان من بين أسباب عديدة أخرى لرفض كل طلباتي لإعارة خدماتي للجامعات العربية، وكنت أعرف هذا، وتصلني عن طريق علاقاتي الشخصية، أخبار عن مواقف العديد من بعثيي الدائرة في عرقلة جهودي تلك...

وتجيء قضية انتخابات أعضاء المجلس التشريعي الأول عام (١٩٨٢م)، والثاني عام (١٩٨٦م)، ومبايعة صدام حسين (فيما بعد عام ١٩٩٤م)؛ لكي تضعني هي الأخرى على محك الاختبار... ولقد أشاع البعثيون وفق طرائقهم (الغوبلزية) الخاصة في التعامل مع أهدافهم السياسية والحزبية، بأن المشاركة في الانتخابات أمر حتمي، وعلى كل رب عائلة أن يصطحب معه يوم الانتخاب أو الاستفتاء أفراد عائلته ممن تجاوزوا الثامنة عشرة من العمر إلى المراكز الانتخابية لكي يدلوا بأصواتهم... لمن؟... لمرشحي الحزب، ولقلة من المستقلين الذين اختاروا أن يكونوا أدوات تمرير لمشيئة الحزب، وبأنه ستحصى أسماء الذين يرفضون المشاركة، ويسامون سوء العذاب، ويحرمون من السفر خارج العراق، وتعطل مصالحهم الشخصية والوظيفية وقد يساقون إلى السجون... و... و... وكنت ألحظ معظم معارفي وأصدقائي يسوقون عوائلهم كالأنعام لكي يدلوا بأصواتهم... ومع ذلك فقد رفضت في المرات الثلاث، ومعي عائلتي أن أشارك في تلك التمثيلية، التي كانت نتائجها المتوقعة سلفاً

تعلن على لسان عزة الدوري، نائب الرئيس، مساءً بأن نسبة المشاركين جاوزت التسعين بالمائة، وأن الذين بايعوا صدام حسين بلغت نسبتهم (٩٩,٠٩٪) بالمائة من الأصوات!!

وكان يقف على كل صندوق انتخابي عدد من زبانية البعث لإرغام الناس على اختيار من يريدون، وعدم ترك استماراتهم بيضاء من غير سوء... ولا زلت أذكر كيف خرجت إحدى خالاتي (رحمها الله) متحدية، وذهبت إلى مركز الاقتراع وأرادت أن ترمي استمارتها بيضاء فإذا بأيدي الزبانية تمسك بيديها، وتتهددها، وترغمها على أن تمارس الترشيح، ثم ما تلبث ثلة منهم أن تأتي إلى دارها لكي يحاسبوها الحساب العسير، لولا أن زوجها القومي الناصري، سالم محضر باشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي سبق أن تولى رئاسة نقابة المعلمين في الموصل، تصدى لهم وأقنعهم بالكف عنها...

ليس هذا فحسب، بل إن المنغصات امتدت إلى مساحات أخرى من حياتي خلال الحرب... جملة رسائل من أصدقائي المغفلين في الخارج، تصلني وفيها حملة صريحة ضد نظام البعث وقائده صدام حسين، وقصائد ملتهبة في الهجوم عليهما... ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سلّم...

ورسائل أخرى وزيارات دورية من رجالات حزب الدعوة العاملين في الخلايا الموصلية، بعد أن رأوا كتاباتي الحادة في نقد الفكر البعثي، يطلبون مني فيها المشاركة معهم في الهجوم على الطاغية صدام حسين... ولقد وقعت إحدى هذه الرسائل التي كانت تصلني في البريد الاعتيادي بيد رجال الأمن... واستدعيت للتحقيق، وانتهى الأمر بأن قلت للمحقق: إن عنواني البريدي معروف للقاصي والداني، وبمقدور أي شخص أو جهة أن تبعث إليّ بما تشاء... فأين هي مسؤوليتي الشخصية في ذلك؟ ويبدو أنه اقتنع أخيراً بحجتي تلك فأطلق سراحي...

بل إن الأمر بلغ حد التهديد المحتمل بقتلي، ولقد نقل لي ذلك الأخ سالم عبد الرزاق، مدير أوقاف الموصل وذو العلاقات الواسعة برموز القطر في

العراق، قائلاً: إن مواقفك وكتاباتك هي السبب وراء كل متاعبك، وإن شعبيتك الطاغية في البلدان العربية، وبخاصة المغرب، بسبب هذه الكتابات، نبهت هناك العناصر الاستخباراتية العاملة في السفارات والقنصليات العراقية، فراحوا يسألون عنك، وعن طبيعة علاقتك بالسلطة... وإن قيامك بنشر مؤلفاتك، خارج العراق، وبعيداً عن رقابة السلطة، يمثل استفزازاً لها... فضلاً عن أنك تمارس قطيعة صارمة لنشر مقالاتك وبحوثك في المجلات العراقية ذات الارتباط المباشر بالسلطة... هذا إلى قيام الأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث الرفيق شبلي العيسمي بالتعرض في كتابه عن (القومية والدولة الدينية) بهجوم قاسٍ على كتابك (تهافت العلمانية)...

وفي لقاء مع الدكتور عمر الطالب، بعد عودته من المغرب، حيث أعيرت خدماته الجامعية هناك لخمس سنوات، حدثني عن حضوري الواسع في تلك الديار، وعن أن فكري المتميز بالأصالة هو سبب انتشاري في المغرب من دون سائر الكتاب والمفكرين العراقيين، وعن تحقيق حولي أجراه معه سفيرنا هناك، وعن ثلاث أطروحات ورسائل جامعية ستكتب عن أدبي، إحداها عن مسرحي والأخريتان عن منظوري النقدي...

وثمة حديث خطير لسالم عبد الرزاق بعد عودته من المغرب في أعقاب حضوره ندوة هناك، يؤكد فيه أن كتاباتي فضلاً عن انتشاري خارج العراق يقتضي ثمناً، ويؤكد نقلاً عن وزير الأوقاف (فاضل السامرائي) أنني ما لم أسارع فأقدم شيئاً من مقالاتي وبحوثي للنشر في المجلات الرسمية، فسيكون موقفي من السلطة صعباً... ويلمح عبد الرزاق بأن الأمر قد يصل حدّ تصفيتي الجسدية... ولكني أصر على عدم الاستجابة، وسط إحساس معذب يصعب وصفه للمصير المتوقع... ويزداد العذاب بإزاء الطفلة والزوجة والعلاقات العائلية... إحساس يمتص فرحتي بالعودة إلى العمل الجامعي... إحساس مرير بأنني أمشي على قشرة خارجية من الجليد، قد تنكسر في أية لحظة فأهوي إلى الأعماق...

ولقد اعتذرت في تلك المرحلة عن الاستجابة لدعوة بزيارة وزير الأوقاف في فندق (أوبروي) لدى زيارته الموصل، وقد كان عائداً من المغرب وتلقى من سفارتنا هناك الكثير من المعلومات عني، كما رفضت الاستجابة لطلبه بالكتابة لمجلة (الرسالة الإسلامية) التي تصدرها وزارة الأوقاف، بعد أن تحوّلت المجلة التي كنت أكتب فيها سابقاً، إلى إعلام سلطوي صرف...

وثمة صديقان آخران يحذراني من السفر اليومي إلى جامعة صلاح الدين في أربيل، بسيارتي الخاصة، وشيء من التوجس الذي يحكم قبضته علي... ولكن إرادة الله ﷻ، لحكمة يريدها جلّ في علاه، تدخل عل الخط، كما سبق لها مراراً أن دخلت على الخط فانتشلتني من مصير كاد يودي بحياتي... فحمداً لله وحده...

رسالة تصلني من مثقف تونسي تتضمن إشارة إلى أن نبأ وفاتي (الكاذب) الذي لا أدري أسبابه، وكيف أشيع، أصاب بالحزن قسماً داخلياً بكامله للطلبة الجامعيين، وأن كتاباتي تحرك الهمم الخامدة وتنفخ فيها النار... فحمداً لله...

والمتاعب تلاحقني من أقطاري الأربعة، ولا تدعني أرتاح بين الحين والحين إلا قليلاً... لكي ما ألبث أن أتلقى واحدة أخرى...

لقد كان شرائي لقطعة أرض في الطيران، ورطة كبيرة، بسبب اشتراك العديد من الأطراف فيها... ووفاة بعضهم، الأمر الذي كلفني جهداً قاسياً من المتابعة شبه اليومية على مدى أكثر من سنتين بين دوائر الدولة: البلدية، والمحاكم، والتسجيل العقاري، والدخل... الخ... الخ. وكلما أوشكت أن أقطف الثمرة، وأن أفرغ الأرض باسمي، لكي أبدأ البناء، يعترضني عائق جديد يعيد المعاملة ثانية إلى نقطة الصفر... فأبدأ المعاملة القاسية من جديد، وهي تتأرجح في الذهاب والإياب ما بين الموصل وبغداد، حتى أذن الله ﷻ بالفرج، وتمت تصفية كل المتعلقات، وأفرغت الأرض باسمي وحصلت على سند خاص بها والحمد لله، فيما كان بمثابة فرحة غامرة لي ولزوجتي، بعد أن كدنا

نيأس من الحصول على النتيجة، ونتحول للبحث عن قطعة أرض بديلة... ومع ذلك فقد حجبت عني هذه القطعة المعقدة، الحق في حصولي على قطعة ذهبية في حي المثنى، في سياق قانون الكفاءات، وكدت أحصل عليها لولا تلك الاستمارة التي تطلب إحدى فقراتها الإعلان عن ملكية الأستاذ الجامعي لأية قطعة سابقة... ورغم أن العديد من الزملاء داسوا على ضمائرهم، وأجابوا بكلمة (لا نملك)، رغم أنهم يملكون، حصلوا على الأرض... فإني اخترت ألا أكذب وأدخل في دائرة تعذيب الضمير، وربما أفتح على نفسي بوابة يصعب سدّها إزاء الأفاعي التي تنتظر مني موقفاً كهذا كي تمارس لدغاتها المؤذية وتفرغ سمَّها الزعاف...

ثم ما لبث أن جاء بعد سنتين من تلك المعاناة القاسية لتخليص الأرض، ما هو أشد لعنة وأصعب فتكاً... ففيما بين الأعوام (١٩٧٩ ــ ١٩٨١م) دخلت معمعة البناء التي استنزفتني تماماً وتركتني ركاماً... ففي تلك المرحلة التي قررت فيها البناء لم يكن ثمة متعهدون يتولون الإشراف اليومي على البناء، ومتابعة مطالبه كافة، كما حدث فيما بعد، حيث يظل صاحب البناء بعيداً عن الميدان، ومن ثم يتسلم المفاتيح جاهزة... أما المهندسون فكانوا يومها يكتفون برسم التصاميم ومتابعة تنفيذها فحسب، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء متابعة ما يتطلبه البناء من مستلزمات يومية تتدفق مطالبها القاسية كالسيل... ناهيكم عن صعوبة الحصول يومها على مواد البناء ومطالبه، وبخاصة السمنت، والخشب والحديد والكاشي... الخ... حيث كانت الدولة التي رفعت شعار (الاشتراكية) قد حصرت ذلك كله في دوائرها الرسمية.

خطوة خطوة... ومفردة مفردة... كان عليّ أن أتابع شراءها وتجهيزها في اللحظة المناسبة، وإلا تعطل البناء أو لحق به ضرر كبير يصعب تداركه... فعلى مدى سنتين كنت أركب السيارات، والدراجات النارية، وشاحنات الرمل والحصى، والبلدوسرات، لتلبية مطالب البناء اليومية المتجددة... كما كنت أقوم بجولات طويلة مرهقة في أحياء الموصل القريبة والبعيدة، لشراء المواد، مادة

مادة، ولملاحقة العمال والفنيين الذين طالما أخلفوا مواعيدهم معي متوسلاً إليهم أن يعودوا للعمل... وكم من مرة سعيت للمصالحة بين هذا العامل أو ذاك، وهذه المجموعة أو تلك، ممن كانوا يتشاحنون فيما بينهم، ويتركون العمل معلقاً...

أما سقي أعمال البناء، بدءاً من الأسس وانتهاء باللبخ، فقد استنزفت مني الكثير الكثير من الجهد النفسي والجسدي، حيث كان الماء شحيحاً، ولم تجد لجلبه الماتورات التي كنت أشتريها بسخاء من أجل تجاوز المحنة...

كما كان عليّ الذهاب شبه اليومي إلى باب الجديد، أو المقاهي الخاصة بعمال البناء لجلب مجموعة منهم لمواصلة الحفر والردم والتسوية والنقل، ليس هذا فحسب بل كان علي أن أقف لمراقبتهم دقيقة بدقيقة وساعة بساعة، وأشتغل معهم من أجل تحفيزهم على العمل، وعدم تركهم يسترخون، بل ويخونون الأمانة... ويوم كنت أتابع الحصول على وجبات السمنت من معملها في طريق حمام العليل، كنت أسبق هذا بجملة من الوساطات كي أحظى بالمطلوب... وكثيراً ما عدت من هناك بخفي حنين...

أما الأخطاء التي كانت تحدث في أعمال البناء، فحدّث عنها ولا حرج... وقد استنزفت مني لإصلاحها الشيء الكثير... سواء في إقامة الجدران المائلة... أو في شبكة التأسيسات المائية أو الكهربائية... أو في أعمال الخشب والحديد، أو في مجابهة المشاكل التي تحدثها الأمطار الغزيرة المفاجئة... وأعمال السرقة التي طالت حتى مخازن الماء...

ولحسن الحظ فقد كان عملي في المتحف عبر تلك السنوات، يتيح لي في كثير من الأحيان، أن أتغيب الساعات الطوال، لمتابعة أعمال البناء، دون حساب... لأني كنت في عملي الوظيفي أنجز المطلوب وأزيد عليه... فيما كان يضعني في دائرة الرضا من قبل مسؤولي المتحف... إلا في حالات استثنائية نادرة...

أيام العذاب والمعاناة كانت تلك السنوات القاسية، الصعبة، حيث كنت

أيام الصيام، وأنا أقف الساعات الطوال لمراقبة العمال، أرجع إلى البيت وقد نشف جسدي من أية قطرة من الماء، وجعلني العطش ألوذ بأرضية السرداب الباردة لكي ألصق بطني بها، لعلها تنسيني ويلاته، التي لا تطاق... ولكن دون جدوى... أيام العذاب والمعاناة، حتى أنني ـ عبر بعض الحلقات القاسية التي تعترض العمل ـ كنت أقول لأهلي ـ أنني لن أظل حياً حتى أشهد اكتمال البناء... ولسوف يقضى عليّ قبل أن أتم إنجازه...

ولكن لكل شيء نهاية... وها هي سنتا البناء قد انقضتا واكتمل البناء رغم ما انطوى عليه من نواقص وثغرات عديدة، كان عليّ متابعة تنفيذها لعدة سنوات بعد تحوّلنا للبيت الجديد، الأمر الذي استنزف مني الكثير من الجهد والهمّ والغمّ والحيرة والقلق...

وكنت خلال أعمال البناء أتابع مسألة بيع سيارتي المرسيدس بسعر مناسب يعينني على مصاريف البناء التي تتدفق كالسيل، وأخيراً وقع الاختيار على أحد المشترين وبالسعر الأعلى يومذاك، أربعة عشر ألف دينار، فيما شكل نصف مصاريف البناء، وأنقذني من المزيد من الديون... ولكن لا يسأل أحدكم عن حالي وأنا أسلم السيارة لمالكها الجديد... كنت كمن يفقد شيئاً عزيزاً على نفسه، ربطتني به علاقة حميمة يصعب التفريط بها في صفقة عابرة...

ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، وإلا لم أكن قد حظيت ببيت للسكنى... ولحسن الحظ، فبعد أشهر قليلة من بيع المرسيدس أعلنت الشركة العامة للسيارات عن فتح باب التسجيل للموظفين الذين لا يملكون سيارة، وبسعر المنشأ (أربعة آلاف دينار فقط)، فسارعت إلى التسجيل مقتطعاً المبلغ من ذلك الذي حصلت عليه من بيع سيارتي الأولى... حيث أتيح لي بعد أقل من سنتين الحصول على سيارة تويوتا كورونا اليابانية الأصيلة عام (١٩٨١م).

وذهبت وأحد أقربائي إلى البصرة لتسلّمها، وخلال العودة تعرضنا لثلاث محاولات كادت أن تودي بنا وبسيارتنا، إحداها محاولة اصطدام من قبل سيارة المنشأة الثقيلة، والأخرى بسبب فقدان السيطرة على المقود... والثالثة بسبب

مرور سيارة في الجهة المخالفة كادت أن تأتي علينا... ولكن إرادة الله وحده، هي التي أنقذتنا من الهلاك في المرات الثلاث... ولا تزال التويوتا بسبب أصالتها، موجودة بين يدي ابني محمد لحدّ الآن ـ حيث كنت قد تركت السياقة منذ عام (٢٠٠٥م) ـ رغم مرور خمس وثلاثين سنة على امتلاكها.

ولكن ويا للمفارقة... فما أغرب وضعي النفسي وأنا أستيقظ عصراً على شيء من الإحساس المبهظ بثقل العبء، لدى التفكير بأنني أصبحت أملك داراً وسيارة... فما أجمل التجرّد والتخفّف من الملكية... إنها مسؤولية وحمل ثقيل... فماذا لو بقيت أعيش في دار غيري، وأعتمد التنقل في سيارات لا أملكها، وأنصرف إلى العمل والإنجاز؟ إنه تحدٍّ غريب... ولكن!!

قبيل البدء بأعمال البناء في ربيع عام (١٩٧٩م) بحوالي الشهرين، رزقنا الله ﷻ بمولودنا الثاني: ابنتي (مها) بعد أشهر من التوجس والوساوس بخصوص ولادتها وسلامة الأم... فيما أعادنا إلى ذكريات ولادة محمد، الذي لم يطلّ على الدنيا إلا بعد إجراء عملية جراحية لأمه، وبعد ساعات قاسية من النزف الذي تطلب مني الإسراع إلى المستشفى العام للحصول على قنينة الدم... وكيف كان نسيبي يقود السيارة عبر شوارع الموصل المزدحمة بشكل جنوني للوصول إلى المستشفى والعودة ثانية بالقنينة إلى حيث ترقد زوجتي في مستشفى الحكمة... ولكن الله ﷻ سلّم، وانتهى الأمر على خير.

هرعت بزوجتي إلى مستشفى الولادة، وظللت هناك خارج الردهة حوالي الساعة وأنا أدعو الله ﷻ أن ينقضي الأمر على خير... وما لبثت الطبيبة أن خرجت لكي تبشرني بولادة ابنتي (مها)، التي كانت منذ يومها الأول تشع بياضاً، وتلتمع عيناها الخضراوان في وجهها الدائري فتزيدها روعة وجمالاً... فحمدت الله ﷻ على عطائه السخيّ، وكرمه، ومنِّه.

ويوماً وأنا منكبّ على عملي في المتحف يدق جرس الهاتف، فإذا بي أسمع صوتاً طفولياً هشاً يصيح: بابا... بابا... ففوجئت بسماع صوت طفلتي الصغيرة لأوّل مرة، حيث كانت متعلقة بي بسبب من محبتي لها ومداعبتي إياها... لقد

كانت بمرور الوقت تزداد تفتحاً وروعةً وجمالاً، وتأسر كل الذين عرفوها بحسنها وحركاتها الطفولية الآسرة... ويوماً ونحن نقضي الأمسية في بيت أحد الأقرباء، انقضت (مها) على طبق من البرتقال، قبل أن يتم توزيعه علينا... واختارت أكبر الحبات حجماً، فلما صاح بها الموجودون، هرعت إلي لكي تسلمني البرتقالة وهي تجيبهم بصراخها: بابا... بابا... أي إنني اخترت هذه البرتقالة الكبيرة لأبي...

واستقرينا في منتصف حزيران عام (١٩٨١م) في بيتنا الجديد، في منطقة الطيران، قريباً من دور الأهل والأخوة والأعمام... ورغم الارتياح النفسي العميق، والفرحة الغامرة بهذه المناسبة السعيدة، فإن ما كان يقلقنا هو كثرة النواقص التي ظلت معلقة وظللت أتابعها السنين الطوال... ومع النواقص، موقع البيت من مطار الموصل، حيث كانت الطائرات في زمن السلم والحرب تجوب أطراف السماء وتسبب بصراخها وصخبها المتواصل صباح مساء، الكثير الكثير من المتاعب والمنغصات، النفسية والعصبية، ولا تدعنا نلتقط أنفاسنا ونتمتع بالهدوء إلّا لماماً... هذا إلى ما في القرب من المطار من مخاطر جمة والتي ستجيء فيما بعد، بصيغة موجات ثلاث أشبعت المطار بقصف القنابل والصواريخ، ونحن في المرّات الثلاث مصرون على البقاء في بيتنا ومنطقتنا، رغم مغادرة معظم عوائلها إلى جهات أخرى... هذا إلى ما كانت تعانيه المنطقة بسبب انخفاضها من مياه الفيضان التي تتدفق عليها من كل مكان، فتحيل الشوارع إلى أنهار... وتهدد البيوت وسراديبها الأشهر الطوال...

في ربيع عام (١٩٨٢م) ونحن نستقل الباص الذي يقل موظفي وموظفات المتحف إلى رحلة ربيعية عبر طريق القوش، وكنت أنا جالساً في مقعد أمامي بالقرب من السائق، فإذا بصوت جماعي هائل يصدر دفعة واحدة، كصرخة موجعة، من الموظفات اللواتي جلسن في الخلف، ويعقبه بعد لحظة واحدة ارتطام مريع بسيارة أخرى دفعت الباص بعنف باتجاه أرض منخفضة، راح يتدحرج عليها قبل أن يستقر في أسفلها...

كنت أنا لحظة سماعي الصرخة التي أعقبها صوت الارتطام، أمسك بقوة مسند الكرسي الأمامي، وأنا اتقلب مع الباص، أدعو الله ﷻ أن يخرجنا من هذه المحنة سالمين، وألا تصيب الباص ضربة قاسية تسد علينا منافذ الخروج... وما أن استقر بنا الباص على الأرض منقلباً على نفسه، حتى أرخيت يدي من المسند الأمامي، وفتحت النافذة التي في جواري، وسحبت نفسي منها سحباً، لكي ما ألبث أن أجدني في العراء، وأنا أعاني من كدمات عديدة جعلتني أتأوه من الألم...

أما الآخرون فقد تعرض بعضهم لكسور عنيفة، وبخاصة إحدى الموظفات التي أصيبت بكسر في عظم حوضها... وما لبثت سيارات المرافقين أن وصلت منطقة الحادث، فتوزعنا فيها عائدين إلى المستشفى العام في الموصل، لأخذ الأشعة اللازمة من أجل تبين طبيعة الأضرار التي لحقت بكل واحد منا.

وكنت أنا عبر الطريق أدعو الله ﷻ ألا أكون قد أصبت بكسر يعطلني عن رحلتي إلى السعودية لإلقاء محاضرات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية... وإذا بالأشعة تكشف عن سلامتي من أي كسر... فكان ذلك بمثابة فرحة كبرى، إذ أنجانا الله ﷻ من احتمال موت محقق، أو جملة من الكسور التي تتطلب صبراً وعلاجاً ربما لأسابيع وأشهر طوال... هذه هي المرة السابعة أو الثامنة التي تدخل الإرادة الإلهية على الخط فتنتشلني من الهلاك... فكيف لا يكون الإنسان وفياً مع الله؟! كيف؟!

في السنوات التي أعقبت تسلمي سيارة التويوتا، تعرضت هذه السيارة لثلاث ضربات موجعة كادت إحداها أن تأتي عليها... وكان السبب في المرات الثلاث أخطاء الآخرين، وتهوّرهم اللعين في السياقة، وقد كلفني ذلك الكثير من المال لإصلاحها... ولكن ــ والحمد لله ــ فإن ما نخسره من مال أفضل بكثير من خسارة صحتنا وعافيتنا... فحمداً لله مرةً أخرى.

ما لبث أن صدر أمر إداري قاسٍ بتمديد الدوام في الدائرة لتسع ساعات بدلاً من ست... كان ذلك بمثابة ضربة موجعة بالنسبة لي... ولكني عرفت

كيف أمتصها، بأن أغادر الدائرة في الساعة الواحدة يومياً لتناول الغداء في البيت أو في أحد مطاعم السوق وأعود ثانية إلى الدائرة لإكمال الدوام... فكان ذلك بمثابة تغيير طيب لروتين الدوام الذي ما اعتدته في عملي التدريسي المرتبط بساعات المحاضرات فحسب.

في عام (١٩٨٦م) رزقنا الله ﷻ بابنتنا الثانية (علا)... زهرة أخرى حبانا الله ﷻ بها لتزين حياتنا عبر مرحلة طفولتها المتألقة، رغم ما ألحقتنا به من متاعب بسبب بكائها المتواصل الذي لم يكن يسكته شيء، كوضعها قبيل النوم إلى جانبي حيث كنت أداعبها وأحكي لها القصص المسلية، فما تلبث أن تكفّ ثم تأخذها سنة من نوم عميق... يا الله... ما أجمل الطفولة وعذابها، رغم منغصاتها التي لا تعدّ ولا تحصى...

في الجوانب الصحية عانيت عبر هذه المرحلة من حياتي الكثير الكثير... حيث استمرت الحالات القلبية المخيفة تجتاحني بين الحين والحين... نقطة مشؤومة أكاد ألمسها بيدي، تجتاح قلبي من بدئه حتى منتهاه، وأنا في كل مرة أتشهد وأقول في نفسي: ها قد جاء أجلك يا عماد... ومع هذه الحالة المتكررة ضيق شديد في النفس، يأتي هو الآخر على شكل موجات مخيفة تبدأ من أسفل الرئة وتمضي باتجاه أعلاها محملة بآلام قاسية في الصدر... ولم أكن أعلم يومها أن ذلك كله ربما يكون بسبب انسداد الصمام الإهليلي في قلبي وضرورة المسارعة في إجراء المداخلة الجراحية لاستبداله قبل أن يقع المحذور... ولم يشر علي الأطباء أنفسهم، رغم كثرة مراجعاتي لهم إلى السبب الحقيقي لهذه الحالة الذي لم ينكشف إلا بعد مرور سنوات وسنوات...

ولكن الذي كان يؤلمني أكثر هو ما يسببه لي ضيق النفس شبه المزمن والذي لازمني منذ عهد صباي... من متاعب خلال أعمال الكتابة والتبييض، حيث كانت ترافقه دائماً متاعب في ذراعي الأيسر، وحيث كنت بين دقيقة وأخرى، أتوقف عن الكتابة لكي أقوم بمحاولة يائسة لإدخال شيء من الأوكسجين إلى رئتيّ اللتين تنتظران الإنقاذ... فلكم أن تتصوروا كيف أن الله

ﷻ أنزل معونته عليّ وسط هذه الظروف الصحية القاسية، لكي أواصل الكتابة والتبييض لآلاف الصفحات على مدى عشرات السنين من المعاناة المبهظة مع متاعب القلب، وضيق النفس، وآلام الذراع؟!

وثمة المغص الكلوي الذي دهمني مرتين، فكنت أتلوى تحت قبضته الرهيبة الساعات الطوال، ولكن لحسن الحظ ما يلبث أن يزول بأخذ حقنة في الوريد.

أما متاعبي مع الأضراس التي بدأت منذ مطلع السبعينيات، واستمرت بعد ذلك عشرات السنين فقد ألحقت بي الكثير الكثير من المتاعب، ودفعتني إلى معالجتها داخل العراق وخارجه، مع ما يقرب من الثلاثين طبيباً متخصصاً والعديد من العيادات والمراكز الخاصة بالأسنان... وكان يرافقها في الكثير من الأحيان، تلك الفقاعات البيضاء اللعينة التي تغزو فمي ولثتي ولساني بشكل متواصل، وتجعل من تناولي للطعام عذاباً متواصلاً... ومع هذا وذاك عانيت الأمرين من الحساسية الجلدية في ظاهر كفي وساعدي، والتي لم تجدِ معها مراجعتي للعديد من أطباء الجلدية الذين كانوا يسخون علي بالمراهم والدهون... دون جدوى...

وثمة آلام الساقين التي اصطحبتني منذ أيام طفولتي... بحيث أنني عبر الأمسيات كنت لا أرتاح إلّا بأن أنادي على أحد يمارس عليهما الضرب الشديد لكي تكفَّها عن الألم... ثم لحقتهما بمرور الوقت متاعب مفاصل الركبة التي كانت تزورني على فترات متقطعة، وتقعدني عن ممارسة رياضة المشي اليومية أو الذهاب إلى الجامع لأداء الصلاة... يرافقها بين الحين والحين موجات من آلام الفقرات القطنية السفلى التي كانت لحسن الحظ ما تلبث أن تزول وتتركني مرتاحاً الفترات الطوال.

وبمرور الوقت، ومنذ منتصف عقد الثمانينيات بدأت أحس بشيء من الاختناق لدى النوم، راح يتزايد بمضي الأيام، ولدى مراجعة الأطباء تبين أن هناك تضخم كبير في غدتي الدرقية، وأن عليّ أن أسارع لاستئصالها، بمداخلة

جراحية. غادرت عيادة الطبيب وأنا ألعق آلامي، إذ تذكرت متاعبي مع المداخلة الجراحية الأولى لاستئصال الزائدة الدودية، وكيف أنني عانيت الأمرين من انسداد أنفاسي في الأيام التي أعقبت ذلك...

ولكني قلت لا بدّ مما ليس منه بد، وأكملت الأمور الإجرائية، وتوجهت إلى المستشفى العام في الموصل، حيث كان العديد من أطبائه من أصدقائي، فأحاطوني بعنايتهم الكاملة، وعلى رأسهم الجراح الشهير الدكتور قيس الوتار...

لكن القاصمة لم تكن ها هنا، وإنما في مجازفتي، بسبب من عدم تشخيص الأطباء للصمام المسدود، في قبول المداخلة الجراحية التي كادت أن تودي بحياتي لولا أن الله سلّم... ولا زلت أذكر تلك الدقائق المريرة التي يصعب وصفها، وأنا أستيقظ من تأثير المخدر قبل موعد انتهاء مفعوله، لحظة حملي إلى الغرفة، بعد إجراء العملية، فأجدني في حالة انقطاع تام عن تلقي ذرة واحدة من الأوكسجين...

وحيث رحت أصرخ بهم طالباً منحي شيئاً منه، وإلّا قضيت اختناقاً... ولشدة عذابي عبر تلك الدقائق تمنيت أن أتحول إلى كلب يعرف كيف يتمتع بالهواء على أن أظل أعاني من حالة الانسداد... ولكنهم ما لبثوا بعد وضعي في المنام أن زرقوني بحقنة منومة أنستني كل شيء... ثم ما لبثت أن استيقظت وأنا في وضع طيب أستطيع معه أن ألتقط حصتي من الهواء.

ولا زلت أذكر ــ للمفارقة ــ كيف كان يبيت معي في غرفتي شاب من إحدى القرى القريبة من الموصل، وكيف كان يشبّ من نومه بين الحين والحين مذعوراً وصارخاً: إنه سيذبحني بالسكين!! ولعل الشاب كان قد تشاجر مع أحد خصومه، وضربه بطعنة نقل على أثرها إلى المستشفى... فلزمه الخوف من تكرار الحادث... فما كان مني، أنا الذي لم أكن أستطيع لحظتها أن أقتل بعوضة، بسبب إعيائي ووضعي الصحي، إلّا أن أقول له بأقصى ما أستطيع من صوتي المختنق: لا تخف، ما دمت موجوداً إلى جوارك، فلا تخف، ولسوف ألقن من يحاول الاعتداء عليك درساً قاسياً لن ينساه أبداً!!

بمرور الوقت، وعبر السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات هذا، أخذت حالات الاختناق المفاجئ تغزوني بين الحين والحين، فأشبّ قائماً وأنا أكافح لالتقاط الأنفاس... ومع هذه الحالة حالة أخرى موازية من الترنح والسقوط خلال المشي... وأنا والأطباء الذين كنت أراجعهم، لم نكتشف لحين ذلك الوقت السبب الرئيسي في هذه المتاعب كلها: إنه انسداد الصمام وضرورة استبداله بمداخلة جراحية، حيث لم يتأتَّ ذلك إلا في أواخر عام (١٩٩٠م).

ولكن ورغم كل هذه المتاعب والمنغصات، فقد ترك لي هامش واسع للمسرات والأفراح والمناسبات السعيدة، والعلاقات الاجتماعية الحميمة، والرحلات العديدة إلى براري الموصل الرائعة، أو المحافظات الشمالية، أو بغداد العاصمة بمعية العائلة والأقرباء حيناً، وبصحبة ثلة من المعارف والأصدقاء حيناً أخر، أو مع موظفي المتحف حيناً ثالثاً... حيث حملتنا هذه الرحلات إلى الشلالات، والشيخ متي، وبعشيقة، والكلك، والبقاق، والحضر، وحمام العليل، وتل عفر، ومجمع الغابات السياحي حيث استأجرنا هناك عدة دور وقضينا أياماً طيبة، ثم ما لبثنا أن عدنا بعد أسبوع واحد لاستئجارها مرةً أخرى...

أحياناً كانت تلك الرحلات تنطلق بنا بعيداً باتجاه الشمال: إلى أتروش، ودهوك، وصندور، وسواراتوكا، وأربيل، وصلاح الدين، والسليمانية، حيث كنا نحجز في فنادقها ومنتجعاتها السياحية غرفاً ودوراً، ونأخذ معنا ما لذّ وطاب من ألوان الطعام، ونقضي هناك أجمل الأوقات، قبل أن نقفل عائدين إلى الموصل. هذا إلى جانب الرحلات الخارجية إلى الأردن ولبنان والسعودية وقطر والإمارات العربية (تلك التي سترد يومياتها في الفصل الخاص).

وثمة جملة من الأفراح والمسرات والمناسبات الأخرى: الطلعات الصباحية مع الفجر لاجتياز الشوارع الموصلية حيث يخيم الهدوء على الكائنات والأشياء... ثم الوصول إلى مطاعم السوق لتناول وجبة الفطور الشهية من الأكلات الموصلية التي لا تضاهيها أية أكلة أخرى في العالم... وثمة جلساتي

الانفرادية المتطاولة، صباحاً ومساء في المقاهي والكازينوات الأنيقة التي كانت تطل على شارع الدواسة من مثل كازينو صحارى وكازينو أطلس، حيث أغرق في قراءة رواية أو كتاب، أو كتابة بحث أو مقال...أو أجلس قريباً من الحاجز الزجاجي المطل على الشارع للاسترخاء وإلقاء نظرة على المارة، وشرب القهوة والشاي، وفي أحيان أخرى كانت جلسات المقاهي والكازينوات بمعية عدد من الأصدقاء، حيث اللعب والأحاديث والتعليقات لمدى ساعات متطاولة من الزمن...

وثمة الجلسات العائلية اليومية حول التلفاز لمتابعة هذا المسلسل المصري أو ذاك، من روائع ما كانت مصر يومها تطلع به على الناس، من أمثال (رأفت الهجان) و(الشهد والدموع) و(قال البحر) و(أولاد آدم) و(دعوني أعيش)... و... و... هنالك أيضاً الساعات الطوال التي كنا نقضيها في متابعة لقاءات كرة القدم العراقية والعربية والأجنبية بشغف بالغ... وثمة مهرجانات الربيع التي كانت تقام في نيسان من كل سنة، وكنت أعتبرها ـ بحقّ ـ فرصة للتمتع بمشاهدة المواكب والعروض الراكبة والسائرة، والتي كان فنانو الموصل يعرفون كيف يشتغلونها بعناية وإبداع... هنالك أيضاً الأمسيات التي كنت أقضيها مساء كل خميس مع جمعيتنا التي سبق وأن أشرت إليها. أو عبر اللقاءات الأسبوعية في بيت الدكتور صديق الجليلي رحمه الله والتي يحضرها عدد من مثقفي المدينة، وتدور فيها جملة من الأحاديث والحواريات في شتى الشؤون الثقافية، ونستمع فيها إلى شيء من التساجيل القديمة التي كان الجليلي حريصاً على جمعها من مظانّها...

ولكن هذا كله لم يكن يفوق جلساتي الثنائية في بيت الدكتور عمر الطالب رحمه الله حيث كنا نتبادل الأحاديث، ونشاهد العروض التلفازية بالفيديوكاسيت، ولا زلت أذكر يوم كنا نتابع بشغف وتأثر فيلم (عمر المختار) الذي أخرجه مصطفى العقاد رحمه الله كيف تورّم وجه عمر الطالب من البكاء، وهو يرى المصير المحزن الذي آل إليه المختار على يد جلاديه...

وكنت قد طرحت عليه يوماً أن يبدأ كل منا الحديث عن تفاصيل رحلته مع المطالعة والكتابة... ومع الحياة الدراسية... و... و... وبدأ كل واحد منا يسرد ذكرياته بتفاصيلها عن هذه الحلقات على مدى عمره كله... ولكن ـ للأسف ـ لم نكن قد جهزنا جهاز تسجيل لحفظ تلك الرحلات المفصلة من سيرنا الذاتية... وقد ندمنا على ذلك ندماً شديداً... ثم ما لبث الرجل أن أعيرت خدماته الجامعية للمغرب... فانفضت اللقاءات وتوقفت تلك الحواريات الخصبة...

ثمة أخيراً تلك الفرحة الكبرى التي منحني إياها الأخ والصديق الشيخ الدكتور مصطفى البنجويني، لدى عودته من دراسته في القاهرة، بعد حصوله على الماجستير في الفقه الشافعي... كيف أنه رأى رؤيا في المنام حيث وجد نفسه، فجأة، بإزاء قصر رائع في الجنة... فلما سأل عن هذا القصر... كان الجواب: انه لعماد الدين خليل جزاء جهده في إنجاز كتابه **(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)**... لقد كانت بحق واحدة من أثمن الهدايا التي تلقيتها في حياتي كلها، بل أثمنها على الإطلاق... وعسى أن أكون ممن يستحقونها!!

الفصل السابع

١٩٨٧ ـ ٢٠٠٠م

سارت الأمور في عملي الجديد بكلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل على خير ما يرام، حيث أن رئيس قسم التاريخ الدكتور حسام علي غالب النقشبندي من زملاء دورتي أيام دراستنا للبكالوريوس في كلية التربية بجامعة بغداد، ولقد تلقاني وسائر أعضاء القسم بصدر رحب، حيث سادت أجواء المحبة والانسجام، وكان هؤلاء من بيئات وجامعات عراقية شتى: من الموصل وبغداد والأنبار والمحافظات الجنوبية، فضلاً عن عدد من الكرد... وتلقيت جدول المحاضرات الذي تطلب مني التدريس في مرحلتي البكالوريوس والماجستير... الذي افتتح في ذلك الموسم الدراسي، ورغم أنني تقبلت ذلك بارتياح، إلّا أن تنوّع مواد التدريس في المرحلتين، وضرورة التحضير اليومي المجهد لهما، مضافاً إلى ذلك ما كنت أعانيه من تزايد ملحوظ في ضيق النفس، بسبب الجهد الكلامي المتواصل عبر التدريس الذي يبلغ أحياناً حداً من المعاناة المبهظة لالتقاط الأنفاس، مصحوباً بالتشنج في عضلة القلب والذراع الأيسر بسبب انسداد الصمام الذي لم أكن قد اكتشفته بعد... هذا إلى التعليمات الجديدة في رفع نصاب التدريسيين إلى نصاب ونصف، وما يتطلبه ذلك كله من الانكباب على تصحيح الكمّ الكبير من الدفاتر الامتحانية، وما ينضاف إلى ذلك من مطالب القسم وضرورة إنجاز الأبحاث العلمية، وعدم السماح بالحصول على أكثر من يوم واحد في الأسبوع كعطلة، فيما يلزمني بالسفر اليومي إلى أربيل خمسة أيام في الأسبوع... هذا كله ضيّع علي الفرح بعودتي إلى العمل الجامعي، وجعلني أعيد النظر من جديد في إحالة نفسي إلى

التقاعد... أو في الأقل التخلي عن مخصصات التفرغ لقاء تخفيف شيء من الأعباء عني، حيث فاتحت رئاسة القسم والعمادة في الموضوع، وألححت في ذلك دون جدوى.

ورغم ذلك فقد كنت أقدّم لطلبة الدراسات العليا محاضرات متألقة، مترعة بالخصب والحوار العلمي والفضاء المعرفي الواسع... ثم ما لبثت الأمور أن بدأت تنحلّ شيئاً فشيئاً، حيث لحق بالقسم عدد من التدريسيين الجدد، الأمر الذي خفف عني الكثير من أعباء تدريس البكالوريوس... كما أنني استطعت ــ أخيراً ــ أن أنتزع ثغرات عديدة في الدوام الأسبوعي وأتمتع بعطل أكثر...

ولقد طلب مني إلقاء جملة من المحاضرات العامة، خارج الجهد الأكاديمي، فألقيتها بالصيغة التي تشد أنظار الحضور، وتنال إعجابهم، الأمر الذي جعل رئيس الجامعة، الذي حضر إحداها، يهنئني على أدائي ويتمنى علي إلقاء المزيد... فضلاً عن العميد الذي عبر عن إعجابه بهذا الأسلوب في الطرح... وكذلك الحال بالنسبة لكل التدريسيين في القسم والكلية، الذين كانوا حريصين على إبداء تقييمهم... وما لبث تعييني في عضوية اللجان أن انهال عليَّ: عضوية لجنة الترقيات العلمية في الكلية، ورئاستها، عضوية لجنة الترقيات المركزية في رئاسة الجامعة، ترشيحي أستاذاً أول لجامعة صلاح الدين، اختياري في عضوية مجلس الجامعة ممثلاً عن التدريسيين، ولقد جاء هذا الأخير بمثابة هم كبير أطبق عليَّ، بسبب من حساسية قراراته التي قد يختلط فيها الأكاديمي بالسياسي الذي طالما وقفت منه موقفاً صارماً... ولذا كانت السنة التي عملت فيها عضواً في مجلس الجامعة، حيث كنا نجتمع كل أسبوعين بمعية رئيس الجامعة، الأستاذ الدكتور خسرو غني شالي، لمناقشة الأمور والمعضلات الجامعية؛ كانت من السنوات الصعبة في حياتي، ولذا رحت أنتهز الفرص لتقديم استقالتي منها، وقد جاءت إحدى تلك الفرص في أعقاب

المداخلة الجراحية في قلبي، وما تطلبته من إجازات مرضية متطاولة، حيث سارعت بتقديم الطلب وأحسست لدى قبوله بسعادة غامرة يصعب وصفها.

هذا إلى أني كنت أتلقى بين الحين والحين جملة من التقييمات من عمادة الكلية ورئاسة الجامعة ومن المؤسسات العلمية في الخارج، كما انهالت عليَّ الترشيحات للدعوات الخارجية التي كان رئيس القسم يقترحها عليّ: إلى اليونان واليمن وجامعة اليرموك في الأردن، ولكن كان يقف في طريقها جميعاً الحاجز السياسي المعروف، وثمة التحسن الملحوظ في الراتب الذي وازنت به الزيادة الكبيرة في المصاريف العائلية... فضلاً عن الحصول على قطعة أرض ممتازة في حي زانكو الجامعي، فيما كان يشكل رصيداً احتياطياً للمستقبل، هذا إلى تمكني من الحصول على الموافقات الروتينية بخصوص العديد من الدعوات التي وجهت إليَّ من خارج العراق: دعوة مؤتمر كتابة تاريخ الأمة الإسلامية من جامعة الزقازيق في مصر... دعوة لإلقاء محاضرة في مركز فيصل للدراسات الإسلامية في الرياض، وأخرى من المنتدى الأدبي في المدينة المنورة... ودعوة من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في إنكلترا للمشاركة في أسبوعه الثقافي حول المنهجية، واثنتان من مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي للحوار في قضية إعادة كتابة التاريخ، والمشاركة في الأسبوع الثقافي للمعهد في عمان...

هذا إلى جملة مشاركات متألقة في مناقشة رسائل الماجستير ورئاسة لجانها... ولكن ذاك كله لم يكن يعدل عندي حصولي على مرتبة (الأستاذية) التي كنت أستحقها منذ عام (١٩٧٦م)، ولكن الظروف السياسية، ومواقف انتهازيي قسم التاريخ في كلية آداب جامعة الموصل حجبتها عني، الأمر الذي ضيّع عليَّ مبالغ كبيرة وكبيرة جداً لدى إعارة خدماتي القصيرة لعدد من الجامعات بين سنتي (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م)، والتي تعاملت معي بصفتي أستاذاً مساعداً وها أنا ذا الآن (١٩٨٧م): أتقدم بجملة كبيرة من البحوث للحصول عليها، ورحت أنتظر أجوبة المقوّمين الأسابيع والأشهر والسنوات الطوال دون

جدوى، ثم ما لبث أن تبين لي أن أحدهم ــ وهو صديق لي جمعتني به وجبات الطعام والنوم في قسم داخلي واحد، والرحلات المشتركة ــ يعتذر بعد أن جمّد البحوث هذه المدة الطويلة بحجة أنها ليست من اختصاصه... فكيف يكون اللؤم إن لم يكن هذا بعينه؟

سارعت بتقديم طلبي لاعتماد مقوّم آخر... وسرعان ما جاء الردّ بالإيجاب، وصدر أمر ترقيتي إلى الأستاذية في (١٩٨٩/٥/١٠م)... فالحمد لله وحده...

ورغم ذلك كله فقد استمريت على اتخاذ موقفي الصارم الذي لا مهادنة فيه من رفض المشاركة في أية مناسبة أو تظاهرة تحمل بعداً سياسياً يستهدف توظيف الأساتذة الجامعيين لخدمة مطالب الحزب والدولة، والتزلّف لقائدها صدام حسين... وسواء كانت تلك المشاركات بصيغة التظاهرات، التي كانت تخرج من الكليات بأساتذتها وطلابها جميعاً، وتجوب الشوارع حاملة لافتات التأييد أو الاستنكار... حيث كنت أجد حشود التدريسيين والطلاب جميعاً يخرجون مرغمين تلبية لأوامر القيادات الحزبية في الكلية... وكنت أنا الوحيد الذي يغادر الكلية في طريق آخر عائداً إلى الموصل... أو كانت بصيغة التطوع الإجباري في صفوف الجيش الشعبي، وبخاصة بعد مذبحة حلبجة، التي شاركت فيها القيادات العراقية والإيرانية، وذهب ضحيتها الآلاف من أبناء حلبجة التي كانت تعد المعقل الأساسي للحركة الإسلامية في إقليم كردستان...

وأذكر قيام العمداء باستدعاء الأساتذة والتدريسيين واحداً واحداً، وإقناعهم أو إرغامهم على وضع أسمائهم في قوائم المتطوعين والانخراط في صفوف الجيش الشعبي، وكيف استدعاني العميد لإقناعي بالأمر، فلما رآني أعتذر عن القبول لوّح بالعقاب الرهيب ــ على طريقة البعثيين في الحرب النفسية ــ بأن المشانق ستنصب عند أبواب الكليات لإنزال العقاب بكل من يرفض الانصياع، وأنهم سوف يحرمون من رواتبهم، فما كان مني إلا أن أقول

له أن الأرزاق بيد الله وحده، وتلوت عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وغادرت مكتبه.

وحتى تعليق شارات الشهداء الخضراء على الصدور، في أيام الشهيد، زمن الحرب العراقية ـ الإيرانية، كنت أنا الوحيد الذي يرفض وضعها على صدره، بينما كان الآخرون جميعاً، أساتذة وطلاباً، يسارعون في تعليقها، خوفاً من العقاب... ويوماً أعلن عن وقف الدوام في الكلية، وأخذت صالاتها تموج وتضطرب بالرائحين، والغادين، وبالأصوات وهي تعلو وتضطرب... فلما سألت عن الموضوع قال أحدهم: إنها محاولة لجمع تواقيع الأساتذة على برقية موجهة للسيد الرئيس، تطلب الرفق بابنه عدي، الذي سبق قبل يوم واحد أن قتل أحد المرافقين المقربين لصدام حسين، وهو رجل مسيحي... فما كان مني إلا أن أعتبر ذلك خرقاً لا أخلاقياً صريحاً للحقّ، وأغادر الكلّية دون تلطيخ يدي بهذا العمل المرفوض...

كانت متاعب الطريق شبه اليومي إلى أربيل، عبر شارع منفرد واحد، في النصف الثاني منه، حيث الاجتياز السريع يعرض حياة الركاب لخطر كبير... يشكل مشكلة لي، حيث أن خطأ التقدير في جزء من لحظة، قد يجعل السيارة أو الباص، بمن فيهما، مفرمة لحم ويقضي عليهم... ولطالما شهدت عبر هذا الطريق الحوادث الكثيرة، والمآسي العديدة، بسبب محاولات الاجتياز المجنون، فكنت أدعو الله ﷻ أن يوصلني ويعيدني بسلام. ولقد تعرضت ـ بالفعل ـ لحادثتي تصادم عبر تلك السنوات، كانت إحداها بسبب محاولة السائق التخلص من شخصٍ برز قبالته فجأة عبر الشارع، فما كان منه تجاوزاً لدهسه إلا أن ينحرف بالسيارة انحرافاً خطيراً كاد يخرجها إلى الرصيف، ويقودها إلى الانقلاب، ولكن الله سبحانه سلّم... والأخرى عبر عملية اجتياز مخيفة وحقيرة لسائق سيارة باسات برازيلية لدى رجوعنا من أربيل، وضعنا فيها وجهاً لوجه مع سيارته، ولكن عبر جزء من لحظة انحرف سائقنا قليلاً باتجاه الجزرة الوسطية، فتفادى اصطداماً مؤكداً ومريعاً فحمداً لله وحده...

وثمة إزعاج آخر: أمر مباشر من الجهات العليا بألا يتجاوز وزن موظفي الدولة حداً معيناً، وإلا أخرجوا من مناصبهم، أو عوقبوا بتقليص رواتبهم، وإنزالهم إلى الدرجة الأدنى في السلم الوظيفي... فانتهزت الفرصة، حيث كان وزني قد جاوز التسعين كيلو، زائداً عن الوزن المطلوب اثنا عشر كيلو... فالتزمت بالريجيم الصارم لأكثر من شهر، توازيه تمارين رياضية يومية... وبقدر معاناتي في الأيام الأولى مع الجوع والشهية والفراغ النفسي، مع ضيق في النفس وتشنج في القلب والذراع الأيسر خلال المحاضرات... إلا أنني ما لبثت أن اعتدت عليه في الأيام التالية... أما التمارين الرياضية فقد أصبحت متعتي اليومية، ومنحت جسمي وفقراتي سلاسة ومرونة ملحوظة... وكانت نتيجة المحاولتين أن تم تنزيل وزني أربعة كيلوات... إلا أنني ما لبثت ـ بعد أن تبين عدم جدية الذين كلفوا بمراقبة الأوزان ـ أن تجاوزت هذا كله، وعدت إلى تناول الوجبات الشهية بنهم... إذ طالما قلت لأصدقائي: ما الذي تبقى لنا في هذه الحياة سوى اللقمة الطيبة؟ فكانوا جميعاً يثنون على مقولتي تلك!!

في أعقاب حرب الخليج الثانية، في بدء عام (١٩٩٠م)، والهزيمة المنكرة للعراق، وقيام ما سمي بالانتفاضة الشعبانية في الجنوب والشمال... والقضاء عليها... مرّ إقليم كردستان في مرحلة من القلق في تحديد موقفه من السلطة المركزية في بغداد، ثم ما لبث أن بدأ بتشكيل سلطته ذات الحكم الذاتي شيئاً فشيئاً... منتهزاً فرصة انسحاب الجيش العراقي من مواقعه ومعسكراته في الإقليم... وأخذ العديد من التدريسيين العرب في الجامعات الكردية ينسحبون إلى مدنهم، بينما كان الحوار السياسي لا يزال مفتوحاً بين الإقليم والمركز. أما أنا فقد اعتزمت البقاء في كليتي إلى نهاية خدمتي الجامعية، وليكن ما يكون... رغم أن الوصول اليومي إلى أربيل ازداد تعقيداً، وأصبحنا نغادر السيارة القادمة بنا من الموصل، ونجتاز جسر الخازر مشياً، ثم نستقل سيارة أخرى لإيصالنا إلى أربيل... ومع ذلك أصريت على موقفي... وأذكر أن أحد

الأخوة من الكرد، وكان يجلس إلى جواري في السيارة، وعرف بالموضوع، فما كان منه إلا أن ينحني ويقبلني من رأسي، قائلاً: بارك الله فيك... فيما أنا أتذكر بعض الأساتذة الكرد أنفسهم، الذين كانوا يزايدون الآخرين في ادعاءاتهم القومية، سرعان ما باعوا إقليمهم، وغادروا العراق لكي يلتحقوا بجامعات أوربا.

ورغم صدور الأمر الوزاري بضرورة عودة التدريسيين العرب إلى جامعاتهم السابقة، وإلا حرموا من مناصبهم، فقد ظللت الأسابيع الطوال أمارس عملي في كلية آداب جامعة صلاح الدين، في تلك الظروف الصعبة، حتى في مناخها الشتوي القاسي الذي كان يتطلب منا المسير مسافة من الطريق بحثاً عن سيارة تقلنا إلى أربيل... حتى أنني لشدة حيرتي، واعتباري الانسحاب من العمل في كليتي تلك، أمراً غير مقبول أخلاقياً ودينياً، لجأت إلى الاتصال بأحد مشايخ الفقه في الموصل، من إخواننا الكرد أنفسهم، أسأله عن جواز طلب انتقالي إلى الموصل، فأفتاني الرجل بالجواز، وحضني عليه، دونما أي تحفظ على الإطلاق... وحينذاك فقط قررت ـ على مضض ـ العودة إلى بلدي: الموصل...

كنت في أواخر شهر تموز من عام (١٩٩١م) في إنكلترا، مشاركاً في الندوة المنهاجية التي أقامها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ومتابعاً لمطالب المداخلة الجراحية في القلب... فإذا بي أسمع عبر نشرات الأخبار أنباء تفيد بازدياد التوتر بين العراق والكويت بسبب القضايا المالية والنفطية، وعدم وفاء الأخيرة للعراق، رغم كل ما قدمه من تضحيات دفاعاً عن أمن الخليج... وبلغ الأمر بحشد القوات العراقية باتجاه الحدود مع الكويت... وباحتمال الغزو خلال أيام قلائل... فلما عدت إلى العراق، ولم يمض على عودتي سوى أقل من أسبوع، إذا بنا نفاجأ، في الثاني من آب بالاجتياح العراقي للكويت، والسيطرة عليها، وهروب العائلة الحاكمة من آل الصباح باتجاه السعودية... ثم ما لبثت القيادة العراقية أن أعلنت عن ضم الكويت

باعتبارها المحافظة الثامنة عشرة للعراق، وتعيين مجلس للحكم من رجالات العشائر العراقية الذين ألبسوا ملابس الكويتيين، يساعدهم ثلة من أبناء الكويت الناقمين أنفسهم.

حدثت بطبيعة الحال مقاومة شرسة من الكويتيين للغزاة العراقيين، وجوبهت بتعيين علي حسن المجيد، المعروف بشراسته، حاكماً عسكرياً عاماً لتصفية الحساب... وجرت خلال الأشهر التي أعقبت الغزو، عمليات نهب رسمي وشعبي واسعة للممتلكات الكويتية، التي نقلت بإشراف كبار المسؤولين إلى العراق.

جرت محاولات جادة على المستوى العربي لحل الأزمة، وإقناع صدام حسين بالانسحاب، لكن الأفعال الخاطئة والمتشنجة، وردودها التي رافقت تلك المحاولات، وانتشار الشائعات المغرضة التي تقول بأن الدبابات العراقية تتجه غرباً لاكتساح السعودية نفسها، قلب الأمور رأساً على عقب.

وسرعان ما استدعيت الأمم المتحدة ومجلس الأمن، كالعادة، لإضفاء الشرعية على تحشيد قوات ثلاثين دولة أجنبية وعربية بحجة تحرير الكويت من القبضة العراقية.

ولقد جرت على مدى الأشهر الفاصلة بين الغزو العراقي، والغزو الأمريكي المضاد، عدة محاولات من زعماء العالم والدول العربية لإقناع صدام بالانسحاب، لكنه في كل مرة كان يصرّ على البقاء، ويرفض وبشكل قاطع العروض كافة، رغم أنها كانت تمنحه غطاء كافياً لحماية ماء الوجه، ولإنقاذ جيشه وماكينته الحربية من الدمار.

ولا زلت أذكر أنني لدى كل جلسات الحوار مع أصدقائي كنت أؤكد لهم بأن الضربة قادمة ولا ريب، استناداً على تحرك القوات الأمريكية وقطعها المسافات الطوال، وعلى نيّة مسبقة بغزو العراق تعود إلى أيام الرئيس رونالد ريغان، ولكنهم كانوا يصرون على أن الأزمة ستنتهي بالانسحاب، ودونما إعلان

للحرب على العراق، ربما في محاولة منهم لطمأنة نفوسهم بخصوص احتمالات المستقبل القريب!!

ثم ما لبث الهجوم الدولي بقيادة الجيوش الأمريكية أن بدأ، بصيغة ضربات قاسية من الجو بالصواريخ العابرة والقنابل الثقيلة، لتدمير البنية التحتية للعراق بكل مفرداتها، بحيث أنهم لم يبقوا منها شيئاً صالحاً للعمل: شبكة الاتصالات... الطائرات... الطرق والجسور... الماء والكهرباء... المراكز الإدارية والقصور... أبنية الأمن والمخابرات... المقار الحزبية... الخ... الخ... واستمرت الحملة الجوية هذه من ليلة السابع عشر من كانون الثاني عام (١٩٩١م) حتى أواخر شباط.

ولقد طالت إحدى الضربات أحد ملاجئ بغداد فقتلت وجرحت مئات المتجمعين من الرجال والنساء والأطفال... لكي ما يلبث الهجوم البري القاهر أن يبدأ مكتسحاً خطوط الدفاع العراقية، ومدمراً كل آليات الجيش العراقي الذي كان أفراده يئنون من الجوع وتقطع وغياب الخدمات الإدارية وإيصال الماء والطعام... فكانت الهزيمة المحققة عبر واحدة من أكثر عمليات الانسحاب في التاريخ البشري فشلاً وسوء تقدير، كما أعلن ذلك العديد من قيادات الجيش العراقي فيما بعد.

والسؤال الذي طالما أداره المتابعون مع أنفسهم، وأدرته مع نفسي: لماذا يتم الانسحاب في هذا الظرف الأكثر سوءاً، حيث الانعدام الكلي للغطاء الجوي، وحيث أصبحت القوات العراقية بآلياتها الهائلة مكشوفة تماماً لضربات أمريكا، التي لا يهمها مطلقاً البعد الانساني أو الأخلاقي عندما تشارك في الحروب ضد خصومها؟ ولماذا، وقد أصبح قائد القوات الأمريكية شوارتسكوف على بعد خطوات من اقتحام بغداد والقضاء على نظامها، يطلب منه الرئيس الأمريكي أن يوقف زحفه؟ ولماذا سمح للعراق باستخدام أقصى درجات العنف لسحق ما سمي بالانتفاضة الشعبانية في الجنوب والشمال، بما في ذلك

استخدام المروحيات... ولماذا عادت أمريكا فمدّت في عمر النظام العراقي ثلاثة عشر عاماً أخرى، قبل أن تجهز عليه في عام (٢٠٠٣م)؟

وكان الجواب فيما ذكره الكاتب العراقي حسن العلوي في كتابه عن المحاولات العراقية المتتابعة لغزو الكويت، والتي ذهب ضحيتها كل من الملك غازي ونوري السعيد وعبد الكريم قاسم وصولاً إلى صدام حسين... والذي يحمل عنوان (أسوار الطين)، فلقد أشار (العلوي) في كتابه هذا إلى أن المسألة في أساسها لم تكن استدراجاً لصدام حسين، فهو على درجة كبيرة من الذكاء بحيث لا يمكن أن تجرّ قدمه بهذا القدر من اليسر والسهولة إلى المصيدة... وأنه (أي العلوي) عاش قريباً منه كبعثي متقدم، السنوات الطوال وخبره جيداً...

فإذن... يبدو أن مجازفة دخول الكويت ــ يقول الرجل ــ تنطوي على تنفيذ دقيق لنظرية إفراغ القوة... وأن أمريكا بعد أن ساعدت العراق في حربه ضد إيران وانتهى الأمر بانتصار العراق، رأت أن هذا الجيش الهائل (٧٣ فرقة عسكرية) بآلياته ودباباته ومدافعه العملاقة، وصواريخه بعيدة المدى، وخبرته الميدانية التي ازدادت عبر ثماني سنوات من الحرب مع الجيش الإيراني، مضافاً إلى ذلك ما أشيع من أن صدام يقوم بمحاولة أخرى لتخصيب اليورانيوم سعياً لامتلاكه القنبلة الذرية، التي وئدت محاولتها الأولى عام (١٩٨١م) من قبل إسرائيل...

هذه القوة المتنامية أصبحت تشكل خطراً على الأمن الإسرائيلي، وأمن المنطقة الموالية للأمريكان، كان لا بدّ من إرغام صدّام على تفريغها في الكويت، مقابل الموافقة على استمراره في الحكم... وهي على أية حال نظرية لها العديد من المبررات التي تؤيدها، والتي قادت القوة العراقية إلى الدمار، والقيادة البعثية ــ في الوقت نفسه ــ إلى الاستمرار كجدار عازل ضد التغوّل الإيراني في العراق والمناطق المجاورة.

على أية حال وبقدر تعلّق الأمر بنا كمواطنين، فلقد مررنا عبر أيام الهجمات الجوية على العراق، وما أعقبها، بأيام ثقيلة سوداء. حيث لا ماء

ولا كهرباء... حيث التخويف الدائم من ردود الفعل الإسرائيلية على ضرب إسرائيل بالصواريخ العراقية، واحتمالات ضربنا بالأسلحة الكيماوية، الأمر الذي دفعنا إلى تحصين نوافذنا بالورق اللاصق، والنزول ليلاً إلى السراديب، حيث لا زلت أذكر، ونحن في دارنا في منطقة الطيران التي تعرّضت أكثر من غيرها للقصف الجوي، تلك الضربة القاسية من طائرة (B 52) الأمريكية الضخمة لجانب من المطار، جعلت السرداب والدار بأجمعه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يعود إلى الاستقرار...

ولا زلت أذكر كذلك، كيف حشرت قيادة الطيران، الطيارات العراقية المقاتلة، بين دورنا، وعبر الشوارع المحيطة بنا، الأمر الذي عرضنا لخطر مؤكد كاد أن يأتي علينا لولا أن تداركت القيادة الأمر وسحبت الطائرات بعد يومين من توزيعها الخاطئ ذاك... وأذكر ـ كذلك ـ فجر اليوم التالي للهجوم الأمريكي كيف انطلقت ثلاث طائرات عراقية من المطار القريب، في محاولة منها لملاحقة الطائرات الأمريكية المغيرة، وبعد دقائق معدودات أسقط الأمريكيون اثنتين منها وأصابوا الثالثة التي عادت إلى المطار لكي ما تلبث أن تحترق فيه. على هؤلاء الطيارين الفدائيين الشجعان رحمة الله ورضوانه...

وأذكر كذلك ذلك اليوم الأسود، الذي أحال النهار إلى ليل مدلهم عميق، بسبب الغيوم السوداء القادمة من الكويت، حيث فجِّرت آبار النفط فأحدثت اضطراباً جوياً غطى سماء المنطقة بليل عميق...

لكننا، مع ذلك كله، اعتدنا هذه الوقائع والضربات وأصرينا على البقاء في منطقة الطيران رغم رحيل معظم سكانها إلى جهات أخرى... وكنا نقضي أمسياتنا في الحوار، والاستماع إلى نشرات الأخبار، ونمارس نومنا على طبيعته... لقد أخذ المواطن العراقي تمريناً صعباً في التعايش مع هذه الحالات عبر سني الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، تحوّلت سنتها الأخيرة (١٩٨٨م) إلى حرب ضروس بالصواريخ والصواريخ المضادة، التي

طالت المدن، ولم تفرّق بين المواقع العسكرية والمدنية وألقت الرعب في قلوب الناس...

ولقد سقط أحد هذه الصواريخ الإيرانية في الشارع القريب من دارنا، وإذا بنا نسمع انفجاراً هائلاً أعقبه تحطم زجاج النوافذ والتواء حديدها، وانتشار عاصفة من الغبار الكثيف الذي أحال النهار إلى ليل عميق... ثم ما لبثنا أن رحنا نتلقى المزيد من الضربات التي كانت تستهدف، فيما تستهدف، منشآت المطار ردّاً على الصواريخ العراقية التي طالت العاصمة الإيرانية طهران، وألحقت بها المزيد من الدمار.

مهما يكن من أمر، وسواء أخذنا بمبدأ الاستدراج الذي تؤكده جملة من المعطيات، أو مبدأ إفراغ القوة الذي تؤكده معطيات عديدة أخرى... فإن اجتياح القيادة العراقية للكويت، كان بمثابة السكين الحادة التي ذبحت العراق والعراقيين من الوريد إلى الوريد، بحيث أنهم راحوا يلعقون ويلاتها ومراراتها، يوما بيوم، ودقيقة بدقيقة، على مدى ثلاثة عشر عاماً ما لبث أن انتهت بكارثة الاحتلال الأمريكي للعراق، الذي قام على واحدة من أكثر الأكاذيب في التاريخ البشري لا أخلاقية ولا إنسانية، والذي ساق العراق بقيادة اللص العسكري الفاشل (بريمر) إلى المزيد من التفكك والانهيار، وقاد العراقيين وقد انكشفت ظهورهم، بإجرائه المترع باللؤم والقذارة والذي أصدر فيه أمره بحل الجيش العراقي ومؤسساته الأمنية والاستخبارية، حيث ما لبثت الميليشيات الطائفية أن حلّت محلّه، وقادت البلد إلى سلسلة متطاولة من الحروب الأهلية، والمذابح الطائفية، والتهجير الجماعي، واغتصاب الدور، والقتل اليومي الذي طال زهرة علمائه ومفكريه وأساتذته الجامعيين...

وعلى مدى المرحلة الزمنية بين حربي الخليج الثانية عام (١٩٩١م) والثالثة عام (٢٠٠٣م)، حيث فرض الحصار الاقتصادي القاسي على العراقيين، وحيث اضطر الناس إلى أكل النخالة المخلوطة بنشارة الخشب، والملأى بجثث الفئران الميتة وبرازها المقزز... وحيث تعرضت العملة العراقية

إلى انهيار أسطوري حوّل الدينار الذي كان يساوي ثلاثة دولارات، إلى أقل من الفلس الواحد، حيث أصبح الدولار يباع بثلاثة آلاف دينار... بينما ظلت رواتب الموظفين والتدريسيين والأطباء والمهندسين على حالها... الأمر الذي دفع العديد من أساتذة الجامعات إلى البحث عن موارد أخرى للرزق، بما فيها بيع الخضار، أو قيادة سيارات التاكسي... دون أن تلتفت القيادة العراقية إلى هذه المأساة وتسعى للتخفيف من وطأتها... لا ندري لماذا؟!

ولقد تعرضنا جميعاً إلى جملة من الانكسارات المالية الأسطورية بسبب من هذا التأرجح اللا معقول في أسعار العملات صعوداً وهبوطاً... وحيث فرضت على العراق ما سمي بلجان التفتيش عن الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية، وأسلحة الدمار الشامل، وهي الأكذوبة الكبرى التي بنت عليها أمريكا وحلفاؤها حربها الغاشمة لاحتلال العراق...

ولطالما كانت لجان التفتيش هذه تضم بين أعضائها خبراء من المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، الأمر الذي كان يدفع القيادة العراقية وقد نفد صبرها إلى طرد لجان التفتيش واحدة تلو الأخرى... لكي ما تلبث أن تتلقى العقاب على تصرفها هذا بصيغة هجمات بالصواريخ العابرة، كما حدث في عام (١٩٩٢م و١٩٩٨م) حيث تم تدمير العديد من المنشآت العسكرية والمدنية في بغداد وبعض المحافظات، لكي ما يلبث العراق أن يوافق مرغماً، ثانية وثالثة، على استقبال لجان التفتيش التي كان بعضها يتعمد الاستفزاز بدخوله قصور الرئيس العراقي صدام حسين بحجة أن فيها مخزونات أسلحة الدمار الفاشل!!

لقد كانت سنوات الحصار بحق، حرباً ضروساً، رغم أنها كانت تشتغل بصمت، هرست العراق والعراقيين بغير ما رحمة، كما لم تهرسه الحروب المعلنة نفسها... وكنا نردد مع أنفسنا أننا شعب كتب عليه الشقاء الدائم بسبب من امتلاك أراضيه ثاني أضخم احتياطي نفطي في العالم، وهو السبب نفسه الذي كان يمكن أن يجعلنا نعيش في واحدة من أكثر بلدان الأرض

رفاهيةً وتقدماً... وكنا نقارن هذا بأوضاع دول الخليج التي نعمت بدخلها الهائل من النفط، رغم أنها لا تملك عشر معشار ما يملكه العراقيون من طاقات عقلية مبدعة، وثقافة شاملة، لا يكاد يملك الغربي نفسه منها إلّا الشيء القليل...

وأذكر على سبيل المفارقة أن أحد الخليجيين سئل في برنامج (اربح المليون): أين يقع جبل أحد؟ ورغم تقديم الخيارات الثلاثة أمامه، إلا أنه ظل يتلكأ في جوابه ثم ما لبث أن قال: في مكة المكرمة!! وأذكر أن العديد من المواطنين الأمريكان لم يكونوا يعرفون أين يقع العراق وجارته إيران، رغم مرور السنوات الطوال على الحرب بين البلدين، والتي كانت أجهزة إعلامهم تزودهم بتفاصيلها صباح مساء... وثمة المقولة المعروفة عن العراقيين والتي تقول: إن مصر تفكر ولبنان تطبع والعراق يقرأ... بحيث أصبح العراقي يعرف من أمور الدنيا، وقضايا الجغرافيا والتاريخ والسياسة و... و... الشيء الكثير... ولكن ماذا يفعل الإنسان تجاه الحظوظ السيئة؟!

عدت إذن إلى جامعتي ثانية، وكانت خطوتي الأولى، السعي لئلا أرجع إلى كلّية الآداب التي يصعب التجانس مع أساتذتها والعاملين معها، وأن أكون في كلّية التربية... ولقد أعانني في تحقيق بغيتي هذه عدد من مسؤولي رئاسة الجامعة، وعلى رأسهم رئيس الجامعة نفسه الأستاذ الدكتور عبد الإله الخشاب، الذي كان هو ووالده ـ رحمه الله ـ على علاقة وثيقة بوالدي رحمه الله، حيث ما لبث الأمر الجامعي أن صدر بإعادتي إلى كلّية التربية، التي كان أكثر من نصف تدريسييها من تلامذتي.

ومن ثم فقد أحسست منذ اللحظات الأولى بالانسجام والمحبة والتقدير الذي أحاطوني به، وكان رئيس القسم الأستاذ الدكتور إبراهيم العلاف على علاقات طيبة بي، فأعطاني عدداً من المواد التدريسية لطلبة البكالوريوس ومواد أخرى، لطلبة الدراسات العليا، التي ـ شأنها شأن كلية آداب جامعة صلاح الدين ـ افتتحت لحظة انتمائي إلى الكلّيتين، إذ أنهم كانوا بأمسّ

الحاجة إلى من يحمل لقب الأستاذية لكي يسمح لهم بفتح القسم... فرتبت مع أعضائه الآخرين مفرداته المنهجية، ومضت الأمور على خير ما يرجوه المرء من الوئام والعطاء والإبداع...

ولطالما انهالت علي تقييمات رئيس القسم، حيث منحت ـ على سبيل المثال ـ الأولوية في المحاضرات التي كلّفنا بإلقائها على الكادر التدريسي للإعداديات... وحيث ألقيت جملة من المحاضرات اللاصفية في مختلف أقسام الكلية لقيت قبولاً حسناً... وأذكر كيف أنني تنازلت عن اختياري أستاذاً أول في الكلية لصالح رئيس القسم، الذي أعطيته صوتي ففاز بفارق نقطة واحدة، بينما كان الآخرون يتمنون أن أكون أنا الفائز، دون أن يعلم رئيس القسم عن موقفي شيئاً...

ثم ما لبث أن استبدل برئيس قسم جديد هو الأستاذ الدكتور عوني السبعاوي، وهو أحد تلامذتي في مرحلة البكالوريوس في كلية الآداب... فكان وفياً معي بمعنى الكلمة، لم أتلق منه على الإطلاق كلمة أو موقفاً واحداً مما قد يسبب لي المتاعب... وكنت أقول في نفسي، وأحدث أصدقائي بأن البعثيين ليسوا سواء، ففيهم العديد ممن يتميزون بالوفاء والمودة، وحتى الالتزام الديني، وكان السبعاوي هو أحد هؤلاء، والذي طالما حدثني عن ابن عم له (وهو يونس السبعاوي) الذي كان له الدور القيادي المعروف في حركة رشيد عالي الكيلاني ضد الهيمنة البريطانية على العراق... والذي انتهى به الأمر إلى الإعدام شنقاً رحمه الله... ولطالما نقل جهودي المتواصلة في كلية التربية إلى العميد نفسه (الأستاذ الدكتور زهير الشاروك)، فكان هذا يعرب عن تقييمه ويعلن في الاجتماعات العامة بأني واحد من علماء العراق، ويوافق على كل طلب أتقدم به استجابةً لدعوة من هذا المؤتمر أو ذاك خارج العراق.

أشرفت عبر عملي في كلية التربية على العديد من طلبة الدراسات العليا، وشاركت في مناقشة العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، ورئاسة

لجانها، في كليتي التربية والآداب والإدارة والاقتصاد، وكنت دائماً أتلقى التقييم على أدائي عبر المناقشات التي أشبع فيها الرسائل والأطاريح بحثاً وتنقيباً.

كما دعيت وقلة من التدريسيين للمشاركة في مؤتمر علمي حول مناهج البحث في التاريخ وطرق تدريسه، أقامته كلية الآداب في جامعة بغداد عام (١٩٩٣م)، وحضره عدد من أساتذتنا الكبار في جامعة بغداد كالأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي والأستاذ الدكتور حسين أمين (رحمهما الله) وآخرين، كما حضر المناقشات التي شهدها المؤتمر الأستاذ الدكتور عبد الإله الخشاب رئيس جامعة بغداد، وعدد كبير من التدريسيين.

ولقد انتهزت الفرصة عبر المناقشات لتأكيد رؤيتي التي طالما دعوت إليها في الاجتماعات العامة والمؤتمرات، وهي ضرورة فتح منافذ الحرية للأداء الجامعي الأكاديمي، إذا أردنا له أن يتطور ويزداد إبداعاً، وقد أيّدني في ذلك الدكتور عبد الله سلّوم السامرائي، الذي كان قد أقصي عن مهامه الحزبية والإدارية المتقدمة في الدولة، رغم حساسية الموضوع الذي تناولناه... رَحِمَهُ اللهُ...

في مقابل هذا كله، استمريت على حذري من الانزلاق باتجاه التنازل عن موقفي الصارم إزاء كل ما يمس قناعتي، ويجعلني أخضع، بدرجة أو أخرى، لضغوط الحزب والسلطة، أو إغراءاتهما التي سحبت العديد من الأساتذة باتجاه مواقع الانتهازية، والتقرب من مطالب الحزب والسلطة... فكنت أسارع بالاعتذار عن المشاركة في الفعاليات الثقافية للمؤسسات العلمية في بغداد بسبب ارتباطها بالجانب السياسي أو الإعلامي... وكانت إحداها دعوة من اتحاد المؤرخين العرب ووزارة الإعلام للمشاركة في مناقشات مشروع إعادة كتابة التاريخ، والأخرى، تعييني عضواً استشارياً في مؤسسة دار الحكمة المرتبطة بديوان رئاسة الجمهورية، ممثلاً عن جامعة الموصل، وثالثتها عن المشاركة في فعاليات المؤتمر الشعبي الإسلامي في بغداد.

كما أنني اعتذرت عن تسلّم وملء الاستمارات الخاصة بالأساتذة العلماء، رغم ميزاتها المالية والأدبية السخية، وكذلك الحال بالنسبة لمكافآت الأساتذة

المتميزين، أو الترشيح لموقع الأستاذ الأول في جامعة الموصل، أسوة باعتذاري عن الترشيح لجائزة الدولة التقديرية في بغداد والتي سبق وأن عرضها علي رئيس قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين.

هذا إلى أنني اعتذرت وبشكل قطعي عن ممارسة التدريب العسكري الذي فرض على تدريسيي الكليات، وعن تسجيل اسمي كصديق للرئيس في طلب التقاعد، رغم ما يسببه ذلك من انخفاض في هذا الراتب...

هذا إلى أنني تلقيت يوماً مكالمة من عميد كلية الآداب يخبرني فيها عن دعوة السيد رئيس الجمهورية لحضور لقاء خاص مع ثلة من المختصين في التاريخ، فما لبثت أن اعتذرت فوراً عن الحضور، رغم ما قد يسبب ذلك من المتاعب التي لا يعلم مداها إلا الله ﷻ، ولكنه سبحانه، أنقذني منها... بينما تهافت المدعوون على الذهاب طمعاً في الجلوس إلى السيد الرئيس، وتلقي توجيهاته ومكافآته المالية التي بلغت مليون دينار لكل واحد منهم...

وقد ذكرني هذا بما حدث عام (١٩٩٥م) عندما كنت في زيارة للدوحة في قطر لإلقاء عدد من المحاضرات... كيف اتصل بي ثلة من الأساتذة الجامعيين وعرضوا علي أن يرشحوا اسمي لنيل جائزة الملك فيصل لذلك العام، والتي كانت مخصصة للباحثين في السيرة النبوية، قائلين لي: إن حصولك عليها، بعد جملة بحوثك ودراساتك في الموضوع، أمر شبه مؤكد، فقط نريد منك الموافقة المبدئية على الترشيح، وسنتكفل نحن بالباقي.

فاعتذرت عن العرض، رغم إغراءاته المالية والأدبية التي تتجاوز الثلاثمائة ألف دولار يومذاك، والتي تشكل في حالة تحويلها إلى الدينار العراقي مبلغاً فلكياً...

استمريت في التدريس في كلية التربية حتى عام (١٩٩٩م)، عندما اقتنعت على تردد، بأنه قد آن الأوان لتقديم طلب بإحالتي على التقاعد لأسباب صحية، لكي أتحرر من الارتباط الوظيفي، وأسعى للعمل خارج العراق في إحدى الجامعات... وبدأت المحاولة التي لم أكن قد حسمت أمرها مع نفسي وعائلتي

بشكل نهائي... ولذا فسرعان ما قررت سحبها وتأجيلها لسنة أخرى، ربما بسبب ما كان يسود علاقتي بالقسم ورئاسته من مودة وانسجام...

ثم ما لبثت في العام التالي أن عزمت على الأمر، وتقدمت بالطلب الذي يتطلب العديد من المراجعات للجان الطبية، والمستشفيات، والفحوصات السريرية في الموصل وبغداد... وقد اقتضى ذلك مني رحلات عديدة إلى بغداد، وكانت نقطة القوة في طلبي أنني كنت قد أجريت قبل عشر سنوات عملية استبدال للصمام الإهليلي في القلب، وأنني لا زلت أعاني من رجفة دائمة في الأذين، وضيق دائم في التنفس... وأخيراً حصلت على المطلوب، بعد جملة طويلة من المداخلات والوساطات... وعدت إلى الموصل، بانتظار وصول الموافقة التي استغرقت أكثر من شهر...

يومها كنت أشرف على طالب سوداني في أطروحته الموسومة: (دولة الإسلام في المدينة: بحث في معطياتها الحضارية)، ووافق أن رشح لرئاسة لجنة المناقشة في ربيع عام (٢٠٠٠م)، أستاذ عاني من جامعة بغداد، بدأ حياته الجامعية إسلامياً من طراز أول، وكانت تربطني به زمن دراستي الجامعية في كلية التربية علاقة طيبة... ثم ما لبثت إغراءات الدنيا وزينتها أن سحبته بعيداً عن موقعه، فاندفع مع البعث بعد تسلمه السلطة عام (١٩٦٨م)، وأصبح كما يقول المثل: ملكياً أكثر من الملك، وتولى بناء على ذلك مهمة التفتيش في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي...

ولهذا عندما بدأت المناقشة انصبت اعتراضاته على التوجه الإسلامي للأطروحة، وإغفال البعد القومي في سيرة الرسول ﷺ، فما كان مني إلا أن أناقشه بالأدلة القاطعة على صواب موقف الطالب، وخطأ موقفه في لوي عنق الوقائع التاريخية، وأنهيت كلامي بنصيحة وجهتها إليه وإلى كل الموجودين في القاعة: إن التفرقة بين الإسلامي والعربي أمرٌ مرفوض، وهو من إفرازات العقل العلماني الغربي، وعلينا ألا ننساق إليه...

ظل الرجل صامتاً، وقد علت وجهه موجة صفراء توحي بالويل، ولم يستطع

أن يردّ علي، ولكنه انتهز فرصة الاختلاء بلجنة المناقشة لمنح درجة للطالب، فإذا به يقنع الموجودين الذين كأن بعضهم أشبه بالظلال الصامتة لكل ما يريد... بتأجيل منحه الدرجة لمدة شهرين، وأن عليه أن يعدّل في أطروحته جملة من المسائل... فما كان مني وأنا أستمع إلى قرار اللجنة، إلا أن أترك المنصة قائلاً: لقد كنت متردداً في تقديم استقالتي من الجامعة، أما الآن فقد أصبحت أملك القناعة الكاملة للخروج من هذه البيئة غير مأسوف عليها... ثم غادرت المكان وسط تأييد ومباركة العديد من أساتذة الجامعة وتدريسييها وطلبتها...

ولكني بعد يوم أو يومين تلقيت أنباء من مصادر مقربة من رئاسة الجامعة، أنهم بصدد نقلي ثانية بسبب من اتهامي (بالسلفية)!! حيث يبدو أن العاني المذكور استطاع أن ينفّس عن هزيمته وحقده، بإيصال هذه المعلومة الخاطئة إلى رئاسة الجامعة مستغلاً موقعه الحزبي والإداري المتقدم في وزارة التعليم العالي... ولكنه وكما يقول المثل: فقد سبق السيف العذل، وجاءت الموافقة من لجان بغداد على قبول استقالتي لأسباب صحية... ثم ما لبثت أن بدأت معاملة الانفكاك...

وأنا أملأ إحدى الاستمارات رأيت بنداً يدرجني في عداد أصدقاء الرئيس فما كان مني إلا أن أشطب عليه، رغم أنه يضيف إلى تقاعدي مبلغاً طيباً من المال... إذ لم أشأ التهافت كما يتهافت الكثيرون على التشبث بالمال على حساب كرامتهم. ولا زلت أذكر ذلك الجهد الكبير الذي بذلته قبل أشهر معدودات، وعرضت فيه نفسي للخطر، عندما اتصلت باللجنة المسؤولة عن إرسال أسماء الأساتذة الذين اختيروا كأصدقاء للرئيس، إلى بغداد، أطلب من مسؤولها إلغاء اسمي من القائمة، ولكنه أعلمني بأن القائمة قد أرسلت ويستحيل إذن تنفيذ طلبك!!

تلقيت كتابَيّ تقييم وتكريم من رئيس الجامعة وعميد الكلية، على جملة

خدماتي المتميزة التي شهدتها أروقة الجامعة، وكلياتها... ويتمنيان لي كل خير..

كانت مرحلة التسعينيات توحي بانفراج كبير للنشاط الثقافي والدعوي في العراق عامة وفي الموصل على وجه الخصوص، ربما بسبب من إعلان صدام حسين عن حملته الإيمانية التي ألزم بها الرفاق البعثيين بدراسة المواد العلمية الإسلامية: القرآن والحديث والفقه... الخ. وكلف عدد من الأساتذة المتخصصين في إلقاء المحاضرات الدورية عليهم... وربما كرد فعل على التحديات الغربية ذات البطانة الصليبية... وربما كنوع من يقظة الضمير الديني لدى صدام نفسه ورغبةً منه في التكفير عما اقترفت يداه... وربما لامتصاص الزخم الإيماني للشعب العراقي وتحجيمه في إطار إشراف الدولة والأجهزة الحزبية... ومهما يكن من أمر فلم يقدّر لأحد، مهما أعمل ذهنه في البحث عن الأسباب أن يصل إلى جواب محدّد...

ولكن المهم أن فضاءً واسعاً أتيح للمنتمين إلى التيار الإسلامي أفراداً ومؤسسات وجماعات، أن يعبروا عن أنفسهم بقدر كبير من الحرية، وأن يرسموا، مستغلين الأمسيات الرمضانية والتجمعات الحاشدة لصلاة التراويح في المساجد، البرامج اليومية لجملة من المحاضرات الدعوية والفكرية التي يكلف بإلقائها عدد من الأساتذة الجامعيين والدعاة والمفكرين الإسلاميين... بل إن الأمر تجاوز نطاق الجوامع إلى أروقة الكلّيات في الجامعة نفسها، حيث رتبت المواسم الثقافية في كل كلّية، وأحسن توظيفها لأهداف إسلامية صرفة كانت تُتلقى من قبل حشود الطلبة الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم، بقبول حسن...

هذا إلى ما كانت الجمعيات الإسلامية (كجمعية الشبان المسلمين) و(جمعية الآداب) و(رابطة علماء العراق) وغيرها، تعقده من محاضرات أسبوعية للغرض نفسه... بما في ذلك مؤتمر عن الأدب الإسلامي أقيم في جامعة الموصل عام (٢٠٠٠م) حسبما أذكر دعيت لإلقاء محاضرة مستفيضة

فيه، استعرضت فيها التأسيسات الضرورية لحركة هذا الأدب، والخطوات التي قطعتها على الطريق، وشاركت في مناقشة جملة من المحاضرات التي تحركت في الاتجاه المضاد لهذا الأدب، وأقنعت بعض أصحابها بخطأ موقفهم من الأدب الإسلامي، وبأن عليهم أن يقرؤوا معطياته الخصبة ويستوعبوها جيداً، قبل أن يقولوا كلمتهم فيه...

وعلى مدى ما يقرب من السنوات العشر، انهالت عليّ الطلبات في إلقاء المحاضرات في الجوامع حيناً، وفي الكليات حيناً آخر، وفي الجمعيات حيناً ثالثاً... فلم أكن أعتذر عن أي منها، معتقداً أنها الفرصة المناسبة لإيصال فكرنا وخطابنا إلى أسماع الناس وعقولهم ووجدانهم...

وكان يعلن عن ذلك بصيغة جداول دورية بأسماء المحاضرين، وأماكن محاضراتهم، ومواعيدها، لكي يكون المتابعون على بينة من الأمر... وكان الجمهور الذي يتابع محاضراتي كبيراً والحمد لله... حتى أنه لم يبق مكان في جامع، أو قاعة أو جمعية، للمزيد من الحضور... وكنت في أعقاب كل محاضرة أفتح باباً للأسئلة والحوار، الأمر الذي كان يزيد المحاضرات خصباً وعطاءً...

والحمد لله على أن وفقني لطرح العديد من القضايا التي تشغل العقل المسلم... حتى أنني خصصت محاضرتي يوماً للحديث عن الفن الإسلامي ودور الإخراج السينمائي في تقديم المطلوب والتأثير في المشاهدين... وفي مرات أخرى كانت اللقاءات تخصص لقراءات شعرية، أو للدخول في حوار مباشر بين المحاضر والجمهور...

ولقد تم الحديث في تلك المحاضرات عن قيام الدول والحضارات من منظور قرآني، وعن تدهورها وسقوطها من ذات المنظور... وعن أخطاء في حياتنا التعبدية، والسلوكية، والثقافية، والدعوية، والاجتماعية... عن القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث وفلسفة العلم... عن معجزة الفتح الإسلامي وأسبابها الحقيقية... عن شروط إعادة كتابة التاريخ... عن كيفية إعادة اشتغال العقل المسلم... عن الإيمان والتوحيد... عن اللحظات المؤثرة في حياة

الرسول ﷺ... وعن مجابهته الفريدة للإغراء... عن نماذج بشرية للشهداء، والقديسين في تاريخنا... عن منهج جديد في دراسة وتدريس (حضارة الإسلام) في جامعاتنا ومعاهدنا... عن منهج دراسة السيرة النبوية... الخ... الخ...

بل إنني توليت تخريج عدد من الدورات الدعوية للنخب الإسلامية، حيث كنت ألتقي بكل مجموعة منهم في يوم محدد من كل أسبوع لكي ألقي عليهم سلسلة من المحاضرات في الفقه الحضاري، يدور في أعقاب كل منها حوار خصب... ثم يتم الاتفاق في نهاية الأمر على موعد للامتحان، حيث كنت أجد المشاركين يبذلون جهداً مكافحاً من أجل التفوق والحصول على أعلى الدرجات...

وكنت أنا أعرب عن استعدادي للتعاون مع الجميع دونما تردد أو اعتذار... وألقي محاضراتي وأعقد الدورات التدريبية حيثما طلب مني ذلك، سواء من قبل طلبة الجامعات، أو النخب الدعوية، أو المعاهد والجمعيات... أو حتى التنظيمات السرّية للأحزاب الإسلامية التي كنت أتعاون معها... أشاركها المناقشات ووجهات النظر... وأحضر لقاءاتها دون أن أرتبط بها تنظيمياً بأي شكل من الأشكال.

والحمد لله، فلقد كان الجمهور الذي يتابعني، ويلاحق محاضراتي وندواتي، واسعاً عريضاً، الأمر الذي كان يدفعني دائماً إلى بذل المزيد من الجهد، وتقديم المزيد من الإبداع... وتجاوز الصيغ التقليدية المملة في الطرح... والبحث عن الموضوعات البكر التي لم يستهلكها الآخرون.

ورغم ذلك كله، فلم تنج السفينة من الغرق، كما يقول المثل، فقد كانت أعين الأمن والمخابرات مسلطة علينا، متابعة لما نلقيه من محاضرات ونعقده من دورات تدريسية، حتى أنهم بسبب إلحاحهم المكشوف في الملاحقة، دفعونا لإغلاق إحدى تلك الدورات التي كنت أتولى فيها تدريس السيرة النبوية وفق

منهج جديد لنخبة من علماء الموصل ومثقفيها في جامع الحامدين في محلة خزرج...

ومرة أخرى أغراني الحديث في جامع رشان في حي المثنى بتوجيه نقد مكشوف للسلطات الجائرة، فما كان من بعض الحضور بعد انتهاء المحاضرة إلا بأن راحوا يدعون لي بأن يحميني الله من غضبة السلطة التي كانت المحاضرة تمسها من قريب... وأن عليَّ أن أتهيأ لاستقبال رجال الأمن والمخابرات الذين قد يطرقون عليَّ الباب لأخذي واستجوابي.

وأذكر أنني دعيت في أواخر التسعينيات لإلقاء جملة من المحاضرات في مساجد بغداد، حيث كانت تكتظ بالحضور وتُتلقى بقبول حسن... وفي إحدى تلك المحاضرات تعمدت الجهات الأمنية، وقد هالها الجمهور الكبير، قطع الكهرباء عن الجامع، ووقفت لأكثر من ربع الساعة أنتظر وصله... دون جدوى... فقلت للجمهور إنني سأعتمد على صوتي المباشر وأرفعه بأقصى ما أستطيع لكي أوصله إليكم... وتم إلقاء المحاضرة بتلك الصيغة التي وصلت مسامع الحضور جميعاً والحمد لله.

بل لقد حدث ما هو أمرّ من ذلك كله، تلك الحملة المسعورة التي شنت ضد القيادات الإسلامية في الموصل في منتصف التسعينيات، وكلهم من إخوتي وأصدقائي، وساقتهم إلى الاعتقال والتعذيب في أقبية مديرية الأمن لأكثر من شهر، ربما بسبب الشكوك التي ساورت السلطة بخصوص وجود تنظيم سري للإخوان المسلمين، والذي قد تكون بعض خيوطه الرئيسية قد انكشفت في بغداد... وربما كان الأمر بمثابة حركة إعلامية موجهة إلى مراكز الغرب، أن الحملة الإيمانية في العراق لن تمضي إلى هدفها هكذا، وعلى غير هدى، وتترك حرية العمل للإسلاميين... وربما... ولكن المهم أن حملة الاعتقالات تلك كادت تطالنا نحن الإسلاميين من أساتذة جامعة الموصل، لولا أن تصدى لهم مسؤول الأمن الجامعي، وأقنعهم بأن لا علاقة لنا بأولئك الذين ألقي

القبض عليهم... ومهما يكن من أمر فما لبثت السلطات أن أفرجت عنهم وعادت الأمور سيرتها الأولى...

في هذه المرحلة من حياتي، أواخر الثمانينيات وعقد التسعينيات، كانت أوضاعي الصحية لا تسرّ أحداً من المحبين... بدأت عام (١٩٨٨م) بمتاعب في الجانب الأيمن من خاصرتي، وبعد مراجعات شتى عرض علي الدكتور الصديق دحام عبد الهادي ﷺ المختص بالتصوير في جهاز السونار، أن يلتقط لي عدداً من الصور، فإذا بها تكشف عن وجود ثلاث حصيات متوسطة الحجم في المرارة إحداها قريبة من قناة الصفراء، فيما يشكل خطورة بالغة لحظة تحركها عن موقعها ذاك.. عدت إلى البيت بائساً حزيناً، خشية أن ترغمني الحالة على مداخلة جراحية... ولم أنم ليلتي تلك وأنا أتذكر المداخلة الجراحية لاستئصال الغدة قبل ثلاث سنوات، وكيف أشرفت بي على الموت اختناقاً لولا عناية الله ﷻ، وأتذكر معاناتي القاسية مع انسداد النفس في أعقاب عملية استئصال الزائدة الدودية في حلب في صيف عام (١٩٧١م)، حيث لم أكن ولا الأطباء قد اكتشفوا الانسداد الكامل في صمام القلب...

ثم ما لبثت الأيام التالية أن عرضتني لتزايد ملحوظ في حالات الانسداد الكامل في النفس، حيث كنت أشب قائماً كالملدوغ بحثاً عن نقطة هواء واحدة أسد بها رمقي... وتزامن ذلك مع عدة حالات من الترنح والسقوط في الأماكن العامة... ولا زلت أذكر عدداً من تلك الحالات، حيث نقلني في إحداها الدكتور عمر الطالب إلى دار طبيب العائلة وأحد أقربائها، الأستاذ الدكتور طاهر الدباغ الذي أشار علي بأخذ أشعة في جهاز الإيكو لتبيّن الأسباب...

ومرةً أخرى وأنا أغادر جامع الأورفلي في شارع السعدون في بغداد، حيث ما لبثت أن وجدتني أتهاوى على الأرض، فإذا بشخص ينكب علي ويعينني على القيام، ويطمئنني بأنه طبيب وأنه بمقدوري أن أطلب منه ما أشاء، ولكني ما لبثت أن استعدت توازني وشكرت له صنيعه... ومرةً ثالثة وأنا أتحدث في

الهاتف، فإذا بي أتركه يسقط على الأرض وأسقط معه فيما أصاب العائلة بالرعب مما قد يتمخض عنه السقوط.

والمهم أني توجهت في اليوم التالي، وبناء على توصية من الدكتور طاهر الدباغ، إلى المستشفى العام والتقطت أكثر من صورة في جهاز الايكو حيث ما لبث أن تبين وجود انسداد تام في الصمام الإهليلي الأمر الذي يتطلب مداخلة جراحية عاجلة، وإلا ساءت العاقبة... ولكني تحسباً من النتائج المنذرة بالويل، ترددت طويلاً في اتخاذ قراري وأنا أتذكر مأساتي مع عمليتي الزائدة والغدة، ثم ما لبثت أن أحلت حسم الموضوع لحين عرض الأمر على أطباء لندن، حيث كنت مدعواً بعد أسابيع للمشاركة في ندوة المنهاجية التي سيقيمها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية. وهناك وبمعاونة الأخ والصديق الدكتور أنس صديق الشيخ علي، المستشار الأكاديمي لمكتب لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي... راجعت طبيباً مختصاً شخص الحالة، وأشار بضرورة إجراء القسطرة للتأكد من الأمر.

كنت متخوفاً من (القسطرة) وتصورتها مداخلة جراحية قد تسبب لي الويل... واحترقت علي ـ بسبب ذلك ـ أيام وجودي في إنكلترا، ورحلتي منها إلى باريس لحضور تصميم مناهج كلية الدراسات الإسلامية في شاتوشينون... ورغم أنني قدمت في الاثنتين جهداً مبدعاً أثار إعجاب الحضور... إلا أن ما كان يعتمل في داخلي من قلق وخوف، كان يؤرقني... حتى جاء ذلك اليوم الذي اتجهت فيه بمعية أخ من الجزائر إلى مستشفى كرومويل في لندن، حيث تبين لي أن القسطرة مسألة في غاية السهولة، انتهت بمخدر موضعي في أقل من نصف الساعة، حيث حملت إلى إحدى الغرف لمتابعتي هناك، ثم ما لبثت بمساعدة أخ من مصر، وبتوجيه من دكتور أنس، أن غادرت المستشفى مساء، سعيداً بخلاصي من هذا الهم الكبير الذي ركب على أكتافي الأسابيع الطوال...

ثم ما لبثت بعد عودتي إلى العراق في أواخر تموز عام (١٩٩٠م) أن دخلت مرحلة الحيرة بصدد المستشفى التي سأجري فيها مداخلتي الجراحية،

هل في داخل العراق أم في إحدى المستشفيات في الخارج... وأخيراً وبعد لأي قررت إجراءها في مستشفى ابن البيطار في بغداد، والمعروف بكوادره الإيرلندية من الأطباء والممرضين، وبعنايته الفائقة بالمرضى، فكأنه والحالة هذه مستشفى إنكليزي يعمل في لندن...

إلا أن المشكلة تمثلت في مسألة الحصول على الموافقات الصعبة لقبول إجراء مداخلتي فيه، حيث إنه كان مخصصاً بالدرجة الأولى لذوي الشأن من أرباب السلطة والمحيطين بهم، ولكنني بعد جملة من الوساطات المؤثرة، والمتابعات المتواصلة، قدرت على حجز موعد لي في العشرين من تشرين الأول عام (١٩٩٠م)، حيث كان العراقيون في صراع مع الزمن بسبب مجازفة اجتياح الجيش العراقي للكويت والتلويح بالحرب المؤكدة ضده.

وأجريت العملية على يد دكتور إيرلندي شاب يدعى (أريس) يتقد خبرة وكفاءة، واستغرقت الساعات الطوال، حيث استبدل صمامي المسدود بآخر معدني... ويبدو أنني ــ كالعادة ــ أفقت من تأثير المخدر، والمداخلة لا تزال قائمة... والأجهزة والأسلاك... وقلبي الذي أخرج عن موضعه... فما كان مني في لحظة نزف وضيق في النفس إلا أن ضربت بيدي هذه الأجهزة والأسلاك، فصرخ بي أحد الأطباء صرخة هائلة جفلت لها، ثم ما لبث أن حقنني بالمخدر مرةً أخرى.

فما لبثت أن أخذتني سنة من نوم عميق لم أستفق منه إلا بعد إنجاز العملية ونقلي إلى الغرفة المخصصة لي ولزوجتي... ولكن بعد ماذا؟ لقد أصبت خلال المداخلة بنزف حاد كاد يستنزف دمي كله... وراح الأطباء يتراكضون بحثاً عمن يعينهم على التبرع بالدم الذي يتوافق مع فصيلتي... ولحسن الحظ فقد تركت في جيب سترتي ورقة دونت فيها هواتف العديد من أصدقائي في بغداد، فجاؤوا يهرعون لكي يتبرعوا بدمائهم، وينقذونني بإرادة الله وحده من موت كاد أن يكون محققاً... فها هي المرة التاسعة أو العاشرة التي أتعرض فيها للموت، ولكن مشيئة الله وحده هي التي تنقذني من الهلاك.

قضيت أسبوعاً في مستشفى ابن البيطار عانيت فيه من المتاعب في المعدة والقفص الصدري الأمرّين، بسبب طبيعة الأدوية التي كنت أتجرعها ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، وبسبب من القص الذي تعرض له القفص الصدري خلال المداخلة الجراحية... وأذكر يوماً شكوت فيه حالي لزوجتي، بينما راحت الدموع تنساب من عيني... لماذا؟.. لأني سمعت أحد الممرضين، خلال إجراء المداخلة وضربي بيدي الأجهزة والأسلاك، يصرخ: إنهم عراقيون!! لقد آلمتني هذه الوخزة النفسية القاسية، وجعلت الدموع تطفر من عيني... دون أن أدري أن العراقيين سيتحولون بعد الاحتلال الأمريكي القذر لديارهم إلى وحوش كاسرة، يقتل بعضهم بعضاً ويذبح بعضهم بعضاً... فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...

عدنا بالطائرة إلى الموصل، حيث خرجت العشيرة كلها لاستقبالي في المطار، وأنا أصافحهم واحداً واحداً ولا أكاد أتبين أحداً منهم لشدة آلامي... واستقر بي الأمر في البيت حيث كنت أقضي ليالي الخريف المتطاولة ساهراً حتى الصباح... ولكني بفضل الله وحده ما لبثت أن بدأت أتماثل للشفاء... إلا أن متاعبي مع القلب وآلام القفص الصدري استمرت لأكثر من شهرين ثم راحت تزول شيئاً فشيئاً... والحمد لله...

ولا زلت أذكر جانباً من خبرتي أيام المداخلة الجراحية، والتي أكدت لي بأن القلب هو مركز الثقل في حياة الإنسان، بل حتى في تفكيره، وأنه بما ينطوي عليه من الكهربائية التي ركبها الله ﷻ في تكوينه المعجز، يملك الكثير الكثير من التأثير المباشر في سلوك الإنسان وتصاميمه الفكرية... حيث إنني في الأيام الأولى التي أعقبت المداخلة، كنت أجدني بين الحين والحين، أركب مقطورة صغيرة تنطلق بي بسرعة مدهشة إلى مديات بعيدة، وأنا مستسلم لها، لا أملك القدرة على إيقافها...

ولسوف يتأكد ذلك عبر مداخلة أخرى في القلب أجريتها في اسطنبول في خريف عام (٢٠١٠م) لوضع بطارية في صدري تعين القلب على العمل، بعد

الإعياء الشديد الذي أصابني... وذلك عندما كنت أرى رؤى يومية ما ألبث أن أقصها على زوجتي في اليوم التالي وكأنها أمر واقع مائة بالمائة... وأطلب منها أن تتابع المسائل التي أثارتها... وهي تحدّق في وجهي محدثة نفسها: ماذا يقول هذا الرجل؟ إنه واثق كل الثقة أنه اجتاز الرؤية وكأنها أمر واقع...

ثم ما لبثت أن سألت الطبيب المناوب، فأجابها: إنه القلب البشري الذي ينطوي على جملة هائلة من الأسرار والقدرات، التي تعتمد في انساقها على كهربائيته، فإذا تعرضت هذه الكهربائية لأي متغير فلسوف يتبعها الكثير من الأمور التي تخرج عن حدود المعقول!! إنه القلب حقاً، وكما يقول كتاب الله ﷻ: ﴿. . . فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]... وصدق الله العظيم...

في خريف عام (١٩٩٣م) وأنا أستقل الباص الذاهب بنا إلى عمان، لحضور المؤتمر الدولي الذي أقامته منظمة اليونسكو الإسلامية (الإيسسكو) حول مستقبل العالم الإسلامي، والذي دعيت للمشاركة فيه ببحث... أحسست بعد مغادرة مدينتي الموصل بساعة أو ساعتين بشيء من الدفء في جانب مثانتي، فمددت يدي لأتبين السبب فإذا بي أضعها على ما يشبه البيضة الصغيرة التي شقت الجلد وبرزت ظاهرة للعيان... فعرفت أنها الفتقة، وانتابتني الحيرة... هل أواصل رحلتي إلى المغرب وأنا أحمل هذا الهم الذي برز على حين غفلة؟ أم أقفل عائداً إلى الموصل لمعالجته قبل أن يستفحل الأمر، وقد يقودني إلى ما لا تحمد عقباه...

وكان إلى جواري زميل لي من تدريسيي كلية التربية التي أعمل فيها، وهو الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون صاحب التآليف المعروفة في التاريخ المغربي والأندلسي... فسألته وتداولت معه الأمر، ثم استقر الأمر على عرض نفسي على أقرب مستشفى سيمرّ بها الباص...

وكان أن توقف قليلاً في مدينة الرمادي قاعدة محافظة الأنبار، فيممت وجهي صوب طبيب الخفر وعرضت عليه حالتي، فطمأنني أن بمقدوري أن

أذهب إلى المغرب بل أن أؤجل المداخلة الجراحية لزمن قد يطول بسبب صغر حجم الفتقة، لحين أن يبلغ الحدّ الذي يمكن الأطباء من استئصاله... فشكرته وأنا أحس بسعادة غامرة على اجتيازي حالة الحيرة المريرة...

ولما عدت من المغرب لم أشأ أن أزعج الأهل بإعلامهم بالموضوع، وظللت على مدى سنتين أعاني من آلام الفتق المتمثلة باندفاعه المفاجئ إلى الخارج، وضرورة أن أتمدّد على السرير وأعالج إعادته إلى موضعه بعد أن أكون قد تجرعت آلام يصعب وصفها... ورغم أنني اشتريت حزاماً طبياً لضبط الفتق، إلا أنه كان يندلق بين الحين والحين فأضطر لمعالجته بيدي...

ثم ما لبثت في خريف عام (١٩٩٥م)، وبعد مراجعة جملة من الأطباء، أن كشفت الأمر لزوجتي واتفقت مع الجراح الأشهر في الموصل، الدكتور قيس الوتار، الذي سبق وأن تولى أمر إجراء المداخلة الجراحية للغدة قبل عشر سنوات، على موعد إجراء المداخلة الجديدة... في مستشفى الزهراوي الأهلي في الموصل، حيث كنت قد جئت معي من الأردن بخيوط العملية الأصلية التي لم تكن متوفرة في العراق بسبب الحصار... وحيث أجريت العملية بيسر بالغ، إذ ما لبثت أن أفقت من تأثير المخدر دون أي إحساس من ضيق في النفس أو الاختناق كذلك الذي أحسست به لدى عمليتي الزائدة والغدة.. ذلك إنني كنت قد أزلت السبب الرئيسي: انسداد الصمام، فاستقامت أنفاسي... ولقد تملكني الفرح وأنا آخذ الهواء الطلق، وأشعر أنني قد اجتزت مداخلة حملت همها لمدة عامين، وأنني أكاد أحلّق في السماء السابعة بحمد الله... حتى أن زوجتي حذرتني من إبداء فرحي الزائد أمام الزائرين خوفاً عليّ من الحسد الذي لا تحمد عقباه... فيا سبحان الله!...

لكن هل كفّت الآلام الجسدية والأوجاع عني؟ أبداً... فها أنا ذا طيلة التسعينيات وبشكل يكاد يكون مزمناً أعاني من آلام الساقين والأفخاذ تلك التي لا تهدأ إلا بأن أنادي على من يتولى ضربها بقوة بقبضة يديه، أو الوقوف عليها وهرسها من أجل أن تكفّ أوجاعها... وأرتاح... ومن متاعب مفاصل

الركبتين التي كانت تعطلني عن ممارسة رياضتي اليومية الملزمة من المشي لمدة نصف ساعة وفق نصائح الدكتور الإيرلندي (أريس) في مستشفى ابن البيطار، وكذلك عن أداء صلواتي في المسجد... ومن متاعب جلدية دائمة في ظاهر القدمين والكفين والرسغين... بحيث إنني راجعت أكثر من طبيب مختص، وتناولت العديد من المراهم دون جدوى... هذا إلى متاعبي الدورية مع الكلية والمجاري البولية... والانزلاق الغضروفي الذي كان يزورني ــ لحسن الحظ ــ على تباعد في الزمن...

هذا إلى متاعبي المتواصلة مع الأسنان، ومراجعاتي شبه اليومية، للعديد من أطبائها، حيث انضاف إليها ــ ربما بسبب ما آخذه يومياً من الوارفارين المميّع للدم ــ متاعب متواصلة في اللثة وظهور انتفاخات فيها، حتى أنها جذبت اهتمام طبيب الأسنان المتألق الدكتور عبد الخالق عبدال، فقرر أن يكتب عنها بحثاً للترقية العلمية (!!) وكنت أراجعه بين الحين والحين لكي يضغط عليها ويعيد اللثة إلى وضعها الطبيعي. هذا إلى ما كنت أعانيه من انتشار البقع البيضاء في فمي ولثتي ولساني والتي كانت تحيل عملية تناول الطعام إلى عذاب دائم...

وثمة تلك التجربة المريرة مع نزيف المثانة... حيث كانت الطائرة قد حطت بي في آخر عام (١٩٩٥م) في مطار صنعاء، لكي يستقبلني هناك أحد موظفي العلاقات العامة لكلية آداب جامعة صنعاء، حيث دعيت لإلقاء جملة محاضرات فيها، ويوصلني بسيارته إلى فندق (حدّة) الأنيق الواقع عند مشارف المدينة... وكنت في الليلة السابقة تماماً قد دعيت بواسطة الأخ الدكتور فتحي الملكاوي، المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمان، إلى وجبة عشاء من الدجاج المشوي المليء بالتوابل الحادة... وحيث تناولت كمية كبيرة منه دون أن أحسب حساباً لما قد يتمخض عن ذلك من متاعب...

فإذا بي وأنا أصل فندق حدة في اليوم التالي، وأستيقظ ليلاً للذهاب إلى التواليت أجدني قبالة حوض الإدرار وقد أغرق بالدم القاني، فتملكني الرعب

من استمرار النزيف الذي طالما عذبني في الموصل لدى تدفقه من الأنف بغزارة بين الحين والحين... وقلت في نفسي: إلى أين أذهب في هذا الليل العميق... إنه الإشراف على الموت نزفاً... لا محالة... وما لبثت أن دعوت الله ﷻ أن ينزل علي رحمته، فيوقف هذا النزيف... ثم وضعت رأسي على الوسادة وأخذتني سنة من نوم عميق، فلما استيقظت صباحاً وذهبت إلى التواليت إذا بالإدرار يعود إلى وضعه الطبيعي، فحمدت الله ﷻ... لقد كانت فرحة بالنجاة يصعب وصفها...

ولكن الذي حدث بعد هذا، ولم أكتشف سببه إلا بعد أيام طويلة، أنني كنت أتقلب على السرير طيلة الليل في محاولة لاستدعاء النوم ولا من جدوى... كان ضيق النفس يطبق الخناق عليّ ولا يدعني أنام حتى مطلع الفجر... ثم ما لبث أن تبيّن لي أن سبب هذه الحالة هو الارتفاع الكبير لمدينة صنعاء عن مستوى سطح البحر، حيث يقل الأوكسجين وتلتقط الأنفاس بصعوبة بالغة... والأنكى من هذا أنني كنت أكافح مستميتاً لجلب الهواء إلى رئتي من أجل تمكيني من مواصلة إلقاء محاضراتي في العديد من المعاهد اليمنية والكليات... فكنت أنهي المحاضرة وقد تحوّلت إلى ركام!! حتى أنه عندما تلقيت دعوة من جامعة الإيمان التي يشرف عليها الأخ الداعية الشيخ الزنداني، بعد سنتين من عودتي، اعتذرت بسبب ما قد يسببه لي وجودي في صنعاء من مخاطر ومنغصات...

وثمة أخيراً وفي عام (٢٠٠٠م) يكتشف طبيب القلب المعالج في المستشفى الإسلامي في عمان، وأنا في طريقي إلى الإمارات التي تعاقدت للعمل التدريسي في إحدى كلّياتها... تعرّضي قبل أيام لجلطة في ساقي الأيسر ربما بسبب الضغوط النفسية والجسدية التي قاسيت أهوالها في أواخر التسعينيات... ولكن الله سلّم...

ولقد دفعني هذا عبر بدايات العقد الجديد إلى تنغيص حياتي الجديدة في الإمارات من خلال مراجعاتي شبه اليومية لجملة من الأطباء والمستشفيات

الحكومية والأهلية... وهدر ساعات متطاولة من الزمن، وإنفاق مبالغ أسطورية من المال... ثم متابعة الأمر في مستشفيات باريس وأطبائها... ولما تبين لي أن ليس ثمة ما يقلق توقفت عن الملاحقات التي كادت أن تأتي على أعصابي.

وثمة النجاة، بإرادة الله وحده، من عدة حوادث تصادم لسيارتنا، كادت تأتي عليّ وعلى أسرتي وتستأصلنا من الوجود... لولا أن الله ﷻ كان يحيطنا في كل مرة بكرمه وعنايته التي لا حدود لها... جلّ في علاه... فنحن مدينون له بكل دقيقة مضافة إلى حياتنا... وإلا فهو الهلاك المحتوم!!

والحديث عن مجابهة الموت يقودني إلى تذكر تلك الأعوام السوداء من الكوارث المتلاحقة التي حلّت بنا، حيث أنه، عبر ثلاث سنوات فحسب (١٩٩٥ ـ ١٩٩٧م) اختطف الموت أبي، وأخي، وأمي، واحداً بعد الآخر...

ولم يكن أبي قد تجاوز من العمر الثمانين عاماً إلا قليلاً... وكان قبل إلحاح المتاعب المرضية عليه... يملك من الصحة والعافية ما يجعله وهو يجتاز الدروب والأسواق مشياً، يُتعب من يسير معه... بسبب من سرعته وحيويته... وظلت البشاشة تغمر وجهه... ومداعبات المعارف والأصدقاء معلقة على لسانه... كان ـ بإيجاز شديد ـ يملك حتى لحظات وفاته حضوراً اجتماعياً مدهشاً.. وكان يسعدني أن أذهب ظهيرة كل يوم لكي آخذه من محلّه في باب السراي، بسيارتي إلى البيت، وأن ألبي طلباته في اختيار الكتب المناسبة من مؤلفاتي لكي يطالعها في السوق... كان، رغم أنه لم يتجاوز في دراسته الصف الثاني الابتدائي، قارئاً من طراز أوّل... وكان يعلق على الكثير مما كان يقرؤه... فما يزيدني ذلك إلا سعادة وامتناناً...

ولكن ما ظل يؤلمني، ويوخز ضميري، ويعذبني، حتى اللحظات التي أكتب فيها هذه الكلمات... أنني لم أعبّر عن محبتي له واعتزازي به وفق السقف الأعلى، حيث تقبيل اليدين في كل لقاء... بل إذا اقتضى الأمر الانكباب لتقبيل قدميه!! فببركته وحده، وبتربيته المرنة والمتوازنة، قدر على أن يربي أبناءه فيما جعلهم يكسبون محبة الناس جميعاً، وهي أقصى ما يطمح إليه الإنسان...

ذلك أن محبة الناس، هي من محبة الله جلّ في علاه... فهل يطمح الإنسان إلى أكثر من هذا؟!

في لحظات وفاته الأخيرة، في تشرين الأول من عام (١٩٩٥م)، ركبت سيارتي أنا وأخي الأصغر نبيل ﷺ للإتيان بالطبيب الدكتور محمد جميل الحبال الذي ما لبث بعد أن ألقى نظرة عليه أن قال: لقد قضي الأمر... وإنا لله وإنا إليه راجعون... وفي صبيحة اليوم التالي شيعناه إلى مثواه الأخير، وأقمنا له مجلس عزاء في إحدى قاعات المناسبات التي اكتظت بالمعزّين... فمن من أبناء هذه المدينة الوفية لا يعرف من هو (خليل الحاج عمر) عليه رحمة الله؟!

في شباط من العام التالي، وفي اليوم الثالث من عيد الفطر المبارك، ظهراً، غادرت مسجد الحي في الطيران المسمى بجامع الملاح، فإذا بي ألتقي بأخي نبيل يقف على عتبته، وهو يعطي وعداً لأحد الأصدقاء أو الطلبة، ببذل مساعيه في مساعدته... وما كنت أعرف أن هذا اللقاء هو الأخير في حياة أخي نبيل، إذ غادرته متجهاً إلى بيت عمي لتناول الغداء، بينما قفل هو عائداً إلى بيت الأهل... كان قد خرج للتو من شهر من المتاعب الصحية مع ما سمي يومها الأنفلونزا الروسية التي غزت الموصل، وكانت آثار الضعف العام والإعياء بادية على وجهه... لكن الحمى كانت قد فارقته إلى غير رجعة، وبدأ يستعيد شيئاً من عافيته... بعد أن أنجزت تناول غدائي، تقدمت مني زوجتي وهي تحبس دمعتين معلقتين على أهدابها وقالت لي بصوت متقطع: أنت مؤمن يا عماد... وأقدار الله إذا نزلت فلا رادّ لها وتلك هي مشيئته... فانتفضت قائماً وقلت لها: ماذا؟ ومن الذي مات؟ فقالت: أخوك... نبيل!!

غامت الدنيا في عيني، ورحت أدور مع نفسي وأنا أردد لا حول ولا قوة إلا بالله... وأخذت الدموع الهادئة تنساب من عيني... ثم ما لبثت أن تركت الدار وهرعت إلى بيت أهلي لإلقاء نظرة الوداع الأخير على أخي، وصديقي، وذراعي الأيمن، وسمعي، وبصري... وكنت وأنا أجتاز المسافة القصيرة بين البيتين

أضغط على قلبي خشية أن يقفز من صدري فلا يرجع إليه... كنت كمن يدوس عليه بنعليه كي يسكت صرخاته المكتومة، وأنا أدور مع نفسي بصوت مذبوح: من لي بعدك يا أخي، ويا صنو عمري، من ألجأ إليه في اللحظات التي يشتد فيها الكرب، فتخفف عني ببشاشتك التي أخذتها عن والدي، وبكلماتك التي كانت تخرج عن قلب صادق الإيمان لم يعرف يوماً خروجاً عن جادة الحق أو انحرافاً عن الصراط؟!

رفعت الغطاء عن وجهه وقبّلته في جبينه، وأنا أردد: عليك رحمة الله... عليك رحمة الله... عليك رحمة الله... أيها الأخ والصديق... وإنا لله وإنا إليه راجعون...

ولم تشهد مجالس العزاء في الموصل، حتى ذلك اليوم، ما شهده مجلس عزاء أخي نبيل الذي أقيم في قاعة جامع العراقي في الجانب الأيسر، من زحمة واكتظاظ... جاؤوه من كل مكان: من الموصل، وكركوك، وأربيل، وبغداد، حتى أن الكثيرين من المعزين كانوا يدورون بحثاً عن مكان يجلسون فيه فلا يجدوه... فما يلبثون أن يقفوا في الصف الطويل، وينتظرون لكي يجيئهم الدور فيؤدون مراسم العزاء وينصرفون...

ولا تسألوا عن وضعية أمي وزوجته... أما أولاهما، فقد أصابتها صدمة الموت المفاجئ بنوع من الذهول فلم تعد تتكلم إلا قليلاً... إذ كان نبيل بعد وفاة أبي يعني كل شيء... وأما ثانيتهما فكنا نسمعها وهي تبكي وتقول: إنه قد أوحشها... والله إنه قد أوحشها... فيا للأحزان عندما تنصبّ انصباباً على الإنسان... فلولا نعمة الإيمان بالله ﷻ والتسليم لأقداره... لذهب الناس في أعقاب كل ضربة مؤلمة شتاتاً وبدداً...

ولد أخي نبيل في الموصل عام (١٩٤٨م) وحصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية من جامعة الموصل، والماجستير في علوم الحاسبات عام (١٩٧٦م) من جامعة برادفورد في إنكلترا. ألّف وترجم عدداً من الكتب في مجال تخصصه، وحصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام

(١٩٨٣م). وتولى تأسيس مركز الحاسبة الالكترونية في جامعة الموصل بمعية الدكتور محمد زكي محمد خضر... كما عهد إليه برئاسة قسم علوم الحاسبات في كلية علوم جامعة الموصل حتى وفاته...

تخرّج على يديه جيل من المختصين بعلوم الحاسبات الذين ظلوا يذكرون أسلوبه العالي في التعامل معهم، وإدارته المتميزة للقسم... وكان يملك قدرة أدبية متميزة بسبب كثرة مطالعاته التي تعلمها مني وراح يسابقني في التهام الكتب، ولقد انعكست تلك القدرة في لغته التي تتميز بالأناقة والجمال، والتي كان يكتب بها ويترجم البحوث والمؤلفات العلمية، فضلاً عن كتابة القصص القصيرة والمقالات التي نشرت في الصحف والمجلات العربية والإسلامية...

في عام (١٩٩٢م)، وفي ذكرى اليوبيل الفضي لتأسيس جامعة الموصل، ألقى محاضرة رائعة عن فيروس الحاسبات، شدت بأسلوبها المؤثر الجميل أنظار الحاضرين... ثم ما لبث أن ختم محاضرته مخاطباً جمهور الحضور من الأساتذة والطلاب بعبارة (عقبال اليوبيل الماسي...) فكأنه يذكرهم أنهم جميعاً يكونون قد غادروا هذه الدنيا الفانية يومذاك... فعليهم أن يكفوا عن اللهاث وراء إغراءاتها الكاذبة ووعودها المخادعة... وما لبث هو بعد أربع سنوات من كلمته تلك أن فارق الدنيا بالسكتة الدماغية... يرحمه الله...

وبسبب من ذلك الخزين والمفجع من الأحزان... انهالت الآلام والأوجاع على أمي... فلم تعد تستطيع تحمّلها، وأصابتها بمقتل في قلبها، فنقلت إلى جناح العناية المركزة في المستشفى العام... ورحنا نتابع جهاز القياس الذي علق قريباً منها لمتابعة حركة القلب، فكان يرتفع على حين غفلة وبشكل فجائي، ثم ما يلبث أن ينزل إلى قريب من نقطة الصفر... ولم ترحم هي نفسها وتلتزم الصمت والهدوء... رغم إلحاحنا عليها وتوسّلنا بها... إنها كانت ـ كأبي تماماً ـ تهش وتبش لكل زائر وتملك حضوراً اجتماعياً ملحوظاً، فلا تكفّ عن المجاملات وتبادل الأحاديث والنكات رغم ما كانت تعانيه من مخاطر وآلام.

وكان لا بدّ مما ليس منه بدّ... ففي أحد أيام نيسان (١٩٩٧م)، بعد عام واحد من وفاة ابنها الغالي نبيل أطلقت كلماتها الأخيرة معربة فيها عن رضاها عنا نحن أولادها... ثم ما لبثت أن أسلمت الروح... عليك رحمة الله أيتها الأم الغالية التي بغيابها تنطفئ الشمس، ويفقد القمر قدرته على إضاءة الليالي المعتمة السوداء... ويظل من تبقى من ذريتها يعيشون... نعم... يمارسون طقوس الحياة اليومية... بكل تأكيد... ولكن أين هو اللون.. والطعم... والرائحة؟!

في ذلك العقد الرمادي من حياتي ابتُليت بجملة من المتاعب التي كان عليّ أن أنفذها وأستجيب لمطالبها، المبهظة والقاسية... كانت أولاها عرض من المنظمة العالمية لليونسكو عام (١٩٩٣م) بكتابة بحث عن سيرة رسول الله ﷺ، لغرض نشره في الموسوعة التي اعتزمت المنظمة إصدارها... وافقت على العرض بعد تردد، وبعد استشارة العديد من الأصدقاء وزملاء القسم الذين أشاروا عليّ بالموافقة... ثم إنني أردت بموافقتي هذه أن أختبر مصداقية ما يقال عن التوجه المشبوه لهذه المنظمة المرتبطة بالأمم المتحدة التي يسوسها ويهيمن عليها اليهود بنسبة غالبة...

وبدأت العمل والكتابة والطبع والمراسلات المتواصلة عبر جهاز (التلكس) حيث لم تكن أجهزة التواصل الالكتروني السريع قد دخلت حيز العمل في العراق... ولقيت بسبب ذلك الكثير من المتاعب، ولكني وقد أنجزت المطلوب، ما لبثت أن تلقيت رسالة من القائمين على المشروع، وأحدهم أستاذ باكستاني، يطلبون مني إلغاء كل ما يتعلق بالهجوم على موقف اليهود من رسول الله ﷺ ودعوته ودولته... فقلت في نفسي: ها هو ذا المطلوب الذي كنت أنتظره وما لبثت أن بعثت إليهم برسالة جوابية قلت فيها: إن هذا الموقف في تزييف التاريخ، وإلغاء حلقاته الأساسية تزلفاً للصهيونية؛ عمل لا علمي ولا أخلاقي، وإنني أرفضه أشد الرفض، ولذا أرجو سحب بحثي وعدم نشر أية مساحة منه على الإطلاق...

ويبدو أن القائمين على المشروع تلقوا من خلال جوابي هذا صفعة قاسية، فلم يردوا عليه... بينما استمروا ـ على الأغلب ـ في البحث عن المؤرخين الطيعين الذين لا تهمهم الحقائق الدينية والتاريخية، بل الكسب المادي والمعنوي الذي يتهافتون عليه كالذباب...

وأما ثانية هذه المتاعب، فكانت العرض الذي تقدم به الأخ والزميل الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس ﵀، من مصر، بالمشاركة في كتابة جملة مواد تاريخية لموسوعة التاريخ الإسلامي التي ينوي إصدارها جماعة من المعنيين بالهمّ التاريخي. وقد ترك لي الباب مفتوحاً في أن أختار المواد التي أشاء لكي أكتب فيها... فما كان مني إلا أن أشمّر عن ساعد الجد، وأقضي الأسابيع والأشهر الطوال، في إنجاز أكثر من عشرين مادة تاريخية للموسوعة المذكورة التي يبدو أنه لم يقدّر لها الصدور بسبب العوائق المالية... وكان حصيلة جهدي هذا كله لا تتجاوز الألف دولار إلا قليلاً...

وأما ثالثة المتاعب وأشدها قسوة، فهي عرض من أخ مهندس يشرف على مكتب للطباعة في أواخر التسعينيات بتنزيل مؤلفاتي كافة على الأقراص الليزرية (الدسكات) من أجل عرضها على الناس، وتيسير أمر نشرها لدى مكاتب النشر منقحة، تخلو من الأخطاء...

ولقد أغراني العرض، ورأيته ضرورياً في زمن الانتقال إلى التقنيات الإلكترونية الحديثة... فشمرت عن ساعد الجد، وبدأت بتقديم كتبي المطبوعة، بعد قراءتها وتنقيحها، لغرض إعادة طباعتها من أجل تنزيلها على الأقراص... وكان علي أن أتابع أعمال الطباعين الثلاثة الذين بدؤوا العمل... كلمة كلمة وحرفاً حرفاً... من أجل تقديم النص المكتوب خالياً من الأخطاء.

ولكم أن تتصوروا حجم الجهد الهائل الذي بذلته وأنا أتعامل مع ما يزيد على السبعين كتاباً مطبوعاً، أو لا يزال بخط اليد، بقراءتها مرتين قبل تنزيلها على الأقراص والاحتفاظ بها في جهاز الآلات الحاسبة... لقد كنت أعمل ليل نهار من أجل إنجاز المهمة قبل أن يحلّ موعد سفري إلى الإمارات عام

(٢٠٠٠م)، حيث وقّعت عقداً على التدريس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي.

وأخيراً، وبعد كفاح متواصل أنجزت المهمة، ولكن بعد أن تركتني ركاماً... إلا أنها والحق يقال كانت من ضرورات العمل التأليفي، حيث لم يعد الناشرون يقبلون بالكتب المقدمة إليهم بخط اليد، أو حتى بالآلة الطابعة، ولا بدّ من تقديمها في أقراص جاهزة تيسر عليهم سبل الإخراج الخالي ــ قدر الإمكان ــ من الأخطاء.

وثمة طلب وصلني من الأخ الدكتور عميد الكلية الأوربية في شاتون شينون بفرنسا، يطلب فيه منظومة تساجيلي الصوتية عن الفقه الحضاري والتاريخ الإسلامي... فقمت بعد جهد يصعب وصفه، بإيجاد السبيل وإيصال المجموعة إليه.

وكانت المهمة الرابعة، ملابسة في ضريبة الدخل، حيث اكتشف الموظف بأن ابني يعمل في محل لبيع المواد الكهربائية... فضرب يده على المنضدة قائلاً: لا بدّ من تسجيل المحل في قوائم المديرية لحساب ضريبة الدخل المترتبة عليه، وإلزامه بدفعها سنة بعد أخرى، وكأنه كان يلمح من وراء عصبيته المصطنعة بضرورة رشوته بدفع مبلغ نقدي إليه لكي يغطي على الموضوع...

ولقد نصحني العديد من المعنيين بأن أستجيب لطلبه خشية أن ينفتح الباب على ابني محمد، وقال أحدهم مبرراً قولته تلك: (إنها القاعدة الفقهية بالدفع بأهون الضررين) لكنني لم أرتح لهذا العرض، وقررت أن أتولى بنفسي تغطية الضريبة السنوية المترتبة على تسجيل محل ابني في مديرية الطابو... بدلاً من الدخول في التواءات التعامل الذي لا يرى للمطالب الشرعية إلّاً ولا التزاماً...

أما المهمة الخامسة، فكانت بناء مخزن في السطح المكشوف لدارنا في محلة الطيران... بعد أن اشتدت علينا زحمة الأغراض التي راحت تتزايد يوماً

بعد يوم بصيغة متواليات هندسية وليست حسابية، حتى لم يعد ثمة مكان في البيت لاستيعابها... ورغم أنني كنت قد حذرت من هذه الحالة في كتابي (**فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر**)، حيث الإعلان الذي يغري بشراء الأشياء، وحيث المقاومة في البداية، ثم الانهيار أخيراً أمام إغراءات الإعلان وتكديس الأشياء المشتراة بحيث إنها أصبحت تمثل ـ كما يقول يوجين يونسكو أحد روّاد المسرح الطليعي ـ جداراً يمنع التواصل بين الناس، بل بين الأخ وأخيه والزوج وزوجته.

ومع ذلك فقد انسقت أنا كذلك، ورحت أشتري وأشتري، حتى ضج البيت من كثرة المشتريات... وها أنا ذا ملزم ببناء مخزن لوضع الأثاث المتكدس فيه... ولقد أخطأت باستجابتي لعرض المقاول الذي اخترته للإشراف على المهمة، بتسقيفه بطبقات الاسبست بدلاً من الصبة الكونكريتية التي تستغرق جهداً ووقتاً ومالاً... فلما تم العمل أحسست بأنني أخطأت باستجابتي تلك بسبب تسريب السقف لمياه الأمطار، فضلاً عن عدم حجبه المؤثرات المناخية حيث يتحول المخزن في الصيف إلى جحيم لا يطاق، وفي الشتاء إلى ثلاجة قاسية في برودتها... هذا إلى تسببه للحالات السرطانية بمرور الوقت، عندما تضعف مقاومته ويبدأ بنث شعيراته في الأجواء... ولقد عانينا لأكثر من عشر سنوات من متاعب هذا المخزن الكسيح، ثم شمرنا عن ساعد الجد، وأعدنا بناءه بالطريقة السليمة حيث تحوّل إلى غرفتين رائعتين للنوم والجلوس!!

وأخيراً كان عليّ أن أتابع متاعبي مع زوجتي، والتي تطلبت إجراء مداخلتين جراحيتين لها في عامي (١٩٩٥ و١٩٩٩م)، في الموصل وبغداد بعد قلق وتردد، وقد نجحت كلتا العمليتين اثر متابعات وجهود مضنية... بحمد الله...

والآن، هل تركت لي هذه المرحلة القاسية من حياتي في أواخر الثمانينيات وطيلة عقد التسعينيات هامشاً للمتع، والملذات المباحة... والاسترخاء... بعيداً عن مساحات القلق، والجهد المتواصل، والأحزان؟!

نعم وبكل تأكيد، فتلك هي دراما الحياة، وسنة الله في خلقه، وهو القائل جلّ في علاه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. فها هو ذا اليسر الذي يحيط بالعسر من طرفيه، ويمنح الإنسان الفرص المفتوحة لالتقاط الأنفاس! فيما يذكرني بمقولة أحد الشعراء الذي شبه الحياة الدنيا بالعرس الذي أقيم على جوانب مأتم!!

فلقد سعدنا بتخرج ابني محمد، وحصوله على البكالوريوس في علوم الكيمياء من جامعة الموصل، رغم أنه لم يشأ أن يرتبط بالعمل الوظيفي تدريساً أو إدارة... واختار العمل الحرّ ببيع المواد الكهربائية... ثم ما لبث بعد سنتين من تخرجه أن عثر على ابنة الحلال حيث تم زواجه بها في (ربيع عام ١٩٩٨م)...

ولحسن الحظ فلقد كانت زوجته هذه نموذجاً نادراً في الدين والخلق وحسن التعامل، بحيث أنها كسبت محبة جميع من تعرّف عليها، هذا فضلاً عن عشقها للعمل في البيت، بكل تفاصيله، حتى أننا كنا ننصحها بأن تعطي لنفسها دقائق من الاسترخاء والراحة دون أن تستجيب لطلبنا...

فالزواج كما هو معروف، حظوظ وأقدار، ولا يستطيع المرء أن يدخل في نفسية المرأة، وأخلاقيتها، وذوقها، وعاداتها، مسبقاً... ذلك كله مما سينكشف عنه مستقبل الزواج، فإما التوافق، والسعادة والانسجام... وإما البلاء الأسود وأعوذ بالله... ولقد كانت الأولى... بفضل الله... وكنت سعيداً وأنا آخذ لهم بسيارتي وجبات الغداء الشهية من المشويات إلى الفندق الذي نزلا فيه لقضاء بضعة أيام قبل عودتهما للاستقرار في الدار.

وبعد ذلك بأسبوع أو أسبوعين، حان موعد مغادرتي الموصل لأداء مراسم الحج مع ثلة من الأساتذة الجامعيين، وبعد سنوات من المحاولات اليائسة للحصول على الموافقة... وها هي قد جاءت، فأسرعنا باستكمال الأمور الإجرائية المعقدة والصعبة... ثم أعلن عن موعد انطلاق الحافلات عبر

الطريق البري إلى الحرمين الشريفين، حيث لم يكن السفر جواً قد استؤنف في العراق...

ورغم ما قاسيناه من متاعب عبر ستة أيام، ونحن نبيت في العراء، ورغم سوء المبيت والخدمات والإشكاليات التي صادفتنا عبر الطريق، وخلال الحج، بسبب التصرفات المعوجة لبعض الراكبين معنا، إلا أننا كنا نقول في أنفسنا إن الأجر على قدر المشقة والحمد لله... (ولقد تحدثت بالتفصيل عن رحلتنا تلك إلى الحج في كتابي: من أدب الرحلات، فيمكن الرجوع إليه).

وثمة مفارقات عديدة شهدتها تلك الأيام الرائعة على ما انطوت عليه من متاعب، لا زلت أذكر إحداها وهي أنني والأخ الأستاذ الدكتور موفق شندالة ﵀ قررنا بعد الانتهاء من موسم الحج إطلاق لحانا التزاماً بسنة رسول الله ﷺ... ولكن كيف أطلقناها؟

في اليوم التالي مرّ بنا مرشد قافلتنا الديني الشيخ الصديق الدكتور فيضي الفيض ﵀، الذي سيقدر له أن يكون أول الشهداء الذين ستقدمهم مدينة الموصل، برصاص الموساد الإسرائيلي، بعد الاحتلال البغيض... نظر الرجل إليّ وإلى زميلي، وكان يحيط بنا مجموعة من الحجاج، وكتم ضحكة كادت تخرج من فيه صارخة مدوية... ثم ما لبث أن أعاد النظر في وجهينا مرةً أخرى وهو ـ على جلالة قدره ـ يحاول أن يكتم ضحكه...

ولقد أثار موقفه هذا دهشتي، فتجرأت عليه قائلاً: ما الذي يضحكك يا شيخ؟ فما كان منه وهو يهتز لكتمان ضحكه إلا أن أشار إلى لحيتي ولحية زميلي... فقلت له مرة أخرى: يا شيخ... يا طويل العمر... ما الذي يضحكك؟ أهكذا نحن ـ على جلالة قدرنا ـ أصبحنا مضحكة للرائح والغادي؟

فما كان منه إلا أن يعيد إشارته السابقة إلى لحيتي ولحية زميلي... فهرعنا إلى المرآة وإذا بنا نفاجأ بما لم يكن في الحسبان... إننا قد أطلنا لحانا... هذا صحيح... وبكل تأكيد، ولا يشكك في مصداقيته أحد كائناً من كان. ولكن كيف... لقد جعلنا موسى الحلاقة تقشط كل الشعر الذي يتجاوز

الحنك إلى الأسفل وأبقينا اللحية معلقة على القسم العلوي كافة كالسكين، بحيث أنك إذا مررت بأصابعك عليها، عرضت الأصابع للقطع...

وحينذاك عرفنا سرّ ضحكة الشيخ... وتعلمنا أيضاً كيف نجعل لحانا تنسبل في أماكنها المعروفة لدى كل الناس قاصيهم ودانيهم... ولكني عدت إلى الشيخ مداعباً وقلت له: يا شيخ... يا طويل العمر... أما كان أجدر بك وبجلالة قدرك، أن تسحبنا جانباً وتنبهنا إلى هذا الشيء الذي فعلناه، بدلاً من أن تجعلنا مضحكة للناس...

فما كان منه إلا أن ينكب علي ويقبلني بمودة واعتزاز... لقد دخل الرجل قلبي منذ أن تعرفت عليه قبل سنوات... وها هو ذا بجده المعروف، والممتزج ببشاشة وجهه يضيف إلى حلقات حجنا تلك إحدى طرفه الفريدة!! عليه رحمة الله...

كانت لديّ في أربيل قطعة أرض منحتها الدولة للتدريسيين الجامعيين في حي زانكو الجامعي، وتاقت نفسي للتبرع بها لبناء مسجد عليها في ذلك الحي، واتصلت بصديق لي في أربيل هو الأخ محمد رشدي عبيد، رئيس تحرير مجلة (الإيمان) الإسلامية، أعرض عليه أن يسعى في الموضوع، وأن يجد من يتولى بناء المسجد عليها... لكنه بعد متابعة الأمر أعلمني بأن هناك مسجد قريب من الأرض، وأن علي أن أصرف النظر عن الموضوع، فتركته على مضض.

ثم ما لبث أن اتصل بي يعرض علي بيع الأرض لاثنين من أعضاء الاتحاد الإسلامي في أربيل، فارتحت للفكرة، وتم البيع بعد جملة طويلة من المتابعات والرحلات المتواصلة إلى أربيل، وقمت بالتبرع بنصف المردود لإسناد المجلة المذكورة، طالباً من الأخ محمد رشدي أن يؤمم المبلغ لترجمة بعض الكتب الإسلامية إلى الكردية من أجل إيصال الخطاب الإسلامي إلى العقل الكردي، ولكنه أصرّ على الإفادة منه في دعم مجلة (الإيمان) التي تصدر باللغة العربية.

وثمة الدعوات العديدة التي انهالت علي من خارج العراق، فاستجبت

لبعضها، واعتذرت عن معظمها بسبب المتاعب الإجرائية التي يصعب وصفها، والتي ترافق كل رحلة إلى الخارج...

كانت أولى تلك الرحلات ـ عبر المرحلة الزمنية التي أتحدث عنها ـ استجابة من دعوة لجامعة الزقازيق في مصر حول إعادة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية في خريف عام (١٩٨٩م)...

أعقبتها رحلة أخرى عام (١٩٩٠م) لإلقاء محاضرة في مركز فيصل للدراسات الإسلامية في الرياض، وأخرى للمنتدى الأدبي في المدينة المنورة... وكانت تلك آخر رحلة أقوم بها للسعودية بدعوة من المسؤولين فيها.

ثم أعقبتها رحلة مزدوجة إلى إنكلترا وفرنسا استجابة لدعوتين، إحداهما تقديم عدة محاضرات لندوة المنهاجية التي أعلن عنها مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، والأخرى للمشاركة في تصميم مناهج الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية في شاتو شينون في فرنسا.

تلتها رحلة إلى عمان في الأردن عام (١٩٩١م) تلبية لدعوة من المكتب الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يشرف عليه المستشار الأكاديمي للمنطقة العربية الدكتور فتحي الملكاوي للمشاركة في تصميم مناهج التاريخ الإسلامي بمعية عدد من المختصين، أعقبتها في العام التالي دعوة من المكتب نفسه، ولمدة أسبوعين للمشاركة في موسمه الثقافي بمعية الأخ الدكتور محسن عبد الحميد... أعقبتها في خريف العام نفسه رحلة أخرى إلى اسطنبول بمعية الأخ أديب الدباغ للمشاركة ببحث للمؤتمر الدولي الثاني عن فكر بديع الزمان سعيد النورسي...

وفي شتاء العام التالي (١٩٩٣م) قمت برحلة طويلة إلى السودان الشقيق استغرقت أكثر من عشرين يوماً بدعوة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، التي يرأسها الأخ والصديق الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام ﵀، لإلقاء جملة محاضرات في الجامعات السودانية، والمشاركة في تصميم مناهج جامعة القرآن الكريم... أعقبتها في خريف العام نفسه دعوة منظمة التربية

والثقافة والعلوم الإسلامية (الإيسسكو) في المغرب للمشاركة في بحث لمؤتمر مستقبل العالم الإسلامي.

وفي عام (١٩٩٥م) أتيح لي أن أغادر العراق ثلاث مرات، كانت أولاها في الربيع استجابة لدعوة من وزارة الأوقاف القطرية في الدوحة لإلقاء جملة محاضرات في الفقه الحضاري، وكانت الثانية في الخريف للمشاركة في المؤتمر الدولي الثالث لفكر بديع الزمان سعيد النورسي... وأما الثالثة، الطويلة نسبياً، في آخر العام فكانت استجابة لدعوة من رئاسة قسم التاريخ في كلية آداب جامعة صنعاء لإلقاء جملة من المحاضرات في الكليات والمنتديات هناك.

في عام (١٩٩٦م) ــ على ما أذكر ــ استدعيت من قبل دائرة الشؤون الثقافية في الموصل، حيث أعلمت بوصول برقية من السفارة التونسية في بغداد، تدعوني للمشاركة في مؤتمر علمي تقيمه جامعة الزيتونة في العاصمة التونسية، وتطلب من رئاسة الجامعة تسهيل مهمتي... فلما أُطلعت على صيغة الدعوة ووجدتها تحت ظلال طاغية تونس ــ يومها ــ زين العابدين بن علي، وأعلمت الموظف المسؤول باعتذاري عن الحضور لمناسبة يتقاتل عليها معظم الأساتذة الجامعيين من أولئك الذين لم يضعوا في عقولهم البوصلة التي تهديهم سواء السبيل.

وثمة رحلة قصيرة في خريف عام (١٩٩٧م) إلى عمان في الأردن، استجابة لدعوة من رئاسة جامعة الزرقاء الأهلية لإلقاء جملة من المحاضرات والمشاركة في تصميم مناهج التاريخ والحضارة فيها... أعقبتها رحلة طويلة نسبياً استجابة لدعوة من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، لإلقاء جملة محاضرات والمشاركة في تصميم مناهج كلية معارف الوحي والعلوم الإسلامية فيها.

وفي عام (١٩٩٨م) تلقيت دعوة من رابطة الأدب الإسلامي العالمية لحضور مؤتمرها الدوري في المغرب، حيث تقرّر تكريمي هناك، كأحد روّاد

الأدب الإسلامي المعاصر، لكنني اعتذرت عن الحضور بسبب ارتباطي برحلة الحج في ذلك الموسم.

وبعد ذلك، وفي خريف عام (١٩٩٩م)، شاركت ببحث في مؤتمر أقامته جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن حول (الأدب الإسلامي بين الواقع والطموح)، (ويجد القارئ التفاصيل اليومية لهذه الرحلات كافة في الفصل الخاص بالرحلات الخارجية من هذه السيرة).

ولعل سائل يسأل: كيف يتم التوفيق بين رفض كل طلباتك على الإطلاق لإعارة خدماتك للسعودية، والكويت، والإمارات العربية؛ وبين موافقة السلطات على رحلاتك المتنوعة هذه؟

والجواب سبق وأن تلقيته من أحد موظفي المؤسسة العامة للآثار والتراث... أن الإعارة مقصورة على العناصر المنتمية للحزب والمتعاونة مع أجهزة الدولة ومخابراتها... كما تلقيته على لسان ضابط المخابرات الذي قابلني لمعرفة مدى استجابتي للتعاون معهم، ورفضي القاطع لذلك...

أما الدعوات القصيرة للمؤتمرات والندوات والجامعات، للمشاركة في إلقاء البحوث والمحاضرات، فهو أمر مفتوح لجميع الأساتذة، رغم مروره بشبكة من التعقيدات الإدارية المرهقة والطويلة، بحيث أن الطلب يمر بالقسم، ثم بالعمادة ثم برئاسة الجامعة، ثم بوزارة التعليم العالي ومجلس الوزراء... وبدوائر الأمن والمخابرات... وصولاً إلى (مختار) المحلة التي يقطن فيها مقدم الطلب...

ولطالما رفضت السلطات طلبات عناصر بعثية واستجابت لطلبات غير البعثيين، إذا شكت بأن البعثي سيبيع بلده، وسوف يغادر القطر، ولن يرجع إليه أبداً، بينما الآخرون أكثر وفاء لبلدهم وحرصاً على البقاء فيه، ولهذا فإن عودتهم مضمونة... وهم ــ أي السلطات ــ تعرف هذا جيداً...

وأذكر يوماً قدّمت فيه طلباً لحضور مؤتمر في اسطنبول عام (١٩٩٥م) كيف اتصل بي هاتفياً اثنان من تلامذتي المتفوقين في كلية الآداب، ممن أغراهم العمل في جهاز المخابرات لما فيه من ميزات مالية وأسفار عديدة،

وطلبوا مني أن يقوموا بزيارتي في البيت... فرحبت بهما... وإذا بهما يقولان: بأننا نعرفك جيداً... رجل صادق مع نفسه ومع بلده، وهو على أسفاره ما يلبث أن يعود في كل مرة... ولهذا جئنا لكي نطمئنك على مصير معاملتك...

بل إنني حتى عندما كنت أعمل أستاذاً في جامعة الزرقاء الأهلية عام (٢٠٠٣م)، ما لبثت بعيد الاحتلال الأمريكي القذر للعراق، أن قطعت تعاقدي معهم وأسرعت في العودة إلى بلدي، أنا والأستاذ الدكتور عدنان الدليمي، رغم إلحاح رئاسة جامعة الزرقاء على ضرورة تمديد عقودنا... بل إن أصدقائي كافة كانوا يعرفون تماماً مدى (موصليتي)... وعشقي لمدينتي، وقراري للاستقرار فيها على تقلب الظروف والأحداث.

في عام (١٩٨٨م)، انتهت مجزرة الحرب العراقية الإيرانية، وتنفس العراقيون الصعداء، واجتازوا في الأعوام (١٩٨٨ ــ ١٩٩٠م)، قبل اشتعال مشكلة الكويت... أعواماً من الرفاهية والاستقرار، وأصبحت بغداد، رغم اجتياز العراق لحرب السنوات الثمانية التي استنزفته حتى النخاع، قبلة الزائرين والسواح... بشبكة شوارعها (الهاي واي) السريعة، ومتنزهاتها الرائعة، ومتاحفها البديعة، ومطاعمها الأنيقة، وفنادقها الفخمة، وأجوائها الشتوية المشمسة والرائعة، وأسواقها المركزية الملأى بالبضائع الأصيلة المستوردة من اليابان ودول الغرب...

فما كان من عائلتنا وعائلة أخي نبيل وابن عمي إلا أن ننتهز الفرصة، ونوظف عطل نصف السنة للرحيل بسياراتنا إلى بغداد والنزول في أحد فنادقها الممتازة، وقضاء أسبوع رائع من التجوال في شوارعها وفنادقها ومطاعمها ومتنزهاتها وأسواقها المركزية قبل أن نقفل عائدين وكآبة العودة تمسك بخناقنا، إلى الموصل، متمنين أن نظل هناك في العاصمة الرائعة الأسابيع الطوال... ولا زلنا لحد الآن نتذكر بشوق عميق تفاصيل تلك الرحلات الثلاث أو الأربع التي أمضيناها في بغداد... لقد كانت فعلاً فرصة رائعة للتحقق بالسعادة والانسجام.

وفي مدينة الموصل، وبراريها، والمحافظات الشمالية، استمرت رحلاتنا عبر هذه المرحلة من العمر... حيناً إلى المدينة السياحية في سد الموصل، حيث استأجرنا وبعض أقربائنا دوراً هناك، تطل على البحيرة الممتدة على مساحات كبيرة... ولشدة استمتاعنا برحلتنا تلك، عدنا ثانيةً لكي نستأجر الدور في السد ولمدى زمني أطول، حث كنا نقضي الوقت في اللعب، وتبادل الأحاديث والنكات، أو في التخطي في شوارع المدينة، والجلوس في حدائقها... وتناول وجبات الطعام بشهية مضاعفة، ومشاهدة البرامج التلفازية... والنوم العميق... والمطالعة الممتعة... إنها فرصة أخرى للاستجمام والبعد عن هموم العمل التي تتدفق كسيل لا ينقطع...

وحيناً آخر كنا نتجه إلى دهوك، حيث نقضي اليوم كله في أسواقها المركزية ذات البضائع الرائعة، ثم نقفل عائدين... هذا إلى الرحلات الربيعية والخريفية إلى براري الموصل التي كانت تكتظ بالأهالي، رغم ما كان العراقيون عموماً يعانونه من حصار قاس وضيق فظيع في ذات اليد... إنه ردّ الفعل المحتوم على المعاناة التي كانت تمسك بخناق الجميع... وفي قسم التاريخ بكلية التربية، كنا نقوم برحلاتنا الدورية إلى منطقة الشلالات، حيث اللعب، والأكل، والأحاديث، والنكات... والانسجام والتوافق بين أعضاء القسم كافة.

واستمرت ـ عبر هذه المرحلة كذلك ـ طلعات الفجر الرائعة، وحدي أو مع العائلة، حيث كنا نختار موقعاً رائعاً مطلاً على نهر دجلة في منطقة الغابات، ونفرش متاعنا هناك، ونتناول الطعام الشهي من المشويات، ونتبادل الأحاديث، والذكريات والنكات... هذا إلى جولات التخطي في الربيع المشمس والخريف الهادئ، وجلسات المقاهي اليومية لوحدي، أو مع ثلة من الأصدقاء...

ولا زلت أذكر جلساتنا الأسبوعية الرائعة في صالة مقهى (الكان كان) التي صممها صديقنا المهندس المعماري (عبد المالك الأعرجي) رحمه الله، حيث لعب الداما والشطرنج، ثم مغادرة المقهى لأداء الصلاة الجماعية في جامع

الدندان القريب والمطل على نهر دجلة... ثم التوجه إلى مطعم (الرغيف) الرائع بحدائقه البديعة وطعامه اللذيذ.

وبمرور الوقت يزداد شغفي بمتابعة اللقاءات الدورية لكرة القدم، حيث لم تكد واحدة مهمة منها تفلت من مشاهدتي، وحيث صرت أعرف لاعبي معظم الفرق الإنكليزية والإسبانية والألمانية، وأمارس التشجيع بكل مشاعري وجملتي العصبية لفريق دون فريق... وبخاصة تلك الفرق التي يكثر فيها لاعبون من ديار العالم الإسلامي، أولئك الذين يدخلون الساحة وهم يرددون مع أنفسهم سورة الفاتحة... وإذا ما أحرزوا هدفاً ضد الخصم سجدوا شكراً لله... أمام ملايين المشاهدين... يا له من منظر جميل مؤثر... فكيف لا يزداد الإنسان تعلقاً بمشاهدة المباريات؟!

الفصل الثامن

٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢م

في صيف عام (٢٠٠٠م) حيث كنت قد تحررت من الارتباط بالعمل الجامعي في العراق، تلقيت عدة دعوات للتعاقد مع جامعات الإمارات العربية المتحدة، وبخاصة جامعة العين في أبو ظبي وكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، واستقر رأيي على العمل في أولاهما، لما فيها من ميزات أدبية ومادية، ولكوني قد تعرّفت عليها عن كثب في عام (١٩٨١م) عندما دعيت لإلقاء جملة محاضرات فيها... هذا إلى أن لي فيها عدداً من الزملاء وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور علاء نورس، الذي سبق وأن عمل معي في كلية آداب جامعة الموصل لعدة سنوات... وهو نموذج نادر للوفاء والغيرة على الدين، وقد تولى شخصياً كافة الإجراءات الروتينية، وأرسل إليَّ يخبرني بترحيب الجامعة بي وأنهم بانتظار وصولي...

ولست أدري ما الذي غير رأيي في اللحظة الأخيرة، وجعلني أختار العمل في كلية الدراسات الإسلامية والعربية، التابعة لمركز جمعة الماجد في دبي... لعله كثرة زملائي ومعارفي في الكلية المذكورة... لعله جهازها الإداري... الذي يشرف عليه كل من الدكتور نجيب عبد الوهاب، الأمين العام لمركز جمعة الماجد، والدكتور سلطان العلماء، وهما صديقان حميمان... لعلها رغبتي في ألا أبعد كثيراً عن المدن التي يزدحم فيها الناس، وتكثر الحركة... حيث أن (العين) بعيدة وهي أشبه بالمنفى الذي سيزيد إحساسي بالغربة والحنين إلى بلدي... لعله إلحاح الأخ الأستاذ الدكتور حاتم الضامن علي بالعمل في الكلية المذكورة، وترحيبهم بي... لست أدري...

والمهم أنني بعد أن اجتزت أياماً من الحيرة القاسية، اخترت حلاً وسطاً هو أن استجيب لدعوة كلية الدراسات الإسلامية لفصل دراسي واحد، أتحوّل بعده للعمل في جامعة العين، وأبرقت للأخ الدكتور علاء نورس بذلك... ثم ما لبثت أن تلقيت صيغة العقد من كلية الدراسات، وهيأت نفسي للسفر إلى هناك في آخر شهر آب من ذلك العام... حيث انطلقت بمعية الأخ (لقمان عثمان) (الدكتور فيما بعد) وهو صديق عزيز ذو خلق ودين ووفاء وروح تعاونية قلّت نظائرها لدى الآخرين... وكان يومذاك يتردد على الإمارات في أعمال والده التجارية، ويواصل في الوقت نفسه إعداد رسالته في الماجستير في القانون الدولي بكلية قانون جامعة الموصل... وقد رحبت به بأن ينزل ضيفاً معي في الشقة التي ستعطيني إياها كلية الدراسات لمدى بقائي فيها.

اتجهنا إلى عمّان أولاً... حيث لم يكن ثمة خط جوي بين العراق والإمارات... وكنت أحمل معي يومها متاعبي الصحية متمثلة هذه المرة بآلام قاسية في ساقي الأيسر، حيث تبين بعد معاينة الطبيب في عمان أنها من آثار جلطة خفيفة أصابت الساق، الأمر الذي أدخل في قلبي الوسواس اللعين، وجعلني بعد الوصول إلى الإمارات أقضي الأيام والأسابيع والأشهر الطوال في جملة من المراجعات الطبية عبر المستشفيات الحكومية والخاصة، والعيادات والمراكز المختلفة للتأكد من سلامة القلب، فيما حوّل أيامي هناك إلى قلق متواصل، وامتص الكثير الكثير من السعادة التي كنت أمني نفسي بها بعد حصولي أخيراً على ما أريد!!

حطت بنا الطائرة في مطار دبي الدولي الفاره، حيث كان في استقبالنا ثلة من المعارف والأصدقاء، وممثل عن الكلية الذي ما لبث أن اصطحبني إلى أحد فنادق الدرجة الأولى في دبي لقضاء عدة أيام ريثما تتم الأمور الإجرائية بخصوص العمل في الكلية، وتخصيص شقة السكن، وسائر المسائل الأخرى التي لم تستغرق وقتاً طويلاً، حيث ما لبثت أن تسلمت شقتي في الدور السادس من بناية كبيرة في الشارقة تابعة لكلية الدراسات، والتي لا يشغل شققها إلّا

الأساتذة العاملون في الكلية نفسها ومعظمهم من معارفي وأصدقائي... وكانت ميزة هذه البناية أنها على بعد خطوات من مسجد كبير يتيح لنا أداء صلوات الجماعة فيه، وحيث كان يقوم في أسفلها سوبر ماركت كبير يدعى (الجاينت) ينطوي على كل ما يخطر وما لا يخطر على بال الإنسان.

وانطلقت بمعية الأخ لقمان وسيارته التي خففت الكثير من الأعباء عني، لشراء الأشياء الضرورية للسكن في الشقة من مثل (الثلاجة والطباخ والتلفزيون والمكتب والدواليب وطاقم النوم والجلوس وأدوات المطبخ... الخ).

وثمة جملة من المفارقات التي اجتزتها مع الأخ لقمان في الأيام الأولى من مكوثنا في الشارقة، لا زلت أذكر جانباً منها... وسوف أختار بعضها ترويحاً لنفسي ونفوس قرّائي معي، من عناء الجد، وذلك تحت شعار (روّحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت).

في أحد الأيام كنت أتجول في سوبر ماركت الجاينت تحت العمارة السكنية، فلمحت فتاة هندية (الله يستر عليها) وبيدها طبق مليء بقطع النستلة، فأشارت إلي قائلة بالإنكليزية (تفضّل)، فأجفلت خشية أن يكلفني ذلك كثيراً، ولكن تبين لي أن هذا يقدم مجاناً كدعاية للسوبر ماركت، فتناولت واحدة ووضعتها في فمي دفعة واحدة وأنا أقول للفتاة (ثانك يو)... ثم قمت بجولة سريعة وعدت ثانية وتناولت أخرى قائلاً (ثانك يو فري مج)، فابتسمت الفتاة وشكرت لطفي وتفضلي بالاستجابة لدعوتها... ثم قمت بجولة أخرى وعدت إليها وقد نزعت النظارة لكي أضلّلها وتناولت قطعة ثالثة (ثانك يو فري مج)... وبعد دقائق برزتُ لها من مكان آخر وتناولت قطعة رابعة ولا أدري إن كانت عرفت اللعبة أم لا... والمهم أنني تناولت وجبة دسمة من النستلة مجاناً، وقلت في نفسي أنني سأنزل كلما اقتضى الأمر لتناول وجبات أخرى وطز في الهنود!

يقابل هذا ورطة وقعت فيها لدى مكوثي في الفندق قبل التحوّل إلى الشقة... إذ دخلت الغرفة فوجدت في استقبالي طبقاً من الفاكهة المنوعة وثلاجة مليئة بالنساتل والجرزات والبارد.. وجاءني عدد من الضيوف فأخرجت

لهم كل ما في الثلاجة فضلاً عن طبق الفاكهة فاعتذروا، ولكني (مثل أخي ظافر) ألححت عليهم (مشان خاطري) قلت لهم، فانقضوا على الموجودات فمحقوها عن بكرة أبيها... وما لبث في اليوم التالي أن التقيت بأستاذ جامعي ينزل في الفندق نفسه، فابتدرني قائلاً: أخشى أن تكون قد مددت يدك إلى موجودات الثلاجة؟ فقلت له: وماذا في ذلك؟ قال: لا يا أخي انها محسوبة عليك وبأسعار خيالية... ثم أردف قائلاً: إن الكلّية لا تدفع إلّا قيمة الغرفة ووجبات الطعام الثلاث داخل المطعم، أما موجودات الغرفة والهاتف فإنه يسجل عليك...

والمهم أنني دفعت بسبب إلحاحي السخيف أكثر من عشرين ألف دينار! ذهبت يوماً بصحبة لقمان إلى مكان مدهش في دبي يدعى (مركز التسوّق) يتضمن بارك للسيارات وعدة طوابق لبيع كل ما يخطر وما لا يخطر على البال... في كل طابق عدد من المطاعم والبوفيهات وألعاب الفلبرز المدهشة، وفيه كذلك مدينة ألعاب فيها من الألعاب الجديدة ما يفوق الخيال... فلما عضّنا الجوع بنابه كما يقول المثل قال لي لقمان: أين تحب أن نأكل؟ أجبته: لنلقي نظرة على المطاعم جميعاً ثم نختار...

وما لبث اختيارنا أن وقع على بوفيه فرنسي تقف فيه فتيات شرق أقصويات وزن الواحدة منهن لا يتجاوز الثلاثين وقية... فسمّرت قدمي وقلت للقمان: هذا هو الذي كنت أبحث عنه... ولمّا سألتنا العاملة عن الشيء المفضل أشرتُ إلى صمونة كبيرة جداً وقلت لها: هذه! فراحت تملؤها بما لذّ وطاب ثم سلمت كل واحد منا صمونة وأخذت على كل واحدة عشرين درهماً أي ما يزيد على عشرة آلاف دينار...

وجلسنا في مكان ما نتناول الوجبة وإذا بنا نفاجأ بأن ما وضع في الصمونة لا يتجاوز الطماطة والخسّ والزيتون المسحوب من النواة وشريحة رقيقة جداً من الدجاج... وثارت ثائرتي وقلت للقمان: لن أغادر المكان قبل أن تأخذني إلى العاملة لكي أبصق في وجهها! ولكنه استطاع أن يهدئ ثائرتي بأن

سحبني إلى السوبر ماركت حيث وجدنا أنفسنا أمام صنوف من المعروضات لا يراها الإنسان إلّا في الأحلام...

عندما اشتريت الثلاجة والتلفزيون أستأجرنا سيارة لنقلهما إلى الشقة واتفقت مع لقمان أن يمضي أمامنا بسيارته وأن أركب أنا إلى جانب سائق السيارة الهندي... بعد أن وضح له لقمان مكان العمارة التي أسكن فيها... وما لبثت سيارة لقمان أن اختفت وأصبح على السائق أن يوصلني إلى الشقة، ولكنه ما لبث أن ضيّع الطريق، فثارت أعصابي وقلت له: ألم يكن أولى بك منذ البداية أن تقول لنا لا أعرف المكان لكي نبحث عن غيرك؟! ولم يفهم السائق كلامي لأنه لا يعرف العربية... فقلت له إنك غبيّ... قال: وات؟ قلت له موضحاً ونحن نلفّ وندور على غير هدىً في شوارع الشارقة: دونكي ابن دونكي... فتقبلها الرجل مني بامتنان... ثم ما لبث أن تبين لنا أننا كنا على بعد خطوات من المكان... والعجيب أنني جئت إلى المكان قبل ذلك أكثر من عشرين مرة... ومع ذلك لم أستطع أن أعرف موقعه إلّا بالصدفة!

لدى مغادرتنا الطائرة في مطار دبي راحت الأشرطة الكهربائية تنقلنا من صالة إلى أخرى دون أن نكلف أنفسنا عناء المسير... وفجأة مددت يدي إلى جيبي الخلفي وصرخت: الجواز!! فردّ لقمان بدهشة: ماذا؟ صرخت مرة أخرى: لقد ضاع الجواز!! ومعنى ذلك أنني لم أعد أستطيع الدخول إلى دبي ولا العودة إلى العراق...

لقد كانت دقائق من أصعب ما مرّ بي في حياتي... وفجأة تذكرت: لقد وضعت الجواز في جيب مقعد الطائرة أمامي كي لا يفلت من جيبي ونسيته هناك... ولكن كيف الوصول إليه؟ ومغادرة القاعة والعودة للطائرة مسألة مستحيلة؟! ثم ألا يمكن أن تكون الطائرة قد غادرت المطار إلى مدن أخرى في الإمارات؟! ورأيت لقمان يقول لي: قف أنت ها هنا مع الحقائب اليدوية وسوف أتصل بطاقم الطائرة.. وراح يركض باتجاه معاكس للشريط والدقائق تمرّ كالساعات ثم ما لبث أن عاد لكي يقول: اطمئن لقد اتصلت بأحد مضيفي

الطائرة وسوف يأتي بالجواز! انقضضت على لقمان أقبّله وأنا أقول سوف أدعوك إلى وليمة تتحدث بها الركبان...

ورحنا ننتظر ومرّت الدقائق ولا من جواب ثم ما لبث الهاتف أن دق بعد نصف ساعة ورفع لقمان السماعة فإذا بالمضيف يقول له: لقد بحثت عن الجواز في جيب المقعد المحدّد فلم أجده... وصرخت فيه: قل له أن يفتش عليه جيّداً فلا يوجد إلّا في هذا الجيب... وأحسست بمرارة ويأس ارتسمت ملامحهما على وجهي وقلت في نفسي: ها أنا ذا أغوص في بئر عميق... وفجأة تذكر لقمان الذي أسميه (بالمنقذ): لقد كنا نجلس لدى دخولنا الطائرة في المقاعد التي تلي المقعد المذكور وصرخ في المضيف بالهاتف النقال: فتش في جيب المقعد الذي يليه... وبعد دقيقة صاح المضيف: ها قد وجدته وسوف يصلكم خلال دقائق... وقلت للقمان وأنا أكاد أطير من الفرح: لك عندي وليمة ثانية تتحدث بها الركبان...

كان المستقبلون ينتظروننا في الشرفة الداخلية لصالة الاستقبال وكان فيهم ممثل عن المركز ومعاذ ووائل ابني عبد الجبار وشيرزاد وآخرون... ولوّحت لهم من وراء الزجاج معرباً عن أسفي... ثم عدت إلى كاونتر الاستعلامات الذي كانت تقف وراءه موظفة إماراتية ربما تكون من أصل إيراني... كانت خفيفة الدم (لعبوطة) وقد امتلكت مهارة فائقة في طمأنة القلقين من أمثالي، وكلما مرت الدقائق ولم يصل الجواز أركض إليها صارخاً: أرجوك اتصلي بهم فإنني أخشى أن يتعرض للضياع مرةً أخرى... وكانت تبتسم وهي تقول لي: أراك قلقاً أكثر مما يجب فاطمئن فإن الجواز سيصل... ويبدو أن شيئاً من الألفة حدث بيني وبينها... بدليل أن لقمان عندما قال لها أنني جئت أستاذاً للتاريخ في كلية الدراسات الإسلامية، قالت: ما دمت ستتولى التدريس هناك فانأ على استعداد لأن أسجل في الكلية لكي أدرس على يديك!! لعلّها عشقتني... من يدري؟ إذن كيف لو رأتني قبل شيخوختي؟

ومضت ساعة... وأعقبتها ساعة أخرى ولم يصل الجواز... ورحت أذرع

الصالة بعصبية وأنا أقول لها وللقمان ها قد ضاع الجواز مرةً أخرى... إن موظفي المطار كثيرون جداً وغرفه ودوائره كثيرة جداً ألا يجوز أن ينسلت هنا أو هناك ولن يكون بمقدور أحد العثور عليه... فتبتسم الموظفة وتقول ببرود: اطمئن فإنه سيأتيك...

ومضت ساعة ثالثة... وازدادت أعصابي توتراً ليس من أجل الجواز فقط، وإنما قلقاً على انتظار المستقبلين، وركضت إليهم ورحت أؤشر لهم أن يرجعوا وأتوسّل إليهم حيث جاوز الانتظار كل توقع، ولكنهم كانوا يبتسمون ويؤشرون لي بأنهم سيظلون حتى لو اقتضى الأمر ساعات أخرى...

وفجأة دخل الصالة مهندس طيران أردني ينتمي لشركة عاليه التي جئنا على طائرتها... وقلت له بعصبية: أرأيت؟ فانتابته العصبية هو الآخر وقال: إن الموظفين الهنود قذرون والساعة عندهم كدقيقة، وضرب جهاز الهاتف وراح يصرخ فيهم منزلاً بهم أقسى الكلمات... فشكرته على معاونته وما هي إلّا دقائق حتى جاء موظف هندي قميء (تفس) وبيده الجواز، فتسلّمه المهندس الأردني وسلّمه إياي وراح يبتسم... ولقمان يبتسم... والموظفة تضحك... وأنا أصعد على كتفي المهندس وأشبعه تقبيلاً... ولو كان الشرع يبيح لي لأشبعت الموظفة تقبيلاً هي الأخرى!

طلبت من لقمان يوماً أن يأخذني إلى مطعم جيد... فقادني بسيارته إلى مطعم (الملّاح) اللبناني في أحد شوارع الشارقة... نظرت إلى قائمة المأكولات فوجدتها كلها مغرية واحترت في الاختيار، ثم ما لبثت أن طلبت قطعة لحم بعجين وأخرى رغيف بالزعتر الشامي... وقلت للعامل أن يسويهما جيداً فقال: تقصد نحمصهما كثيراً؟ فقلت نعم... فقال لقمان: دع شيئاً من معدتك لكي تستمتع بعصير الملّاح المشهور... فقلت له: لا تخشَ على أخيك... وكلّ شيء في أوانه... وكما يقول أبو ضرار: «كل شيء وله شيء»...

وتناولنا اللحم بعجين... وقد لا تصدّقون إذا قلت بأن سمك الخلطة فوقه تبلغ السنتمتر... وهو لذيذ جداً... وتذكرت (عجايا) الموصل الذين يلطّخون

قطع العجين بأناملهم القذرة... ثم انكببت على رغيف الزعتر فرأيته لذيذاً هو الآخر... وقلت للقمان: قل لهم فليأتوا بعصيرهم المتميّز... قال: أي حجم تريد؟! قلت له: الكبير طبعاً... وجاءنا بعد دقائق... وأستطيع أن أقول أنه معمول في الجنة... وهو يتضمن عصير فواكه طبيعية مشكّلة... وقطعاً من الموز والأناناس والتفاح... فضلاً عن الكريم وكمية كبيرة من اللوز والبندق... التهمته بشهية... وغادرنا المكان. وكانت قيمة الوجبة لكل واحد منا (١٥) درهماً، أي ما يعادل ثمانية آلاف دينار...

وقلت للقمان ونحن نركب السيارة: ابحث لنا عن مكان جيد لتناول الآيس كريم بالفاكهة... وبما أن الرجل لا يرّد لي طلباً، لم يستطع أن يقول لي: إن الذي أكلناه يكفي، وأنه لم يبق أي مجال في معدتنا لتناول لقمة واحدة... إذ ما لبث أن أخذني إلى بوفيه ماليزي ذي صالة أنيقة ومقاعد مريحة... وقد علقت على أحد الجدران صور الأطباق الشهية من البوظة والدوندرمة وإلى أسفل كل منها سعر الطبق... وكان بمقدوري أن أطلب أصغرها (٥ دراهم)، ولكن دناءة نفسي التي تعرفونها جيداً جعلتني أطلب أبو العشرة، دراهم وهو على شكل مركب من بلّور فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...

واضطر لقمان مجاملة لي أن يطلب أبو العشرة هو الآخر... فما أن أكل لقمتين حتى تغيّرت ملامحه وجحظت عيناه وراح يكافح كفاحاً مستميتاً لمواصلة الأكل... خاصةً وأنني كنت قد أشعرته بأن ترك شيء من الطعام ليس أمراً مقبولاً، وأن رسول الله ﷺ كان يمسح الماعون بيده الشريفة... وأعتقد أن لقمان كان مستعداً بعد أن بلغ حدّ الإشباع الكامل أن يخالف السنّة وإلّا لقي ما لا تحمد عقباه...

أما أنا فقد رحت ألتهم الخلطة المدهشة بشهية بالغة، ولكن ما أن بلغت نصف الماعون حتى وجدتني في حالة لا أحسد عليها... ولكني قلت في نفسي: إن الانتحار من التخمة أهون عليّ من مخالفة سنة رسول الله ﷺ، ومضيت

أكافح لإنهاء الماعون حتى أتيت عليه... وغادرنا المكان ونحن نترنح ونكافح لالتقاط الأنفاس!

دعانا يوماً أحد شيوخ البلد من مسؤولي المركز وجلسنا في صالة فاخرة المنظر فاخرة الأثاث... ورحنا نتحدث في أمور شتى، وما لبث الخادم أن دار علينا بالقهوة العربية ثم أعقبها فناجين الشاي بالعسل (بدلاً من السكر)... وبعدها وُضع أمام كل واحد منا طبق مليء بالكازو واللوز والفستق... ورحت أقلّب نظري في الموجودين منتظراً أن يمدّ أحدهم يده لكي أبدأ المهمة أنا الآخر...

ومرت الدقائق ثقيلة متباطئة... وأخيراً تحرّك أحدهم فمدّ يده... كان ذلك بمثابة إشارة الإنقاذ... رحت ألتهم المكسرات متناولاً إياها بحفنة يدي وليس برؤوس أصابعي، وكنت أجيب على أسئلة الموجودين بإيجاز شديد لكي لا يلهيني الكلام عن مواصلة المهمة الأساسية... ولكن فجأة توقف الجميع عن الأكل... وقلت في نفسي: إذا كان هذا تقليداً متبعاً في المجالس (فبيس تقليد) كما يقول إخواننا الكرد... ووجدتني أتوقف أنا الآخر عن التهام المكسَّرات وكما يقول المثل: عين على الشيخ وعين على الفستق والكازو!

أعددت عدة الشاي والفطور في الشقة، السكر والشاي والأواني (والكتلي) الكهربائي... الخ على نيّة أن نتناول الفطور يومياً في الشقة قبل أن نغادرها إلى أعمالنا... فلما استيقظت في اليوم التالي تكاسلت عن عمل الفطور واكتفيت بتناول قطعة كيك كانت موجودة منذ عدة أيام... وقلت في نفسي: سأشرب الشاي في الكلية... أما لقمان فقال: سأتناول فطوري فيما بعد في أحد البوفيهات...

وفي اليوم التالي استيقظت مبكراً لعمل الفطور... فتكاسلت وتناولت عدة حبات من فستق العبيد كنت قد اشتريتها يوم أمس... وقلت في نفسي سأشرب الشاي في الكلّية... أما لقمان فقال: سأتناول فطوري فيما بعد في أحد البوفيهات...

وفي اليوم الثالث عزمت على عمل الفطور ولكني تكاسلت وأيقظت لقمان قائلاً له: لماذا لا نتناول فطورنا في أحد المطاعم القريبة؟! فرحّب بالفكرة واتجهنا إلى مطعم قريب... طلبت أنا الفول المدمّس وطلب هو البيض المقلي باللحمة والصنوبر...

وقبل أن يجيء الطعام جاءنا العامل بصينية مليئة بالخضار: الطماطة والخيار والفجل والجزر والزيتون والطرشي والجرجير ثم جاء الطعام بعد أن كنا قد ملأنا بطوننا بالخضار... فرحنا نكافح لكي نمسح المواعين عملاً بسنة رسول الله ﷺ... أما لقمان فقد جحظت عيناه وتغيّرت ملامحه ولم يستطع أن يأتي على طعامه...

وأما أنا فقد تركت الخبز جانباً وتناولت ملعقة كبيرة رحت (أكرف) بها الفول لكي آتي عليه قبل أن تتغير ملامحي وتجحظ عيناي أنا الآخر... وفجأة خطرت على بالي فكرة!! فقلت للقمان: الآن الساعة العاشرة تقريباً... وقد تناولنا فطوراً دسماً... ما رأيك لو اعتبرناه غداء وتخلّينا اليوم عن تناول الغداء، وبذلك نكون قد وفرنا على أنفسنا وجبة كاملة ومبالغ ليست هينة من المال؟ فرحّب بذلك واتفقنا على أن تكون وجبتنا الثانية بعد العاشرة مساءً... وودّعته وأنا أقول في نفسي (ما أضرط من سعيد إلّا مبارك)!!

تعلمون جيداً كيف كنت في كلّية التربية في الموصل معشوق الطالبات، وأن موضوعات البحث الخاص والدروس الاختيارية ما كان يأتيني فيها إلّا الطالبات (وبخاصة تركمانيات كركوك) لا أدري لماذا؟ لعلّها منحة ربّانية... وكان ذلك يغيظ الأساتذة الآخرين وبخاصة جاري في القسم الدكتور عبد الواحد ذنون، الذي لم يجد في قوائمه سوى اسمين فقط للطالبات والبقية كلهم من الطلاب، ثم تبيّن له بعد المقابلة أن إحداهن واسمها صباح ذكراً وليست أنثى (لأن اسم صباح مؤنث مجازي)، أما الأخرى المتبقية فكانت تلبس بنطالاً وتتشبه بالرجال... إذن لم يبق معه أنثى واحدة بخلاف الوضع معي...

والمهم أنني عندما ذهبت إلى كليتي في دبي في أحد الأيام لحضور

اجتماع القسم وتوزيع المواد والصفوف على الأساتذة؛ إذا بي أفاجأ بأن كل الشعب التي سأتولى تدريسها ـ ما عدا اثنتين ـ هي من الطالبات، فقلت في نفسي: ذلك الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فله الحمد والمنة...

ولكني وجدتني مضطراً للتساؤل بيني وبين نفسي: هل هي مصادفة هذا التهافت عليّ من قبل البنات؟ أم أن هناك شيئاً ما في خلقتي... شيئاً لا أدركه هو الذي يسوقهن إليّ؟ ورجّحت الثانية!! ومع ذلك ظللت أتساءل: لماذا؟ وأنا لست دون جوان ولا فالنتينو ولا قيس بن الملوّح ولا حتى سيئ الذكر رشدي أباظة!

ترك لقمان يوماً كيساً من الفستق في صالة الشقة وذهب إلى عمله على أن يرجع ظهراً لتناول الغداء سوياً... فلما مضت ساعة وساعتان قرصني الجوع، فرأيت أن أسكته بفستق لقمان شرط ألّا يعرف أنني أكلت منه... كيف؟... المسألة بسيطة جداً... أترك الكلبسات التي أقفل بها الكيس على وضعها... وأدخل أصبعي من الزاوية القصوى للكيس ثم أبدأ بإخراج الفستق واحدة واحدة... وأتحدّى لقمان إذا تمكن من اكتشاف المحاولة... ولكني ما أن وضعت اللبّ الأول من الفستق في فمي حتى أدركت أن ملحه على قدر كبير من الكثافة، فعدت إلى غرفتي وأنا أقول في نفسي: لقد نجوت يا لقمان فهنيئاً لك انفرادك بأكل الفستق، وألف مبروك للحاج عثمان الذي تبرّع بشرائه لك لكي تتسلّى به في الطريق...

ذهبت بصحبة لقمان إلى المطار لاستقبال أبو طارك (دكتور زياد حماد) الفلسطيني، ودخلنا صالة القادمين وبدأت الأشرطة الكهربائية تنقلنا من مكان إلى مكان... وكنت منهمكاً في حديث ساخن مع لقمان، وعلى حين غفلة صرخ: انتبه! كان الشريط قد انتهى إلى الحافة، وكان عليّ أن أسرع بوضع قدمي على بدء الممر الثابت وإلّا انقلبت على وجهي...

وجاءت صرخته في الوقت المناسب تماماً... ثم تسلّمنا شريط آخر وما لبثت أن دخلت معه في حديث آخر وفجأة صرخ: انتبه!... كان الشريط قد

انتهى إلى الحافة... وكدت أن أقع لكن صرخة لقمان أنقذتني للمرة الثانية... وتسلمنا شريط آخر وما لبثت أن دخلت مع لقمان في حديث ساخن وفجأة سمعته يصرخ: انتبه! كان الشريط قد انتهى إلى الحافة وكدت أن أقع ولكن صرخة عثمان أنقذتني... وتسلّمنا شريط آخر!! وأنا أقول في نفسي: إنني ضعيف في التكنولوجيا أكثر مما يجب وتلك هي مشكلتي...

دعانا دكتور علاء نورس لزيارته في جامعة العين، فانطلقنا بسيارة لقمان ومعنا أبو طارك، وعندما وصلنا العين رحنا نسأل المارة عن موقع كلية البنات التي يعمل فيها نورس، فقالوا: إنها تقع في مكان يدعى (المقام). واندفعنا بأكثر مما يجب بعيداً عن المكان بسبب جهالة هندي كنا قد سألناه عن الموقع... ومضى أكثر من ساعة على الموعد المضروب واتصلنا هاتفياً بنورس لكي يدركنا وقد جاوز الوقت الساعة الثانية، وأخذ الجوع يفتك بنا فلم يسعفنا هاتف الكلية... فاتصلنا بزوجته فأعطتنا رقم هاتفه الجوال، وتمكنا من سماع صوته وتحديد مكان وجودنا وما لبث الرجل أن جاء لكي يصطحبنا إلى بيته...

إلى هنا والمسألة لا غبار عليها... وتناولنا في بيته الأنيق الباميا والرز والدجاج المحمّر بشهية بالغة... ولشدّة أدبه لم يفتح على الغداء مسألة الاتصال به على هاتفه النقال... ولكن ما أن انتهينا من الغداء حتى راح يعاتبنا بأسلوبه الرقيق... قائلاً: لقد فضحتموني!! نظر بعضنا إلى بعض بدهشة... وما لبث أن أردف قائلاً: أصبحت كذاباً في نظر سكرتير الكلية؟

وقبل أن نسأله ما الذي حدث قال: لقد كنت أؤكد دائماً على كل ذوي العلاقة في الكلية أني لا أحمل معي هاتفاً نقالاً، وأني رفضت أساساً شراءه لأن اتصالات الآخرين بي عن طريقه تخترق علي أوقات راحتي بما في ذلك أوقات النوم والطعام وقضاء الحاجة... الخ، وفجأة وأنا جالس عند السكرتير، أنتظر قدومكم أخذت أصوات غريبة ومتشابكة تخرج من تحت ملابسي فلفت ذلك نظر السكرتير فنظر إليّ بدهشة... والأصوات المتشابكة تزعق تحت

ملابسي... ومرّت دقيقة صعبة وأنا أقول في نفسي كيف ستنقذ نفسك يا علاء من الورطة التي أوقعك فيها الضيوف!!

وفجأة تذكرت أن الإنسان في هذه الحالة يجب أن يكشف أوراقه كاملة وإلّا أصبح مسخرة أمام الآخرين، فما كان مني إلّا أن أخرجت النقال ونهضت قائماً ووقفت قبالة السكرتير وأنا ألوّح بالجهاز لكي يراه جيداً (عيني عينك) وليكن ما يكون... فتصوّروا كم كانت دهشته كبيرة وهو يرى اضطرابي وأنا أرفع صوتي عبر الجهاز: أما كان أجدر بكم يا إخوان أن تتصلوا بي منذ اللحظة الأولى على هاتفي النقّال؟!

تسلمت جدول محاضراتي في الكلية، وكنت سعيداً باستقراري في الشارقة الملأى بالحركة والناس والمطاعم والمتنزهات والسوبر ماركتات، وشقق المعارف والأصدقاء، فيما يغطي على أي إحساس بالغربة والحنين إلى البلد... فضلاً عن تعرّفي على أساتذة الكلية القادمين من بلدان شتى: ففيهم الجزائريون والتونسيون والمصريون والسودانيون واللبنانيون والسوريون والأردنيون واليمنيون والإماراتيون والباكستانيون، إلى جانب عدد طيب من العراقيين كالأستاذ الدكتور حاتم الضامن رحمه الله، والأستاذ الدكتور حارث الضاري رحمه الله، والأستاذ الدكتور هاشم جميل والأستاذ الدكتور حمد الكبيسي رحمه الله، والدكتور خالد الحمداني، والدكتور مثنى حارث الضاري...، هذا إلى أن السقف الإداري للكلية متمثلاً بالدكتور نجيب عبد الوهاب والدكتور سلطان العلماء ممن تربطني بهما أواصر التقدير والمحبة...

ولم أدرِ يومها أني مقبل على موسم دراسي مترع بالويل والثبور، وأن انقلاباً إدارياً حدث في الكلية بعد أيام قلائل من بدء العمل فيها، تمثل بالإطاحة بالدكتور نجيب عبد الوهاب والدكتور سلطان العلماء والإتيان بمدير جديد يحمل درجة الماجستير في العلوم التربوية.

ليس هذا فحسب، بل إن الرجل لكونه لم يحظ بالدكتوراه، كان يحكمه نوع من مركب النقص تجاه الأساتذة الذين يتعامل معهم، فأراد أن ينفّس عن

عقدته هذه بالتسلّط عليهم، وملاحقتهم على ما يتصور أنها أخطاء، وربما إنزال العقوبة بهم، وفصلهم من الكلية إذا اقتضى الأمر... وكان وهو يتجول في أروقة الكلية يسير منتفخاً ومعتزاً بالمنصب الذي أسند إليه. وكثيراً ما كان بعض الزملاء من الأساتذة يجيئون إلى مكتبهم فيجدون عليه ورقة تطالبهم بتبيان أسباب تأخرهم عن الحضور لخمس دقائق أوست... وإلا تلقوا العقاب، رغم أنه يعرف جيداً زحمة المواصلات بين الشارقة ودبي... فكنت أرى الأساتذة يتدافعون بالأيدي والمناكب لكي يدخلوا قاعات المحاضرات في الدقيقة المحددة، قبل أن يقع الفأس بالرأس... وكثيراً ما كنت ألحظ بعض الأساتذة وهم يجتازون فناء الكلية، لا يتجهون إلى أماكنهم إلا بعد الانحراف قليلاً عن مسارهم للتسليم على المدير، والسؤال عن صحته... ومحاولة كسب رضاه!!

وكان مما يؤرقه ويزعجه أن يتخذ بعض الأساتذة من الكلية محطة وقتية، ما يلبثون أن يغادروها إلى الجامعات الإماراتية الأخرى، ويرى في ذلك موقفاً انتهازياً... ولهذا عندما رأى الأساتذة العراقيين يصرّون على البقاء في الكلية، لا يتحولون عنها إلى غيرها، أسقط ذلك في نفسه حزمة الاحترام والتقدير لهم، والإصرار على تمديد عقودهم لسنوات أخرى...

وما لبث يوماً أن دعا كافة أعضاء الهيئة التدريسية لحضور ما أسماه هو بــ (ورشة عمل) مع الدكتور الداعية عبد الله المصلح الذي كان يومها يقوم بزيارة للإمارات، وكنت أنا يوم الورشة مرتبطاً مع أحد الإعلاميين لتسجيل عدة حلقات حوارية في إذاعة أبو ظبي، فلم يتح لي حضور الورشة، وإذا بي في اليوم التالي أفاجأ بورقة موضوعة على مكتبي يطالبني فيها المدير بتبيان أسباب تغيبي عن الورشة، فانتفضت أعصابي، وعددت ذلك نوعاً من الحكم (البوليسي) الخارج عن حدود اللياقة الأكاديمية، ورفضت الإجابة على الورقة...

وكان يؤازرني في الموقف كل من الدكتور حاتم الضامن والدكتور حارث الضاري (رحمهما الله) ويشجعاني على عدم الرّد... وبين يوم وآخر أتلقى

استفزازاً من العميد السوداني وموظف آخر اللذين أصبحا، أسوةً بالعديد من الأساتذة للأسف الشديد، أشبه بالخاتم في يد المدير يديره حيثما يشاء... يطلبان فيه الرّد على الورقة، وأنا مصر على موقفي، واستمر الوضع طيلة الفصل الدراسي الأول من ذلك العام، ثم ما لبث الموضوع أن تم تجاهله...

وانتهز المدير فرصة زيارة ممثل اتحاد الجامعات الإسلامية، فدعاني وعدد من الأساتذة إلى حفل غداء في أحد مطاعم دبي السياحية، أعقبه رحلة في مركب بحري استغرق أكثر من ساعة... وقلت في نفسي: الحمد لله... ها إن محنتي مع الرجل قد انتهت بسلام، إذ كنت ـ والحق يقال ـ قلقاً من أن يقف المدير حجر عثرة في طريق ذهابي وزوجتي للحج في ذلك العام، ويعرقل المحاولة... بعد جهود مضنية لاستدعائها إلى الإمارات استنزفت مني الكثير...

خلال تلك الأشهر السيئة من وجودي في كلّية الدراسات الإسلامية، كان يتصل بي بين الحين والحين الدكتور نجيب عبد الوهاب مساعد الأمين العام لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، عارضاً علي العمل في المركز والتحرر من الارتباط بالكلية، ولكن عدداً من أصدقائي العاملين في المركز كانوا دائمي الشكوى من طبيعة الدوام هناك، وطالما حذورني من ترك الكلية والارتباط بالمركز...

فكنت أجدني في دائرة الحيرة القاسية لأيام وأسابيع... لكنني ما لبثت أن حسمتها بأن قررت البقاء في الكلية، وفاتحت بذلك الشيخ جمعة الماجد نفسه، الذي يبدو أنه استمع لجانب من ممارسات المدير الجديد وجاء شخصياً إلى الكلية لكي ينبهه إلى ما في سلوكه هذا من عدم تقدير للأساتذة ذوي المكانة المعروفة في مدى عالم الإسلام...

ثم ما لبثت أن قررت القيام بزيارة لمكتبه، وإهدائه عدداً من مؤلفاتي وعرض جملة من المقترحات لتنشيط العمل الثقافي في الكلية، بما في ذلك تسجيل جملة من المحاضرات المنزلة على الدسكات لكي تكون بمثابة نواة لمكتبة صورية.. فرحب الرجل أشد الترحيب وخصص أحد الموظفين للقيام

بالمطلوب، حيث تم تسجيل جملة كبيرة من المحاضرات في سياق الفقه الحضاري والتاريخ والفكر الإسلامي.

والمتاعب تنبجس كعيون الماء بين الحين والحين... أذكر منها استجابتي لطلب أحد أساتذة الكلية إلقاء محاضرات مسائية في كلية تمثل فرعاً لإحدى الجامعات السودانية في الإمارات... وذهبت معه بصحبة عدد من التدريسيين الراغبين بالعمل في تلك الكلية، تعزيزاً لرواتبنا المتواضعة التي تقرّر أن نتسلمها من كلية الدراسات الإسلامية... وبعد أن تبادلنا الرأي ووزعنا الموضوعات التي سيتولاها كل واحد منا... تبين لنا، عبر كتاب أصدره مدير كليتنا أن عملاً كهذا ممنوع رسمياً، ولا بدّ من الاقتصار على التدريس في كلية واحدة.

وثمة الجهد المتواصل الذي بذلته لإقناع رئاسة القسم، وأعضائه، وإدارة الكلية، باعتماد كتابي **(دراسة في السيرة)** وكتابي الآخر **(مدخل إلى التاريخ الإسلامي)** ككتابين منهجيين للتدريس في الكلية... وأخيراً تمت الموافقة على الكتابين، وانتظرت أن أحصل على المردود المالي الدسم الذي سبق وأن أعطي للعديد ممن اختيرت كتبهم للتدريس، ولكن دون جدوى... فيما ذكرني بفشل محاولاتي المتواصلة للحصول على حقوقي المالية المتفق عليها من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا عن كتابي الذي تولت طبعه وهو كتابي **(مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية)**... ورغم ذلك فقد كنت سعيداً بالموافقة على تدريس الكتابين، رغم اعتراض أحد الأساتذة على صعوبة تدريس كتابي **(دراسة في السيرة)**، وأن فيه ما يخالف المتفق عليه من السنة، ولكن رئيس القسم عرف كيف يرد عليه ويلجمه.

وكنت قد تقدمت ببحثي الموسع **(الإسلام والتعامل مع الآخر)** إلى المجلة التي تصدرها دائرة الأوقاف في دبي لقاء مبلغ سخي، لكنني بمجرد أن علمت بأن بحثي سيكون ضمن عدد خاص سيصدر حول **(حوار الأديان)**، سحبته

واعتذرت عن نشره في المجلة قناعة مني بعدم جدوى حوار كهذا قد يجيء على حساب الثوابت الإسلامية.

هنالك أيضاً القلق الذي يثيره الإعلان عن الجوائز النقدية الكبرى لهذه المؤسسة أو تلك، مما يغري الإنسان بالمشاركة، وبخاصة إذا توفرت بن يديه المؤلفات الجاهزة للمشاركة... ولا زلت أذكر كيف أعلن عن جائزة سلطان العويس الثقافية، وجائزة سلطان بروناي في حقل دراسات السيرة النبوية، وكيف أنني ترددت طويلاً بين الإقدام والإحجام ثم ما لبثت إراحة لجملتي العصبية أن صرفت النظر عن الموضوع...

وفضلاً عن هذا كله فقد كان ما يقلقني أشد القلق، ذلك التردد القاسي الذي أرهقني كثيراً بين نداء البقاء في الإمارات، والاستجابة لعروض جامعاتها بإغرائها المالي الذي يسيل له لعاب الكثيرين، وبين الرجوع إلى بلدي وعائلتي والتحرّر من صنوف العذاب التي حاصرتني خلال عملي في الإمارات... بما في ذلك الجهد الكلامي عبر المحاضرات بما يسببه من ضيق في النفس، ومتاعب في القلب والذراع... وأعمال التصحيح المرهقة لثلاثمائة دفتر في كل امتحان فصلي، وضرورة إنجاز ذلك في فترة محددة، على حساب ساعات نومي... وضرورة ضبط الدرجات وجمعها فيما كان يضعني لعدة أيام في قلب الجحيم...

إلا أن متاعبي لم تقف عند هذا الحدّ، فقد رافقتني منذ اللحظات الأولى لوصولي إلى الإمارات واستمرت لأكثر، من عام... إنها متاعبي الصحية مع القلب، وضيق النفس، والغثيان، ووسواس التجلط في ساقي الأيسر، حيث كنت أتجه إلى الكلّية صبيحة كل يوم، في سيارة أحد الأساتذة، في طريقنا من الشارقة إلى دبي وسط الزحمة في المرور، فيما يستغرق أكثر من نصف الساعة رغم ضيق المسافة بين البلدين... فكنت عبر الطريق أعاني من الغثيان المزعج حتى إذا ما بلغنا الكلية وبدأت المحاضرات... أخذ ضيق النفس يحاصرني بعنف، ولا أدري كيف كنت أنجز المحاضرة وأهيمن على الطلاب

والطالبات وأنا أسحب أنفاسي بصعوبة، لكي ما يلبث المشهد أن يتكرر عبر المحاضرات التالية...

ويوماً عبر إحدى اللحظات المعتمة في حياتي، حدثت زميلي العزيز الدكتور خالد الحمداني عن تخوفي من الموت في الغربة بعيداً عن الأهل والديار، وإذا بي أجده يبكي بصمت... ومرة، ونحن نراقب امتحانات الطلبة في إحدى القاعات، أصابني الدوار، ووقعت على الأرض للحظات، فإذا بالأخ الحمداني يهرع إلي لكي يعينني على النهوض، ثم غادر القاعة للإتيان بجملة من العصائر، وآثار القلق بادية على وجهه.. إنه واحد من النماذج البشرية التي تتدفق محبة ووفاء... وطالما دعاني وزوجتي إلى شقته في البناية التي كنا نقطن فيها، لتناول الغداء العراقي الشهي... إلّا أن هذه الحالة المرضية ما لبثت أن زالت بمرور الوقت بفضل اللّه وحده...

لكن الذي استمر الأشهر الطوال هو وسواسي بصدد متاعبي مع القلب، وجلطة الساق، ومراجعاتي اليومية المتواصلة للمراكز والعيادات الطبية والمستشفيات، وإنفاق ملايين الدنانير بحثاً عن الاطمئنان، ثم ما لبثت بعد إجراء جملة كبيرة جداً من الفحوص والأشعة بمختلف الأجهزة الطبية الحديثة، بما فيها الدوبلر، والمفراس، والإيكو... والسونر... الخ... أن تبيّن ألّا علاقة لمتاعب الساق بالقلب الذي بدا أنه يعمل بشكل سليم والحمد للّه...

ومع متاعب القلب والساق، تدفقت علي جملة من المتاعب الصحية متمثلة حيناً بآلام مفصل الركبة اليمنى الذي استمر لأكثر من شهر، وحيناً آخر مع السعال المتواصل والتهاب الجيوب الأنفية، وحيناً ثالثاً مع أوجاع في عظام الصدر وتنميل الذراع الأيسر... كما تمثل بمتابعاتي المتواصلة لعلاج الأسنان... وتشقق الجلد في ظاهر كفي، وآلام الفقرات القطنية السفلى، وبتلك الضربة القاسية التي تلقتها فقراتي وأنا أنهض قائماً، فإذا بي أصطدم بالمنضدة الحديدية، وثقلها الكبير الذي تمركز عند أسفل الظهر... هذا إلى حالة

الاختناق القاسية التي كنت أعانيها وأنا أسجل عدداً من الحلقات لإذاعة الشارقة، الأمر الذي دفعني إلى التوقف النهائي عنها.

وثمة جبهة الصراع والمتاعب مع العروض الإعلامية في الفضائيات والإذاعات، التي كانت تتدفق عليَّ كالسيل، فكنت أوافق على بعضها وأعتذر عن بعضها الآخر لأسباب شتى... ولا زلت أذكر عرض الدكتور نجيب عبد الوهاب لتسجيل برنامج من ثلاثين حلقة في فضائية دبي حول الفقه الحضاري، واصطحابي معه إلى مدير الفضائية الذي رحب بنا أشد الترحيب، وتم الاتفاق على تسجيل البرنامج، لكن المشكلة كانت تكمن في البحث عن الشخص المحاور الذي تبدت عدم قدرته على إدارة الحوار منذ الحلقة التجريبية الأولى... فصرفت النظر عن الموضوع مؤقتاً... ثم ما لبث الدكتور نجيب عبد الوهاب أن اصطحبني مرة أخرى لمقابلة مدير فضائية دبي، حيث تم الاتفاق على تسجيل عدة حلقات في سياق مهرجانات قرية دبي العالمية للتسوّق والتي تقام في كل سنة...

ولكني ما أن فارقت المكان حتى تذكرت أن هذه المهرجانات كانت ترفع شعارها المعروف: قرية عالمية واحدة... وطن واحد، فيما يرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بالشعار الماسوني المعروف، فما لبثت أن اعتذرت عن تسجيل الحلقات، مطالباً بحلقات مستقلة بعيدة عن الارتباط بالمهرجان... وأخيراً تمكن الدكتور نجيب أن يسجل معي ثلاث حلقات مستقلة في تلك القناة عن جانب من الفقه الحضاري، وحلقة أخرى دعيت للمشاركة فيها عن مفهوم الاقتصاد والإعمار الإسلامي.

وثمة عروض عديدة أخرى تدفقت علي من قناة الشارقة الفضائية لتسجيل عدة حلقات أسبوعية في برنامج كان يديره أحد الشيوخ السوريين العاملين في القناة ويدعى (فائز قيمة)، وقد ترددت في تسجيل الحلقة الأولى خشية من الوقوع في المطبات السياسية التي يثيرها السائلون عبر الحوار، فيما يقتضي التنازل، بشكل أو آخر، عن موقفي المبدئي الثابت: ألّا أجامل أحداً، أميراً كان

أم شيخاً أم سلطاناً، ولكني ما لبثت أن وافقت على الثانية بمعية الأخ الدكتور خالد الحمداني حول موضوع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، حيث ما لبث أحد السائلين أن راح يكيل المديح لحاكم الشارقة سلطان القاسمي، ويرد عليه مقدم البرنامج بمديح مثله، الأمر الذي جعلني أنكمش قليلاً وتتغير نبرة صوتي إلى شيء من الجفاف الملحوظ، وأعود إلى الشقة في وضع لا أحسد عليه، حتى أنني في الحلقة التالية صارحت المحاور الشيخ القيمة، دون أي قدر من التردد في ألا يعود لمثلها مرةً أخرى، وألا يسمح بمداخلات كهذه يمكن أن تمرّر عبر التسجيل، فوافق على مضض...

وعندما أثيرت قضية الثروة النفطية، وطرائق التعامل معها في البلدان العربية، أعربت عبر الحوار عن رأيي الواضح في ضرورة توظيف هذه الطاقة الهائلة التي حبانا الله بها توظيفاً سياسياً لإرغام الغرب على الاعتراف بشيء من حقوقنا، أسوةً بما فعلناه في حرب تشرين عام (١٩٧٣م)...

ويبدو أنني بحديثي هذا تجاوزت الخطوط الحمراء للإعلام الإماراتي، فما كان مني إلا أن أتلقى في الأسبوع التالي اعتذاراً من أحد موظفي القناة عن الاستمرار على تسجيل الحلقات، وأتلقى معه خبراً عن إحالة الشيخ المحاور على التقاعد وكفه عن العمل في القناة... ثم ما لبث، ربما بسبب من تأثره لهذا الموقف، أن توفي بعد أيام قلائل رحمه الله.

وثمة جملة من الحلقات الإذاعية سجلتها في إذاعة الشارقة عن التاريخ الإسلامي، وحلقات أخرى سجلتها في إذاعة القرآن الكريم في أبو ظبي عن الفكر الإسلامي... وعدد من المشاركات الحوارية التي كنت أدعى إليها بين الحين والحين... هذا إلى الاتفاق مع الأخ الداعية الدكتور جاسم المطوع لتسجيل أربع حلقات لبرنامجه المشفّر عن سيرتي الذاتية وجوانب من الفكر الإسلامي، وأربع حلقات أخرى عن مفهوم تراكم الجهد في المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي... وحلقة واحدة عن قضية الإسلام والمرأة.

ويوماً عرض علي بعض الأخوة المصريين في إحدى القنوات الإذاعية

العربية تسجيل جملة من الحلقات الصوتية لغرض تنزيلها على أشرطة الكاسيت وتسويقها بعد ذلك... فكنت أذهب عصر كل يوم بمعية أحدهم لتسجيل الحلقات في أحد جوامع الشارقة، وكنت أعاني الأمرين وأنا أمارس التسجيل مع ضيق النفس القاسي الذي كاد يسقطني أرضاً أكثر من مرة، فيما ذكرني بمعاناتي أيام تسجيل ثلاثين حلقة لإذاعة أبو ظبي للقرآن الكريم عام (١٩٨١م)...

حتى إذا أتممنا ما يزيد عن العشر حلقات، وأرسلت إلى الجهات المعنية لتنقيتها وتنزيلها، إذا بي أفاجأ بإخراج حلقة واحدة منها، أما الحلقات الأخرى فلم أعرف عن مصيرها شيئاً، وأما المردود المالي فلم يصلني منه درهم واحد رغم متابعاتي المتواصلة حول الموضوع... لماذا؟ لست أدري؟!

يضاف إلى ذلك كله الدعوات التي كانت تأتيني من فضائية قناة الجزيرة للمشاركة في الحلقات التي كان يديرها الأخ الأستاذ (ماهر عبد الله) ﷺ في برنامج الشريعة والحياة حيث سجلت بمعيته حلقتين تم التركيز فيهما على فضائح السياسة الأمريكية والفلسفات الأكثر حداثة في (نهاية التاريخ) و(صراع الحضارات)، فيما نال استحسان كل الذين تابعوا الحلقتين بشغف وعبروا عن إعجابهم بالطرح وبالمادة التي تمت مناقشتها... بدءاً من مدير القناة نفسه وانتهاء بكل المعارف والأصدقاء الذين انهالت عليّ مكالماتهم الهاتفية للتعبير عن تقييمهم للحلقتين، مروراً بمكالمة من الأخ خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لمنظمة حماس المجاهدة، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي فقيه الأمة... الأمر الذي دفع الأخ ماهر عبد الله إلى الاتصال بي ثالثة لتسجيل حلقة أخرى، تمّ تحديد موعدها، وحزمت أمري على السفر إلى الدوحة لتسجيلها، لكن تبين في المطار أن إقامتي في الإمارات قد انتهت وأنني إذا غادرتها فلن يكون بمقدوري العودة إليها مرةً أخرى، فتلفنت للأخ ماهر معتذراً وقفلت عائداً...

هذا إلى جبهات عمل وقلق وكدح متواصل أخرى، كادت تأتي على سكينتي

وعافيتي... فهنالك مطالب المعارف والأقرباء من الموصليين للبحث عن فرصة عمل لهم، أو لإتمام دراستهم في الإمارات... وجبهة الخلافات بين الأصدقاء العاملين في الإمارات وبذل الجهود المتواصلة لحلّها... وجبهة العمل التأليفي المتواصل في الشقة الذي كان يستغرق مني الساعات الطوال، بما في ذلك تهيئة المقالات الأسبوعية لجريدة الشرق القطرية... وجبهة الاتصال بالناشرين، عبر المعارض الدولية للكتاب وتسليمهم بعض أعمالي لغرض نشرها... وجبهة المتاعب العائلية في استدعاء الزوجة لأداء مراسم الحج وما اقتضته من جهود متواصلة، وضرورة اتخاذ موقف بخصوص المتقدمين لخطبة ابنتي مها...

وجبهة عروض العمل المغرية في جامعات الإمارات، وبخاصة جامعتي العين والشارقة... والانقسام إلى شطرين يرنو أحدهما للبقاء في الإمارات والعمل في هذه الجامعات ذات الميزات المالية والأدبية العالية، ويرنو الآخر إلى تلبية مطالب العائلة في إنهاء التعاقد والعودة للاستقرار في الموصل... إنها الحيرة القاسية وموقف (الففتي ففتي) الذي طالما تحاشيته وهربت منه، لكنه ظل يلاحقني ويهصرني بين فكيه القاسيين وأنيابه الحادة...

وجبهة الجوائز المالية والأدبية المغرية للمتقدمين إليها من مثل جائزة (سلطان العويس) وجائزة (سلطان بروناي)، ثم القرار الحاسم بعدم التقدم إليها بسبب من علمانية القائمين عليها أو ارتباطاتهم السياسية المشبوهة... جبهة تقويم البحوث العديدة التي كانت ترسلها إلى الجامعات المختلفة ومراكز البحث في الإمارات وخارجها... فضلاً عن مطالبتها بالكتابة إليها وتزويدها بالبحوث المختلفة.

وثمة بعد هذا وذاك، وقبلهما، الدعوات المتواصلة لإلقاء المحاضرات الأكاديمية والفكرية والأدبية، في هذه الجامعة أو تلك، وفي هذا المركز الثقافي أو ذاك...

فلقد أتيح لي أن ألقي جملة من المحاضرات في كل من جامعة العين، وجامعة الشيخ زايد، وجامعة عجمان، فضلاً عن كلية الدراسات الإسلامية

والعربية، ومركز حماية اللغة العربية في دبي... حيث تلقيت بقبول حسن، الأمر الذي دعا القائمين على الأنشطة الثقافية لتلك الجامعات إلى دعوتي أكثر من مرة لإلقاء محاضراتي، التي كنت أوجهها توجيهاً إسلامياً، ينقد ويرفض ويختار في ضوء الثوابت والهموم الإسلامية في مجالات الفكر والتاريخ والحضارة والنقد والأدب... ولله الحمد على توفيقه...

هنالك أيضاً الدعوات العديدة التي انهالت عليّ لحضور الندوات والمؤتمرات العلمية والفكرية والأدبية من بلدان شتى... المغرب (٢٠٠١م)، الولايات المتحدة (٢٠٠١م)، وفرنسا (٢٠٠١م)، ولبنان (٢٠٠٢م). هذا إلى جملة كبيرة من الدعوات التي اعتذرت عن حضورها لأسباب شتى (الجزائر، النيجر، السويد، اليمن، سلطنة عمان، إيرلندة، السعودية، الكويت، مصر، الهند، باكستان، ماليزيا، إنكلترا... الخ)... الخ...

فأما الرحلات التي نفذتها فكانت للمشاركة في مؤتمر حول الأدب الإسلامي في مدينة أغادير الرائعة المطلة على المحيط الأطلسي، حيث قضينا هناك أربعة أيام مترعة بالعطاء في سياق الأدب الإسلامي تخللتها جملة من الدعوات على الغداء والعشاء، حيث الأكلات المغربية المتميزة من البصطيلة والكسكس والطواجن والمشويات التي كانت تقدم لنا بسخاء، ثم ما لبثنا بعد انتهاء المؤتمر، وبعد حضور أمسية رائعة من الأناشيد الإسلامية بالأصوات المغربية الرائعة، أن يممنا وجوهنا صوب الرباط العاصمة حيث بقينا هنالك ليلتين أتيح لي خلالهما التجوال منفرداً في شوارع الرباط ومتنزهاتها ومقاهيها...

وكان المشاركون في المؤتمر مجموعة متجانسة من رموز الأدب الإسلامي من الأصدقاء والمعارف بمن فيهم الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وذراعه الأيمن الأستاذ الدكتور عبد الباسط بدر، والأستاذ الدكتور الشاعر الناقد وليد القصاب، والأخ الشاعر المبدع مصطفى عكرمة، والدكتور الشاعر حسن الأمراني، والدكتور الناقد علي

لغزيوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والدكتور الناقد محمد حلمي القاعود... والأخ الناقد الشاعر الدكتور بسام ساعي، الذي اتحفنا بقصيدة عن الأم كانت من أروع ما قيل في الأم من قصائد على الإطلاق... وغيرهم ممن كانت المحبة تغمر قلوبهم، وعلاقات الود والانسجام تسود بينهم جميعاً...

وأما الثانية، فكانت من المعهد العالمي للفكر الإسلامي في فيرجينيا في الولايات المتحدة.. وقد وضعتني هذه الدعوة في حالة قاسية من التردد، بعد أن أطلعت على شروط التقديم لطلب التأشيرة، حيث يتحتم على مقدم الطلب أن يعلن عن عدم انتمائه أو تعاونه مع أية منظمة إرهابية... ولما كانت حماس مرشحة لأن تكون إحدى هذه المنظمات، فقد أدخلني ذلك في حلقة قاسية من عذاب الضمير، ودفعني للاعتذار عن تلبية الدعوة، لكني عندما عرضت الأمر على عدد من الشيوخ والأساتذة، أشاروا علي بالذهاب وعدم التردد... ومن ثم بدأت مطحنة الحصول على التأشيرة... فبعد شهر من تقديم الطلب، جاء موعد الذهاب إلى القنصلية الأمريكية والوقوف في طابور طويل لعدة ساعات... حتى إذا ما وصل الواحد منا إلى الموظف المسؤول وتلقى بعض الأسئلة... كان جوابه بالرفض أو القبول... أما بالنسبة لي فقد كان الرفض، وغادرت القنصلية سعيداً فرحاً بتجاوزي محنة السفر إلى الولايات المتحدة، وإن كنت أريدها لشيء واحد، فضلاً عن إلقاء جملة من المحاضرات في جامعة العلوم الاجتماعية... ألا وهي مراجعة الأطباء المتخصصين هناك حول أوضاعي الصحية... فالحمد لله...

وأما الثالثة، فكانت إلى فرنسا بدعوة من الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية (يمكن للقارئ أن يتابع يومياتها في الفصل الخاص بالرحلات الخارجية).

وأما الرابعة، فكانت دعوة من هيئة المدارس الإسلامية في طرابلس التي يرأسها الأخ الداعية غسان حلبص، الذي سبق وأن تعرفت عليه في بداية

سبعينيات القرن الماضي، يوم كان يكتب المقالات الدسمة في جريدة **(المجتمع)** اللبنانية، يعرّف فيها بكتبي الصادرة حديثاً...

والحقّ يقال، فقد كانت رحلة رائعة، حيث كان في استقبالي في المطار الأخ والصديق توفيق العوجي، وحططت الرحال في أحد فنادق بيروت المطل على البحر المتوسط، وقمت بجولة ليلية ممتعة على طول الكورنيش... وفي اليوم التالي زرت والأخ العوجي جناح الشركة المتحدة، وقدمت إليهم كتابي الجديد عن القضية الفلسطينية بعنوان **(أولى ملاحم القرن)**، ثم دعيت إلى الغداء بمعية الأخ الداعية الأستاذ إبراهيم المصري والأخ الداعية الشيخ فيصل المولوي رحمه الله... ثم ما لبثت السيارة أن أقلتنا عبر رحلة بديعة إلى مدينة صور جنوب لبنان، حيث زرنا معالمها التراثية، وألقيت محاضرتي الأولى فيها، ثم تناولنا العشاء وقفلنا عائدين شمالاً إلى طرابلس حيث حططنا في أحد فنادقها المتميزة.

في اليوم التالي وبعد وجبة دسمة من الغداء اللبناني الشهير بتنوع مقبلاته وأشكاله، والتي حضرها كبار المسؤولين والدعاة في طرابلس... ثم ما لبثت أن ألقيت بعدها محاضرتي الثانية... وفي اليوم التالي، وبعد جولة في أنحاء طرابلس وزيارة لجامعة الإيمان الإسلامية، حيث استقبلتنا الدكتورة منى زوجة الداعية فتحي يكن رحمه الله، وطافت بنا في قاعات الجامعة وأروقتها... انطلقنا إلى بيروت حيث زرنا الأخ الأستاذ زهير الشاويش رحمه الله، الذي تكرم علينا بتأجيزنا في العلوم الإسلامية.

ثم انطلقنا إلى سهل البقاع حيث وصلنا ظهراً إلى مقر الداعية الكبير الأستاذ خليل... ودارت بيننا أحاديث شتى، ثم تناولنا الغداء وانطلقنا بعدها جنوباً إلى إحدى مدن السهل، حيث حضرنا حفلة زفاف أقيمت هناك لأحد الدعاة، ومنها إلى بيروت حيث بت ليلتي في الفندق، وفي اليوم التالي جاءني الأخ توفيق العوجي، لكي نتناول الغداء في أحد المطاعم الفارهة، ولكي أقيم في مكتب بيروت للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ورشة عمل استغرقت أكثر من

أربع ساعات، تحدثت فيها عن جملة من الأمور الفكرية الملحة، جرى حولها حوار خصب... ثم ما لبث الأخ العوجي أن أوصلني إلى مطار بيروت، عائداً إلى الإمارات.

بعد تلك الرحلة جاءتني والأخ الدكتور خالد الحمداني دعوة من صديق عماني لزيارة عمان وعاصمتها مسقط... وعبر يوم واحد انطلقنا فجراً بسيارة الصديق، حيث اجتزنا مزارع وبساتين تنتشر في شرايينها العيون المائية العذبة، والحصون التراثية... في طريقنا إلى مسقط التي تجولنا في أنحائها، وصلينا في مسجد السلطان قابوس، الذي تعجز الكلمات عن وصف فخامته، وتصميمه ولوحاته الرائعة، وثرياته العملاقة، وسجاجيده الإيرانية الرائعة...

ثم غادرناه تلبية لدعوة على الغداء من الأخ الفاضل الدكتور عبد العليم السعدي، خرجنا بعدها للقيام بجولة بحرية في خليج عمان، وزيارة لأحد شيوخها المعروفين، ثم قفلنا عائدين ونحن نتبارى في المسابقات الشعرية ونتبادل الأحاديث والنكات... وقد عدنا ومعنا صيد ثمين من الحلوى العمانية المعروفة، والتي زرنا أحد معاملها واطلعنا على طريقة صنعها...

أما رحلة الحج في ربيع عام (٢٠٠١م) بمعية زوجتي... فلها قصة أخرى... لقد جاءت زوجتي، بعد جملة من المتابعات المرهقة، إلى الإمارات قبل حوالي الشهر من موعد الحج، واضطر الأخ لقمان إلى ترك شقتي حيث استقرت الزوجة، ومضت الأيام ونحن نتابع إجراءات الحج، ونتناول غداءنا في الشقة، وأما العشاء فكنا نخرج لكي نتخطى، ونستقر في أحد المطاعم الرائعة... ثم نتجه إلى شارع الكورنيش لكي نقضي الساعات الممتعة هناك... هذا إلى تجوالنا في الأسواق والسوبر ماركتات، وتلبية الدعوات العديدة التي انهالت علينا...

حتى إذا ما اقترب موعد الحج، ولم يتبق على مغادرتنا الشارقة للديار المقدسة سوى يومين، أو ثلاثة... جاءتني حالة الغيبوبة والإغماء ونحن نتناول عشاءنا في مطعم الطازج... وهرع عمال المطعم لإعانة زوجتي على اللحظات

الصعبة التي اجتازتها وأنا في حالة الإغماء... ثم ما لبث أن أفقت ونقلت إلى الشقة لكي أتمدّد هناك بانتظار الطبيب الدكتور محمد جميل الحبال الذي طمأنني على وضعي الصحي...

ولكنني، مع ذلك... كنت خائفاً من أن يحبط جهدي مع الحج، بسبب مضاعفات الحالة، ودعوت الله ﷻ من أعماقي أن يقيني كل سوء وأن يشفيني... وما لبثت الاستجابة أن جاءت، واستعدت عافيتي الكاملة التي أعانتني وزوجتي على تأدية مراسم الحج دون أية مصاعب... والحمد لله...

هل تركت لي تلك الهموم والمتابعات اليومية والمعاناة الصعبة، على مدى موسمين دراسيين، هامشاً للأفراح والمسرات؟ فرصاً للراحة والاسترخاء؟ بكل تأكيد... وتلك هي سنة الحياة، ونواميس الله تعالى في الخلق، وهو القائل في محكم كتابه العزيز: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]...

وهكذا وجدتني منذ الأيام الأولى، وحتى نهاية العامين الدراسيين في الإمارات، أرتب لنفسي منهجاً يومياً للترفيه والاسترخاء... ولحسن حظي، أنا الذي عشقت منذ صغري الجلوس اليومي في المقاهي والكازينوات، أن أجدني في الشارقة، وعلى بعد مسافة قريبة من شقتي، أمام المقهى الشعبي المطل على البحيرة والذي وجدت فيه ضالتي مساء كل يوم، حيث كنت أجلس هناك الفترات الطوال حتى ساعة متأخرة من الليل، أطالع، أو استرخي، أو أرتب المواعيد مع الأصدقاء، وما أكثرهم، أو أجلس قبالة التلفاز لمتابعة مباريات الدوري لكرة القدم... أشرب الشاي... وآكل الباقلاء المسلوقة... وأحاور الأصدقاء والقادمين من الموصل. يا لها من ساعات رائعة كنت أحرص عليها يوماً بيوم...

وكان العديد من الأساتذة والأدباء والمفكرين والمخرجين والفنانين، يضربون معي مواعيدهم في هذا المقهى الشعبي، حيث كنا نتبادل وجهات النظر في العديد من الأمور ونتفق على جملة من المشاريع الفكرية والفنية والأدبية...

وكنت صباح كل يوم أتجه إلى الكلية برفقة أحد أساتذتها من أصحاب السيارات، من الذين يقطنون في شقق كلية الدراسات الإسلامية المجاورة... وألقي محاضرتي الأولى في دبي... ثم أتجه إلى المطعم اللبناني القريب من الكلية لتناول الفطور من الأرغفة الرائعة بالجبنة والزعتر واللحمة... ثم ما ألبث أن أعود إلى الكلية لاستئناف محاضراتي... ولم يكن غدائي بعد عودتي ظهراً إلى الشقة سوى لقيمات معدودات، وأتناول بعدها عدة حبات لذيذة من المانكو، ثم استلقي على السرير للمطالعة بعض الوقت، قبل أن تأخذني سنة من نوم القيلولة العميق، حيث أستيقظ بعدها لأداء صلاة العصر في الجامع المقابل للشقة، ثم الجلوس إلى المكتب، الساعات الطوال، لإنجاز العديد من البحوث والمقالات والتنقيحات، ولتقويم ما كان يتدفق علي من هذه المجلة أو تلك ومن هذه المؤسسة أو تلك...

وأستمر في العمل حتى صلاة العشاء التي أصليها في الجامع، ثم أنطلق بعدها، وقد عصرني الجوع، للقيام بجولة مشي سريع يستغرق أكثر من نصف الساعة، عبر شوارع الشارقة، لكي ما ألبث أن أدخل أحد المطاعم لتناول وجبتي الدسمة من العشاء الذي أحاول أن أحسن اختياره من الدجاج المشوي والمتبل أو الشاورما، أو السمك المقلي أو المزكوف على الطريقة العراقية، أو البتزا الرائعة، أو الفول والفلافل والفتة التي يتقن صنعها مطعم الكلحة القريب من الكورنيش، أو الدجاج المسحب، أو الكبة الموصلية، أو الرز والمرق... أو اللحم بعجين، أو الأكلة الشامية الرائعة المسماة بالمعجوقة وهي خليط من العجين المحمص المترع باللحم والمشوي بالفرن الحجري...

ثم أغادر المطعم باتجاه المقهى الشعبي لقضاء الساعات الطوال هناك قبل أن أقفل عائداً إلى الشقة لاستكمال الأمسية مع التلفاز أو المطالعة حتى ساعة متأخرة من الليل، لكي ما تلبث سنة النوم العميق أن تأخذني بعيداً...

ولم يكن ذلك كله ليتمّ بمفردي دائماً... وإنما كان في كثير من الأحيان بصحبة زميل الشقة الأخ لقمان عثمان، الذي أمّم سيارته التي كان يستأجرها

من أحد المكاتب الأسابيع الطوال... فكنا نتناول عشاءنا سوية، ونستقبل الزائرين من الموصل الذين كانوا يتدفقون على الإمارات، أسبوعاً بعد أسبوع، وندعوهم لتناول العشاء، ومن بعده لجلسة طيبة في المقهى الشعبي الذي أصبح لشدة ارتباطنا به مقترناً بي في ذاكرة الموصليين العاملين في الإمارات، وهم يسترجعون الأمسيات الجميلة التي كانوا يقضونها معنا هناك في ذلك المقهى...

وكنت والأخ لقمان نتجه في أعقاب كل أمسية، وفي ساعة متأخرة من الليل، لتناول الآيس كريم (أو الدوندرمة) في محل الطرابلسي الرائع في الشارقة، حتى أننا لعشق ما كان يقدمه لنا من مرطبات أصبحنا من المدمنين عليها... وكنا نلحظ على جدران محله مجموعة من الصور التي يبدو فيها المغني الطرابلسي المعروف وليد توفيق واضحاً، فكنا نسأله عن هذه الخصوصية فكان يقول مفتخراً: إنه صديقي الحميم... وأنه عرف بمحبته العميقة لأمه... رغم أنني شخصياً كنت لا أرتاح لصوته وصورته معاً عندما كان يندلق بأغانيه عبر التلفزيون، تلك التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة.

وكان العديد من الأصدقاء والأساتذة العاملين في الإمارات من العراقيين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين... بل من الإماراتيين والخليجيين أنفسهم... يدعوننا على الغداء أو العشاء، حيث تمدّ الأطعمة والقوازي المشوية ومختلف صنوف الأطعمة، وأذكر ممن تولوا دعوتي والأخ لقمان كلا من الدكتور حسام النعيمي، والدكتور فاضل السامرائي، والدكتور حسام السامرائي، والدكتور السعدي، والدكتور البلوي، والدكتور جاسم المطاوع، والدكتور حارث الضاري، والدكتور عدنان الدليمي، والدكتور محمد الهاشمي، والأخوين معاذ ووائل عبد الجبار، والأخ محمد الحمراوي، والدكتور حازم سعيد، والدكتور عمر الساريسي ﷀ، والدكتور خالد الحمداني، والدكتور المعشوق، والدكتور سلطان العلماء، والدكتور حمد الكبيسي ﷀ، والمهندس خالد حمو النيش ﷀ، وعدد

كبير آخر ممن لم تحضرني أسماءهم بعد مرور السنوات الطوال على وجودي هناك...

كما تم ترتيب لقاءات أسبوعية مع الأخوة الأساتذة فاضل السامرائي وبهجت الحديثي وحسام النعيمي لتناول العشاء في أحد مطاعم الشارقة، حيث كنا بعد مغادرة المطعم يستقر بنا المطاف في المقهى الشعبي لتبادل المطاردات في الأبيات المرتجلة من الشعر، حيث كان أحدنا يرتجل عجزاً ويتحدى الآخرين بأن يأتوا بشطره، أو بالعكس، فكانت تحدث مفارقات تثير الضحك العميق...

وكانت هنالك دعوات الغداء أيام الجمع في قصر الشيخ سيف الغرير، التي كان يحضرها الدكتور أحمد الكبيسي ولفيف من المدعوين، حيث تقدم أنواع رائعة من السمك المقلي وغيره من ألوان الطعام... وكان هذا الرجل الذي بدأ حياته كادحاً في صيد اللؤلؤ يعشق الفكر والثقافة... وكنا نجتمع في أحد الأيام من كل أسبوع في مكتبه بدبي أنا والدكتور حارث الضاري والأخ لقمان والدكتور حازم سعيد وحشد من المعنيين بالهمّ الثقافي، حيث يلقي كل واحد منا عبر اليوم الذي يتم الاتفاق عليه محاضرة في الموضوع الذي يختاره، وقد أتيح لي أن ألقي محاضرة عن سقوط الدول والحضارات من المنظور القرآني، التي نالت إعجاب الحضور فطالبوا بالمزيد.

وبين الحين والحين، كان الأخوة الموصليون العاملون في الإمارات يتفقون على القيام برحلات مشتركة إلى هذا المتنزه أو ذاك، حيث نقضي هناك يوماً جميلاً، نلتقط خلاله الصور التذكارية، ونتبادل الأحاديث والنكات، ونتناول صنوف الأطعمة، ونمارس شتى أنواع اللعب، ثم نقفل عائدين.

وكانت دعوات العشاء تقام أحياناً في الحدائق والمتنزهات الداخلية للشارقة، حيث يتدفق المدعوون، ويقضون هناك ساعات طيبة حتى ساعة متأخرة، مع تناول الشواء والأحاديث والنكات.

وثمة تلك الأمسيات الرائعة، التي كنا نرتبها مع بعضنا وندعو لها مشاهير

المنشدين الإسلاميين السوريين والإماراتيين والعراقيين من مثل: أبي الجود والعزاوي وأسامة الصافي وغيرهم، ويتولى أحدنا شراء مفردات العشاء، ثم تبدأ بعده أمسية الاستماع للأصوات العذبة التي كانت تسحرنا، فنستمر في أمسيتنا تلك حتى مطلع الفجر...

وعندما اقترب الموسم الدراسي الأول (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١م) من نهايته، وجهت إليّ إدارة الكلية كتاب شكر وتقدير على جهودي المتميزة، ورغم ذلك أعربت للإدارة عن رغبتي في إنهاء عقدي، ولكن المدير أصر على تمديده لسنة أو لسنوات أخرى، ربما بعد أن اطلع على أجوبة الطالبات بخصوص الاستمارات التي توزع عليهن لإبداء تقويمهن للتدريسيين، والتي لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها.

ويبدو أن معظم الطالبات قد قيّمن أدائي التدريسي بما دفع إدارة الكلية إلى التشبث بي وبعدد آخر من التدريسيين، وإلى إنهاء عقود العديد الآخر منهم لهذا السبب أو ذاك... هذا إلى اطلاع إدارة الكلية على مجمل نشاطي داخل الكلية وخارجها، فيما سبق وأن ألمحت إلى جانب منه.

وبعد أن اتصلت بأسرتي في الموصل، حيث كانت زوجتي قد غادرت الإمارات في أعقاب إتمام مراسم الحج، تم الاتفاق على التمديد لسنة واحدة أخرى.

ثم ما لبثت أن غادرت الإمارات، بعد عودتي من فرنسا، في تموز عام (٢٠٠١م)، في طريقي إلى الموصل، حيث لم يتبق من العطلة الصيفية المعطاة لنا سوى أقل من شهر، وحيث لم يترك لي الأصدقاء الذين انهالت عليّ دعواتهم، فرصة كافية للجلوس مع أسرتي... إذ ما لبثت الأسابيع القليلة أن انقضت... وفي أواخر آب يممت وجهي ثانية صوب الإمارات عن طريق الأردن... بعد أن رتبت أمر قدوم زوجتي بعد شهر واحد لقضاء الفصل الدراسي الأول، والعودة بمعيتي إلى الموصل في العطلة الربيعية.

لا راحة لمؤمن في دار البلاء... هكذا رحت أردد مع نفسي لحظة دخولي

الكلية ومفاجأتي باثنتين سيقدر لإحداهما أن تضعني ثانية في دائرة العذاب لأكثر من شهر... فأما أولاهما فهي صدور أمر مدير الكلية بإلغاء عضوية كل من الدكتور حاتم الضامن والدكتور حارث الضاري من هيئة تحرير مجلة (كلية الدراسات الإسلامية) وكنت وإياهما، في الموسم الماضي، نعمل سوية في هيئة التحرير حيث أصبحتُ مقرراً للمجلة...

وكنا ثلاثتنا من أشد الرافضين لرغبة مدير الكلية بحصر قبول البحوث أو رفضها، بعد مطالعتنا وإبداء رأينا بخصوصها، به شخصياً، بمعنى تجريدنا من أهم ما يتميز به أعضاء هيئة التحرير في كل مجلات الدنيا...

ثم جاءت العطلة الصيفية لكي يجمد الموضوع. ولكن ما أن بدأ الموسم التالي حتى صدر القرار المذكور بإلغاء عضويتهما والإبقاء عليّ، فكأنه كان يريد توظيف سمعتي العلمية بإبقائي في هيئة التحرير، لكن مع تجريدي وبقية الأعضاء من صلاحيتنا الأساسية وهي قبول البحوث أو رفضها.

أغاظني هذا الموقف كثيراً، على ما في ظاهره من مجاملة، كما أغاظ كلًّا من الدكتور الضامن والدكتور الضاري، وراحا يلحان عليّ بأن أرفض عضويتي في المجلة حفاظاً على كرامتي... ولكني إزاء تقدير المدير لي قررت أن أتريث قليلاً وأن أبدأ أولى خطواتي بالتأكيد على رئيس هيئة التحرير الجديد، وهو أستاذ ليبي عيّنه المدير عميداً للكلّية، وكان أشبه بالظل التابع للمدير، لا حول له ولا قوة، أسوةً بالعميد السوداني السابق، للأسف الشديد، وذلك بتقديم طلب تحريري من هيئة التحرير بإعادة صلاحيتها بخصوص قبول البحوث أو رفضها، وسحب هذه الصلاحية من يد المدير ورحت ألح عليه في ذلك، وهو يماطل ولا يكاد يفعل شيئاً...

وحينذاك فقط قررت تقديم استقالتي من الهيئة، وكفى الله المؤمنين القتال، فيما لقي لدى الضامن والضاري والعديد من أعضاء هيئة التحرير قبولاً حسناً.

وأما الثانية فهي صدور الأمر بتعييني رئيساً لهيئة التحكيم في الخلافات الإدارية التي تنشب بين التدريسيين والإداريين. وقد عرضت عليّ إحدى

الإشكاليات، وكان المدير يرغب في إنزال العقوبة القاسية بأحد الأطراف وفصله من عمله، قبل أن يتم التأكد من تفاصيل الموضوع، ولكني رفضت هذا الموقف، واجتمعت بأعضاء الهيئة وبالمتخاصمين لسماع وجهات النظر في الخلاف القائم... فلما تبين لي الموقف بأبعاده كافة قررت أن أقوم بالتنبيه الشفهي للمتخاصمين، وحذرتهم من أن يعودوا لمثلها مرةً أخرى... دون أن ألحق بأي منهم العقوبة التي تقطع رزقه وتورثني الندم الشديد.

قضيت رمضان هذا العام بمعية زوجتي التي لحقت بي قبيل حلوله بأيام... كانت أجواء الخريف في الإمارات رائعة والصيام مريحاً، وكنت بعد عودتي عصراً من الكلية، أيمِّم وجهي لكي أتخطى عبر شوارع الشارقة لمدة نصف ساعة، وهي التي نصحني الأطباء بممارستها يومياً... وأعود قبيل دقائق الإفطار لكي نتناول فطورنا الموصلي اللذيذ، ثم ما نلبث بعد أداء صلاة التراويح في الجامع القريب، أن نغادر المكان في طريقنا إلى الكورنيش حيث يتجمهر الناس هنا وهناك... ونجلس في القسم العائلي للمقهى الشعبي... أو نقضي أمسيتنا في دار أحد الأصدقاء، ثم ما نلبث في ساعة متأخرة أن نقفل عائدين لتناول السحور.

ولقد انهالت علينا الدعوات في رمضان، وعبر الأسابيع التي أعقبته حيث قضينا مع المعارف والأصدقاء أوقاتاً ممتعة في الدور أو في المتنزهات المنتشرة داخل الشارقة وفي الجهات البعيدة عنها، ولا زلت أذكر من بينها: رحلتنا إلى العين بدعوة من الصديق الدكتور علاء نورس، ورحلتينا إلى أبو ظبي حيث تجولنا في شوارعها الفارهة وفي مركز التسوق الكبير المدهش، وحيث انتهى بنا المطاف في أحد المطاعم الرائعة حيث تناولنا، اثنتين من أروع وجبات المشويات... ورحلتنا إلى عجمان لتناول الغداء في شقة الأخ معاذ عبد الجبار... وثمة رحلة أخرى بمعية عائلة محمد الحمراوي إلى خورفكان السياحية المطلة على البحر حيث قضينا اليوم كله هناك...

وكنا أحياناً أخرى نخرج للتجوال في القرية السياحية، وفي مراكز التسوق الكبرى في الشارقة أو دبي، ولتلبية طلبات الشراء العديدة التي كلفنا بها من

الموصل... وكانت متعتنا عندما كنا نقوم باختيار وجبة رائعة من النساتل وإرسالها إلى أولادنا مع أحد المسافرين العائدين إلى الموصل...

وكانت زيارة معارض الكتب التي تقام في كل عام في الشارقة وأبو ظبي، وتجوالنا فيها، واتصالي بعدد من الناشرين وتسليمهم أعمالي الجديدة لغرض نشرها، واللقاء هناك بالعديد من الأصدقاء والمثقفين، وحضور بعض الأمسيات الأدبية والفنية التي تقام في سياق المعرض... متعة بالغة أشبه بالواحة الخصبة عبر مسيرة طويلة في الصحراء القاحلة، وحيث كنا نلتقي بالدكتور حارث الضاري يلمّ حوله عدداً من العراقيين ويلحّ عليهم بدعوته إياهم لتناول العشاء في بيته، مهما كان عددهم... إن الرجل هو ابن العشائر الدليمية المعروفة بسخائها العجيب، رغم أن إلحاحه ذاك كان يؤذي زوجته (أم مثنى) رحمها الله... ولكنها كانت تستسلم وتطيع... وما أروع القوزي على تمن مع مرق الفاصوليا اليابسة (أو الحب كما يسمونها في الإمارات) التي كان يتحفنا بها بين الحين والحين.

وما أن حلت العطلة الربيعية لعام (٢٠٠٢م) حتى شددنا الرحال للعودة إلى الموصل حيث كان ينتظرنا في مطار عمان سائق التاكسي الذي تم الاتفاق معه لكي يقلنا إلى الموصل... وقد انتهزنا هذه العطلة للقيام برحلة عائلية إلى بغداد، حيث نزلنا في فندق بغداد الرائع المطل على دجلة، وقضينا هناك أياماً ممتعة في التجوال في متنزهات بغداد ومطاعمها وفنادقها وشوارعها... في محاولة منا لاستعادة ذكريات رحلاتنا العائلية الرائعة في ثمانينيات القرن الماضي، وكأن إحساسنا أعلمنا بأن هذ الرحلة ستكون آخر الرحلات إلى بغداد الغالية، قبل أن يحل بها الطاعون الأمريكي الأسود، والطائفية المقيتة، فيغيران معالمها بعد سنة واحدة ويحولانها إلى مقبرة كئيبة... فوا أسفاه...

ما لبث شهر حزيران من عام (٢٠٠٢م) أن حلّ فأسرعت بتقديم طلبي لإنهاء عقدي مع الكلية، رغم ممانعة المدير، وعدد كبير من أساتذة الكلية، وطلبتها وطالباتها الذين كانوا يكنون لي كل محبة وتقدير... ولقد عبروا عن

ذلك في جملة كبيرة لا زلت أحتفظ بها معتزاً من الهدايا العينية والرسائل التي نقلت بصدق وأمانة ما كان يعتلج في صدورهم تجاهي.

ويوماً وأنا أتوجه مساء إلى ندوة الشيخ سيف الغرير إذا بي فجأة أتلوى من آلام البطن والغثيان والرغبة العاتية بإفراغ ما في جوفي من طعام، ثم ما لبثت أن أغمي علي، ووجدتني أُنقل بسيارة إسعاف من باحة كراج سيارات مركز جمعة الماجد إلى مستشفى دبيّ، حيث رقدت هناك في غرفة مستقلة، وأجريت لي الفحوصات والتحاليل المطلوبة، وتبين ـ لحسن الحظ ـ ألا علاقة للحالة بالقلب، وإنما هو التسمّم بسبب تناولي لوجبة عتيقة من الفلافل في المطعم اللبناني بدبي ذلك الصباح... وقد نام معي في المستشفى الأخ والصديق الوفي الدكتور حازم سعيد، حيث ما لبثنا بعد تلقي باقات الزهور وبطاقة التهنئة من الشيخ الغرير على السلامة، أن غادرنا المستشفى عائدين إلى الشقة...

ولقد أتاح لي ذلك موافقة إدارة الكلية على تقليص مدة بقائي في الإمارات لأكثر من أسبوعين، ووجدتني حراً في الانفكاك والعودة إلى بلدي، بعد أن أعلمتني الإدارة أن الشيخ الماجد المسؤول عن المؤسسة التي تدير المركز والكلّية يرغب في مقابلتي، وأنه سيرسل سيارة خاصة لكي تقلّني إلى المركز، حيث التقيت به فرحب بي وأشاد بجهودي العلمية والثقافية والتدريسية عبر السنتين الدراسيتين، وقدم لي مبلغ ألف درهم إماراتي فيما يسمى مكافأة نهاية الخدمة...

وما لبث أن فاتحني بإمكان قيامي بإرسال وجبات من المخطوطات المتواجدة في مدينة الموصل وبالسعر الذي ترتئيه الجهات المعنية... فوعدته خيراً، وإن لم أجزم بالأمر... ذلك أن إخراج المخطوطات من العراق، وهي جزء من ثروته القومية، وبخاصة في زمن الحصار الأمريكي القاسي الذي سيقدّر له أن يلحق الدمار بثقافة العراق وخزينه الفكري والحضاري؛ يعدّ أمراً غير مقبول على الإطلاق... ولذا صرفت النظر عن الموضوع بمجرد أن غادرت مكتب الشيخ جمعة الماجد.

وحان موعد المغادرة، فقمت بزيارة لأساتذة الكلية وإدارتها وموظفيها واحداً واحداً، حيث أبدَوْا أسفهم على مغادرتي، ثم يممت وجهي صوب المطار بصحبة ثلة من الأصدقاء المودّعين... وما أن دخلت صالة المطار لإجراء الأمور الروتينية في تسليم الحقائب، وتجييك جواز السفر، حتى فاجأني الموظف المسؤول عن تسلم الحقائب، بسحب حقائبي من شريط الإرسال وهو يقول لي: إن الطائرة قد اكتظت بالراكبين، وقد زاد الوزن المتاح لها عن حدّه المقرر بكثير، ولذا أطلب منك أن تؤجل رحلتك إلى يوم غد، ولسوف ننزلك في فندق المطار المريح حتى يحين موعد المغادرة...

فرفضت عرضه قائلاً له بشيء من العصبية: كيف أؤجل رحلتي وهناك في مطار عمان السائق الذي اتفقت معه على المجيء من الموصل، حيث تفصله عن عمان آلاف الكيلومترات، لكي يقلني إلى بلدي... فراح الموظف المسؤول يتوسل بي ويقول لي: اعتبرها مساعدة منك تسديها لنا... فقلت له: لن أغير موعد عودتي، وسوف ألجأ إلى مسؤولي المطار إذا اقتضى الأمر...

فما كان منه إلا أن يذعن لطلبي، لكنه راح يتعمد إهمال حقائبي وعدم إرسالها بالشريط... والوقت يمرّ... ولم يتبق على موعد مغادرة الطائرة سوى دقائق معدودات... وما لبث أن قال لي: إن عليك أن تدفع ضريبة من المال للمحاسب، ورحت أركض هنا وهناك بحثاً عنه، وأتوسل إليه أن يسارع في تسليمي الوصل، حتى إذا ما أعطيته الموظف المسؤول وضع حقائبي على الشريط، بينما انطلقت أنا بأسرع ما أستطيع، وقد شدّت أعصابي إلى درجة الانفجار، ورحت أدحرج حقيبتي الدبلوماسية ومتاعي على سلم النزول إلى صالة المغادرة، كسباً للوقت، ولكي يتيح لي ذلك القفز على درجات السلّم ثلاثاً ثلاثاً... ووصلت في اللحظة المناسبة والحمد للّه...

وحينذاك فقط استرددت روعي، وعادت أعصابي إلى استرخائها المعهود... وتنفست الصعداء...

الفصل التاسع

٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٥م

حططت رحالي في مدينة الموصل الغالية في صيف عام (٢٠٠٢م)... وبعد أيام قلائل عقد مهرجان البردة الثاني للأدب الإسلامي على أروقة جامعة الموصل، وكان المهرجان الذي سبقه قد عقد في العام الماضي حيث كنت غائباً في الإمارات، ودعي إليه من الأردن الأخ الأستاذ محمد الحسناوي رحمه الله...

وقد ألقيت في المهرجان الثاني جملة من البحوث والقصائد، وجرت مناقشات خصبة، وتمّ تكريمي ناقداً أدبياً، فارتجلت أمام الجمهور المحتشد كلمة انتزعتها من قلبي، جاء فيها... (... إن الإنسان الذي يبدأ رحلة الصعود إلى السبعين من عمره، يحس كما لو أن الدنيا تتضاءل أمام عينيه... تفقد الأشياء بريقها... تتراجع الإغراءات، ويكفّ اللهاث المحموم وراء نداءات الحياة الدنيا... ويتركز البصر في نقطة واحدة تتلامع في الأفق البعيد... أن يجتاز المرء امتحان يوم الهول بنجاح... وإلا فهو الخسران المبين... لنا الويل إن قيل للواحد منا يومها: لقد أردت أن يقال لك عالم أو أديب... فها قد قيل...

ولكن ما يعزّيني أن أرفع يوم الهول هذه البردة قبالة النبي المعلم، وأصرخ متوسلاً ملتاعاً: شفاعة يا رسول الله... خمسون عاماً والأشياء الجميلة... القيم النبيلة تغريني وتعذبني... وينغرز نصلها الذهبي في روحي وفي أعصابي... خمسون عاماً والكلمة تسكنني وأسكنها... لم تدعني لحظة واحدة ألتقط أنفاسي وأرتاح... أصبحت في نهاية الأمر نضواً متعباً... مكدوداً... والهدف بعيد بعيد...

فهل سيقدر لي أن أواصل المسير؟... أشكركم أيها الأخوة الأحبة...

أشكركم... أشكركم... ولسوف يظل وفاؤكم الجميل يعرّش في قلبي قنديلاً أخضر حتى نلتقي هناك!!).

ولقد دفعت تلك الكلمات العديد من الحضور إلى البكاء...

ثم ما لبثنا في أعقاب انتهاء المهرجان الذي دار ليومين، أن دعينا لحفل عشاء توديعي على حدائق فندق الموصل الرائعة، المطلة على نهر دجلة، حيث ألقيت القصائد والكلمات، واقترح اثنان من الأساتذة المدعوين هما الدكتور إبراهيم العلاف والدكتور ادهام حنش، أن تُنشأ جائزة سنوية باسم (جائزة الدكتور عماد الدين خليل للأدب الإسلامي) فاعتذرت عن قبول الاقتراح خشية ربط الجائزة بمؤسسات الدولة الرسمية التي كنت أحاذرها بشكل صارم.

وسيخطر في بالي بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات، أن أرتب هذه الجائزة باسمي، وأن أربط الإشراف عليها بإحدى مؤسسات المجتمع المدني، وهي (مركز الموصل للثقافة والعلوم) الذي كنت عضواً فيه، وأن يكلف بالأمور الإجرائية للجائزة التي تقدم كل سنتين، مجموعة من الأساتذة الجامعيين المعنيين بالهمّ الأدبي الإسلامي... وأن أخصص مبلغاً نقدياً يسلّم للفائزين عبر احتفال خاص يقام خريف كل سنتين لهذا الغرض... إن شاء الله...

وما لبثت في صيف ذلك العام أن فوجئت بجملة من المتاعب كان من بينها مرض ابنتي الكبرى (مها) الذي استغرق أكثر من شهر من المتابعات الطبية والمعاناة تماثلت بعدها للشفاء... وسوف يقدر لها بعد عدة سنوات أن تجد نفسها مضطرة لمداخلة جراحية باستئصال مرارتها الذي أزاح عنها الكثير من المتاعب التي لاحقتها السنين الطوال.

ثم ما لبثنا أن فوجئنا بالطرقات اليومية على باب دارنا... إنهن الخطّابات اللواتي تهافتن على طلب يد ابنتنا، ونحن نتردد في القبول، ربما حرصاً منا على بقاء ابنتنا بمعيتنا أطول وقت ممكن... فنحن عائلة صغيرة لا تتجاوز الستة أشخاص عدداً، وانتزاع أي واحد منا يمثل خسارة كبرى... فكانت كل طرقة على الباب بمثابة همّ جديد يعتصر قلوبنا... فما نلبث أن

ندفع أصحابها بالتي هي أحسن، ولكني كنت رغم ذلك كله أصرّ على ضرورة الموافقة على أحد المتقدمين، تنفيذاً لوصية رسول الله (ﷺ): «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه**»...

وأخيراً كان لا بدّ مما ليس منه بد، حيث تمت الموافقة على اقترانها بابن صديق حميم لي هو المهندس أحمد بن الحاج ناطق الأرحيم، تاجر المواد الكهربائية المعروف في الموصل وكفى الله المؤمنين القتال... ولكن بعد أن تركت (مها) فراغاً موحشاً في البيت لا يمكن أن يسدَّه أحد...

ثم ما لبثت ثالثة المتاعب أن جاءت لكي تفرض عليّ حصاراً نفسياً قاسياً... إنها التلويح بالضربة الأمريكية شبه المحققة للعراق... وكنت قبل ذلك بعدة أسابيع قد ارتبطت بعقد عمل مع جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن، عبر الفصل الدراسي الثاني الذي يبدأ في شهر شباط من عام (٢٠٠٣م)، وجاءت الموافقة بتوقيع رئيس الجامعة الأخ الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان... فلما تأكدت الضربة الأمريكية للعراق، أمسكت بخناقي دوامة قاسية من الندم الشديد، إذ كيف سأترك بلدي وأهلي وأكون بعيداً عما سيشهده عبر الحرب القادمة؟ ألا يمثل هذا نوعاً من الفرار من خطر محدق...

ثم ما لبثت أن أرسلت برقية مستعجلة إلى رئيس قسم التاريخ في كلية آداب جامعة الزرقاء، الأخ الدكتور زيد أبو الحاج، أستشيره في تأجيل فرصة عملي في الجامعة إلى وقت آخر، ريثما ينجلي الموقف وأطلب منه بذل مساعيه في إقناعهم بتأجيل تعاقدي معهم... لكنه ما لبث أن أعاد عليَّ الجواب بأن الأمور الإجرائية قد استكملت، بما فيها تخصيص المكتب، وترتيب الجدول، حيث لا يمكن التراجع بحال من الأحوال، فما كان مني وسط موجة من القلق والهمّ والاكتئاب، إلا أن أستجيب مرغماً، وأتجه إلى عمّان للبدء بعملي الجديد.

اصطحبت معي في رحلتي البرية إلى عمّان، حيث لم تكن الخطوط الجوية قد استؤنفت بعد، الأخ لقمان عثمان، الذي توجه إلى عمان للحاق بجانب من أسرته، التي استقرت هناك لمتابعة معضلة أخيه الأصغر (أحمد)، الذي أصيب

بحالة سرطانية تطلبت إبقاءه الأشهر الطوال في مستشفى الأمراض السرطانية في عمان.

بتنا ليلتنا الأولى في أحد فنادق عمان، وما لبث الأخ لقمان أن عثر لي على شقة مناسبة في منطقة المدينة الرياضية وسط عمان، قبالة شقة أهله... فتحولت إليها، ورغم إحساسي بالوحشة لمبيتي بمفردي لأول مرة ـ ربما في حياتي ـ فإن ما كان يخفف عني وجود أسرة لقمان، وعدد من الأخوة الموصليين في العمارة نفسها... هذا إلى كون الشقة في منطقة مزدحمة قريباً من ستاد عمان الرياضي، حيث تكثر الأسواق والمطاعم والمارة من الرائحين والغادين، وهو ما كنت أطمح إليه دائماً... وثمة قربها نسبياً من (السيف واي) وهو مركز كبير للتسوق يتضمن كل ما يخطر على البال من البضائع والمشتريات.

في اليوم التالي لوصولي دعيت لحفل تكريم أقامته إحدى الجمعيات الأردنية لأستاذي الدكتور عبد العزيز الدوري رحمه الله، وما أن غادرت المكان حتى كان الثلج المتساقط قد ازداد كثافة وأخذ يرتفع شيئاً فشيئاً عن مستوى الشوارع، ويهدّد بشلّ حركة السيارات، فاتجهت إلى شقتي وقبعت فيها لأكثر من يومين تعطلت خلالهما، بسبب تراكم الثلوج، الدوائر والمؤسسات... وكانت أسرة لقمان تأتيني بالطعام ظهراً ومساءً، وأنا منغمر في إكمال وتنقيح مسرحيتي الأخيرة (التحقيق) الساعات الطوال... حيث أن التلفاز نفسه أصابه العطل بسبب تراكم الثلوج.

ولكن ما أن حل اليوم الثالث، وكان يوم الجمعة، حتى وجدتني مضطراً لمغادرة الشقة إلى أقرب جامع لأداء صلاة الجمعة، ولتسوّق ما يمكن حمله إلى الشقة... وكنت أسير على مهل خوفاً من الانزلاق على الثلج الذي تحوّل إلى جليد في بعض المناطق... ثم ما لبثت أن فوجئت بتحول أسرة لقمان إلى شقة أخرى في منطقة الجبيهة لكي يكونوا قريبين من مستشفى السرطان حيث يعالج ابنهم، وحيث يتطلب الأمر منهم زيارات يومية ومتابعة للموضوع.

فرشقتني حفنة من الكآبة، لكنني ما أن انغمرت في الكتابة والعمل حتى استعدت انشراحي، وخاصةً بعد بدء الدوام في جامعة الزرقاء، وترتيب أمر إيصالي وعودتي من الجامعة مع الأخ الدكتور زيد أبو الحاج رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب، الذي كان يقطن في منطقة قريبة من المدينة الرياضية.

وما أن دخلت جامعة الزرقاء، حتى يمّمتُ وجهي صوب مكتب رئيس جامعتها الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان الذي تربطني به أكثر من رابطة، فرحب الرجل بي وأعلمني بأنهم سعداء بقدومي، وأنهم قد رتبوا لي مكتباً خاصاً... وغادرته للسلام على عميد الكلّية التي سأعمل فيها: الأخ الدكتور عبد الله الخباص، الذي سبق وأن تعرفت عليه عبر زياراتي السابقة لعمّان، وهو شخصية رائعة بانفتاحه، وروحه المرحة، ونكاته المتواصلة، وسخائه العجيب، جنباً إلى جنب مع جديته في العمل، وقدراته العلمية في مجال تخصصه...

ثم ما لبثت أن استقر بي المطاف في مكتبي الأنيق، حيث وجدت لافتة معلقة عند بابه تحمل اسمي، ألحق بها جدولي الأسبوعي، وبدأ العمل بتدريس جملة من المواد في التاريخ والحضارة الإسلامية لمختلف المراحل في قسم التاريخ الذي سرعان ما تعرّفت على أساتذته وتدريسييه من تلك النماذج التي يشعر المرء إزاءها بالتوافق والانسجام، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد... هذا إلى وجود عدد من الأساتذة والتدريسيين العراقيين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عدنان الدليمي، الذي تولى عمادة كلية الآداب قبل الخباص لعدة سنوات، والأستاذ الدكتور خليل الحديثي، أستاذ القانون الدولي ﷺ، وسرعان ما أحسست بأني أعيش بين أهلي وأقربائي.

وعلى مدى بضعة أيام قدرت على استكمال الأمور الإجرائية الروتينية لقبولي في الجامعة أستاذاً زائراً للفصل الدراسي الثاني (شباط ـ حزيران ٢٠٠٣م) مع إمكان تجديد العقد حيثما شئت.

كانت جامعة الزرقاء الأهلية تقوم في مكان فسيح، خارج مدينة الزرقاء، بأبنيتها وساحاتها وصالاتها الكبرى، ومطاعمها، وحدائقها الغناء، وممراتها

المتشعبة... وكانت أبنيتها تستقبل ضوء الشمس فيما يجعل المرء يحس إحساساً غامراً بالارتياح.

وسرعان ما انهالت علي مطالب إلقاء المحاضرات العامة بحضور رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها، والعديد من الأساتذة، والجم الغفير من الطلبة والطالبات... ولقد لقيت تلك المحاضرات التي كنت ألقيها بمفردي حيناً وبمعية أساتذة آخرين حيناً آخر، قبولاً حسناً فطولبت بالمزيد...

هذا إلى المحاضرات التي كان يطالبني بإلقائها مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وجمعية البحوث والدراسات الإسلامية التي يترأسها الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان، والتي كانت تعقبها مناقشات خصبة من قبل نخبة من المعنيين بالهمّ الإسلامي.

دعيت في اليوم الأول لدوامي لتناول طعام الغداء بمعية رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها، والعمداء والأساتذة، في مطعم الجامعة، حيث تم الترحيب بي من قبل السيد الرئيس أمام المدعوين قبل البدء بتناول الطعام.

وكنت أرجع يومياً، بعد انتهاء محاضراتي بحافلات الجامعة، أو بمعية الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب، الذي يدهشك بأخلاقه العالية، وعلميته المتميزة، وعطائه البحثي الموصول... ولا زلت أذكر أنني كنت أحياناً أستسلم تحت دفء الشمس في سيارته لإغفاءة سريعة... (تعسيلة كما يقول المصريون)... قبل مغادرتي إلى الشقة...

فكان الرجل يطفئ ماكنة السيارة، ويقف بها على جانب من الشارع، بانتظار أن أستيقظ من إغفاءتي تلك، في محاولة كريمة منه لأخذ أكبر قسط من الراحة... ثم ما يلبث أن يودعني ويمضي... فكنت أقفز إلى مطعم أنيق بجوار العمارة التي تقبع فيها شقتي، لشراء غدائي، وصعود الشقة لتناوله، وأخذ قيلولة مشبعة، ثم مغادرة الشقة صعوداً إلى مسجد كبير يقع فيما وراء المدينة الرياضية لأداء صلاة العصر، وممارسة جولة التخطي اليومي، ومن ثم العودة

إلى الشقة، أو الذهاب إلى السيف واي، حيث أقضي هناك الساعات الطوال قبل أن يعتصرني الجوع فأتجه إلى أحد المطاعم القريبة لتناول عشائي...

لكني كنت في معظم الأحيان أرتبط بمواعيد على العشاء وقضاء الأمسيات، مع لقمان وأخيه خالد رَحِمَهُ اللَّهُ الذي لحق بالأسرة، والأخ الدكتور محمد سليمان، المختص بالقانون والمتعاقد مع جامعة البتراء الأهلية... حيث كان هؤلاء الثلاثة بمثابة هدية السماء لي، لأنهم أخرجوني من دائرة الوحدة والغربة والإحساس القاسي بالحنين إلى الأهل والبلد، وكان كل واحد منا يتولى دعوة الآخرين، فيشتري المطالب الكاملة للعشاء ثم يتم التوجه إلى شقة الأخ الدكتور محمد سليمان الواقعة على الطريق إلى المطار لتناولها هناك والجلوس لتبادل الأحاديث والنكات حتى ساعة متأخرة من الليل.

وإلى جانب ذلك انهالت عليّ جملة من الدعوات المتواصلة، وكان أبرزها تلك اللقاءات الأسبوعية في دور الأساتذة والإداريين العاملين في جامعة الزرقاء، حيث خصص يوم الثلاثاء من كل أسبوع للقاء في إحدى الدور وتناول وجبة دسمة من العشاء، ثم الحوار في الشؤون العامة، حيث يدلي كل مدعو بدلوه متحدثاً عن رؤيته لما يجري في بلده، وأذكر من تلك الدعوات الدورية، دعوة كل من الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف عربيات، والأستاذ فاروق بدران، والدكتور طارق التل، وآخرين ممن أعتذر عن ذكر أسمائهم بسبب آفة النسيان!!

وثمة دعوات عديدة أخرى من الدكتور عبد الله الخباص عميد كلية الآداب، والدكتور عودة أبو عودة رئيس قسم اللغة العربية، والدكتور فتحي ملكاوي المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والدكتور محمود الرشدان، والأستاذ الدكتور محمد زكي محمد خضر، والدكتور عبد المنعم الليلة... والأستاذ عبد الله الطنطاوي، والأستاذ محمد الحسناوي رَحِمَهُ اللَّهُ، والأستاذ حيدر قفة... الخ...

هنالك أيضاً الرحلات الربيعية إلى متنزهات عمان وبراريها، وإلى عجلون

وجرش، وإلى البحر الميت والعقبة... وإلى المرتفعات المطلة على بحيرة طبرية حيث المثلث الأردني السوري الإسرائيلي... وحيث تناول المشويات، والقوزي المدفون والمحمر بالرمل الحار، وغيرها من الأكلات... وكانت هذه الرحلات تتم حيناً بالتنسيق مع أساتذة وتدريسيي كلية الآداب، وحيناً آخر مع العاملين في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعلى رأسهم الشاب الطموح (ماجد أبو غزالة)، وحيناً ثالثاً بيننا نحن الأصدقاء أو من يدعونا من المعارف والمحبين.

ولا زلت أذكر تلك الرحلة الربيعية بمعية آل عثمان والدكتور محمد سليمان، إلى العقبة حيث وصلناها ليلاً، وبعد تناول عشائنا اخترنا أن نجلس في إحدى الكازينوات المطلة على خليج العقبة، حيث كان رذاذ الماء البارد يلفح وجوهنا، وحيث كان مرتادو تلك الكازينوات يتحدثون ويأكلون (ويقزقزون اللب) حتى مطلع الفجر... وفي اليوم التالي رحنا نبحث عن وجبة سمك مقلي لغدائنا وكانت بحق وجبة رائعة، إلا أن المنغص الذي يزعج السواح في العقبة كان كثرة الذباب بشكل ملحوظ... ولولاه لكانت تلك الرحلة من أعذب الرحلات عبر وجودي في عمّان...

إلا أن ذلك كله لم يكن ليغطي على همومي المتزايدة بخصوص احتمالات الحرب الأمريكية على العراق، والتي كان قد خطط لها من ثمانينيات القرن الماضي... وكان هدفها الرئيسي، ليس القضاء على صدام حسين، أو أسلحته الكيماوية والجرثومية المحرمة دولياً، أو صواريخه ذات المديات البعيدة، التي تبيّن، بشهادات الأمريكيين أنفسهم زيفها وكذبها... وإنما السيطرة على الخزين النفطي الهائل للعراق، وهو أكبر خزين احتياطي في العالم، وبمقدوره الاستمرار على التدفق لثلاثمائة عام قادم، بينما الاحتياطي السعودي لا يتجاوز المائة عام... أما احتياطيات الدول الأخرى في العالم فتتراوح ما بين العشر سنوات إلى الخمسين عاماً... هذا فضلاً عن كسر عظم العراق وشعبه وتراثه الحضاري وقواته المسلحة التي طالما سببت قلقاً لإسرائيل...

إنها باعتراف العالم كله، واحدة من أبشع الأكاذيب في تاريخ البشرية على الإطلاق، تلك التي صنعها وروّج لها الحزب الجمهوري اليميني الحاكم، وزعيمه المهووس بوش الابن، بخلفياتهما الإنجيلية الجديدة، حيث تلتحم مصالح أمريكا البروتستانتية باستمرار اغتصاب إسرائيل لفلسطين، وحيث صيغت نبوءتها الكاذبة بشكل يجعل معه نزول السيد المسيح (عليه السلام) إلى الأرض، دون وجود دولة يهودية في فلسطين تدعى إسرائيل مستحيلاً، ومن أجل ذلك ضربت بعرض الحائط مسألة موافقة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، أو عدم موافقتهما، وتم تجاوزها، حيث كان سقوط الاتحاد السوفياتي قد أتاح الفرصة للولايات المتحدة بأن تكون سيد العالم دونما منازع.

ها هي ذي ورقة التوت تسقط عن الجسد الأمريكي المتقرّح فيتعرى أمام العالم... الويسترن الأمريكي يظهر مرةً أخرى ليعتقل الكلمة في الصدور وليجعل الرصاص وحده هو الذي يتكلم... والحبال التي كان رعاة البقر يلوّحون بها للقطعان، هي نفسها التي يريدون بها اللحظة أن يسوقوا الأمم والشعوب إلى ما يريدونه هم لا ما تريده تلك الأمم والشعوب.

تمثال الحرية المنتصب عند حافات نيويورك يسقط هو الآخر: ويدس أنفه ووجهه في بحيرات النفط الأسود، لكي يرتشف منها حتى الثمالة فتتفحم ملامحه وتصير بلون القار...

القرصان الأمريكي الأحمر يجوب البحار متسلطاً في بوارجه العملاقة وأظافره الملوثة باليورانيوم، وأنيابه الذرية التي تنذر بالويل...

ها هم أحفاد المكتشفين الأوائل... الغزاة الأوائل... الذين ذبحوا مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر سكان أمريكا الأصلاء، يمضون إلى أهدافهم بالمنطق نفسه: أنت تقتل الآخر فأنت موجود!!

من أجل ذلك لم يصيخوا سمعهم مطلقاً لكل الأصوات التي أحاطت بهم من كل مكان، متوسلة إليهم ألا يندفعوا وراء إغراء القوة فيمارسوا الذبح المنفلت عن كل الضوابط الدينية والخلقية والإنسانية... فلم يلتفتوا إليها...

الدول والحكومات والمؤسسات والجماعات والشعوب، بل حتى الشعب الأمريكي نفسه، رمت بثقلها جميعاً صوب (الكلمة) التي كانت في البدء، والتي يظل بمقدورها أن تصنع المصائر والمقدرات... ولكن القرصان الأحمر أبى إلا اعتماد السيف حكماً بينه وبين المستضعفين في الأرض...

الأمريكي الذي قدر حتى بداية الستينيات من القرن الماضي على الاحتفاظ بإعجاب من يسمونهم بأحرار العالم، ما لبث أن كشف عن وجهه القبيح بعد سنتين أو ثلاث... إذ ما لبثت حرب فيتنام أن شهدت واحدة من أبشع المذابح البشرية في التاريخ.

وما بين حرب فيتنام والهجوم الضاري على العراق، ازدادت الدمامل والتقرحات في الوجه الأمريكي، وازداد دمامة وقبحاً، ولم يعد أحد من الشرفاء يحبه أو يميل إليه، أو يقول: ها هو ذا حامي الحرية في قارات الدنيا الست!!

حتى الأمريكيون أنفسهم كرهوا أنفسهم عندما رأوا كيف أن أولئك الذين منحوهم أصواتهم، خانوا الأمانة، ولم تعد تهمهم المصالح العليا لأمريكا، بقدر توظيف فرصتهم في الحكم لحماية مصالحهم المادية، والانحناء لأقدام اللوبي اليهودي الذي يعرف كيف يمتص الدم الأمريكي، ويمارس مع الحكام الكبار لعبة: أعطني لكي أعطيك...

يقيناً سيجيء اليوم الذي تتكشف فيه أمام المواطن الأمريكي أبعاد اللعبة، وسينتفض يومها محاولاً أن يمنع الانحدار نحو الهاوية، وأن يوقف مافيات الرئاسة القابعة في البيت الأبيض من أن تجر أمريكا ومصالحها العليا إلى الدمار من أجل حفنة من الدولارات...

يقيناً سيجيء اليوم الذي ستتكشف فيه الخدعة اليهودية في اختراق المسيحية البروتستانتية، بالخرافات والأساطير التي قامت عليها الحركة الصهيونية وسياسات (إسرائيل)... وها هي ذي توظف سياسات أمريكا نفسها في السياق ذاته... لخدمة المصير اليهودي في العالم تحت شعار: هرمجدون... المعركة الفاصلة واليوم الموعود...

ولكن بعد كم سينكشف هذا كله، وينهض الأمريكي الذي خدع طويلاً وابتز كثيراً، لكي يقف في مواجهة السرطان الذي يحاصر دينه ودنياه؟ وكم سيذبح الطاغوت الأمريكي من الأمم والشعوب، ويبتز من ثرواتها ومقدراتها، قبل أن يوقفه المواطن الأمريكي نفسه عن المضي باللعبة الخطرة إلى نهايتها المفجعة؟

وفي ليلة التاسع عشر من آذار من ذلك العام، جاءت الضربة الموجعة للعراق، الذي أُمطر على مدى عشرين يوماً بعشرات الأطنان من الصواريخ، واليورانيوم المخضب، وكل ما يخطر وما لا يخطر على البال من الأسلحة الفتاكة لدولة كبرى تنفرد بقيادة العالم، بحيث أنهم أتوا عبر تلك الأيام على بنيته التحتية كاملة، وسحقوا قواته العسكرية، التي سلّمت قيادتها للأسف الشديد لأبناء وأقرباء صدام حسين الذين لا خبرة لهم في الحرب، الأمر الذي قاد إلى اتخاذ جملة من الأخطاء التعبوية، والتكتيكية، والاستراتيجية، وغيّر مسار المقاومة العراقية التي كان يمكن أن تذيق الأمريكان وحلفاءهم الأمرَّين عبر الأسابيع والأشهر الطوال لو أحسنت قيادتها... ولكن!!

مهما يكن من أمر؛ فقد غادرتُ إحدى محاضراتي في جامعة الزرقاء صبيحة العشرين من آذار للحاق بأحد المكاتب التي تعرض شاشتها التلفازية ما يشهده العراق من ضربات أسطورية موجعة... وما أن ألقيت نظرة سريعة حتى لم أعد أتمالك أعصابي، فتركت المكتب عائداً إلى غرفتي وسط إحساس قاهر بأن العراق مهزوم لا محالة وسط هذا الفارق الهائل في معايير القوى المتصارعة... ورحت ـ يومياً ـ أجتاز الشوارع الخلفية للعمارة التي أقطن فيها في محاولة مني لامتصاص الهمّ والقلق اللذين كانا يعتصراني... وكنت كلما سمعت نبأ جديداً عن تقدم القوات الأمريكية والبريطانية في ميادين القتال، أزداد تعاسة وألماً...

ومن جهة أخرى فقد كان قلقي يزداد على مصير الموصل، وأهلي، والذي قيل بأن جحافل الأمريكيين ستتقدم لاكتساحها من الشمال... لكن سرعان

ما تبين أن الجيش العراقي وظهيره الجيش الشعبي استسلما للأمر الواقع، وتركا الميدان دون أية مقاومة تذكر... اللهم إلا في مطار بغداد الدولي حيث لقيت القوة الأمريكية المهاجمة دفاعاً بطولياً ألحق بها هزيمة نكراء وأباد معظم قواتها... ومن ثم، وعلى الطريقة الميكيافيلية الأمريكية، عادت قواتهم لكي تستخدم القنابل الذرية التكتيكية، فتدمر القوة المدافعة وتكتسح المطار.

وفي التاسع من نيسان فوجئنا ونحن نتابع أنباء القتال على شاشات التلفاز، بسقوط بغداد، ووصول الدبابات الأمريكية إلى ساحاتها الرئيسية، حيث تجمع الناس في ساحات الفردوس، من خصوم البعث يرقصون ويهتفون، ويعينون الجنود الأمريكان على إسقاط تمثال صدام بعد ربط عنقه بالحبال... وكان مما آلمني وآلم كل إنسان شريف في بلدي العراق... أن يندفع جندي أمريكي لكي يرفع العلم الأمريكي، ويطوق عنق تمثال صدام بالحبال، ويعين رفاقه على إسقاطه وتحطيمه...

وكم كنا نتمنى أن يتم ذلك كله على أيدي الثوار العراقيين أنفسهم، عبر واحدة من محاولاتهم الانقلابية العديدة، التي طالما كشفتها المخابرات الأمريكية وقدمت قوائم القائمين عليها إلى صدام حسين، لكي يسوقهم إلى المذبح من أجل أن تخلو الساحة للأمريكيين أنفسهم للأسف الشديد.

وإلى جانب همومي مع الحرب، فتحت على نفسي، أو فتحت عليّ بعبارة أخرى، جبهة قلق ومتاعب استغرقت معظم الفصل الدراسي: إنها الأسنان التي اضطرتني لمراجعة شبه يومية لأكثر من ثمانية عيادات ومراكز طبية متخصصة في زراعة الأسنان، واستئصالها، وعلاجها، فيما أحال حياتي في عمان إلى سعار قاسٍ من الآلام والمتابعات المتواصلة، والمصاريف الباهظة... وتحوّل وجبات الطعام إلى شيء لا يطاق... لقد كانت ــ بحق ــ مرحلة من أبشع المراحل الصحية في حياتي، ولكنني ــ أخيراً ــ وبرحمة من الله ﷻ ــ تجاوزتها، واستعدت سلامة أسناني التي بدأت متاعبي معها منذ مطلع سبعينيات القرن الماضي.

هذا إلى القلق الذي سببته لي دعوة الأخ ماهر عبد الله، محاور برنامج الشريعة والحياة، في فضائية الجزيرة، بأن أتجه إلى الدوحة لتسجيل حلقة أخرى بعد نجاح الحلقتين السابقتين قبل سنتين... لكنني ما لبثت أن اعتذرت عن دعوته بحجة ارتباطي بالعمل في جامعة الزرقاء.

في نيسان، أعلنت جامعة الزرقاء عن بدء مسابقاتها السنوية بخصوص أفضل كتاب في العلوم الإنسانية لذلك العام (٢٠٠٣م)، فلما اطلعت على شروط المسابقة، ولم أجد فيها أية لمسة مما يخدش قناعاتي التي دفعتني وستدفعني إلى رفض المشاركة في الجوائز الكبرى... قررت أن أشارك، وقدمت كتابي **(مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية)**، الذي سبق وأن طبع في ماليزيا من قبل الجامعة الإسلامية العالمية هناك ككتاب مقرر على كلية علوم الوحي والمعارف الإنسانية... وحيث ستعلن نتائج المسابقة في الخريف القادم.

كان الاتصال الهاتفي بالأهل يومذاك من الصعوبة بمكان... إذ لا بدّ من توفر النقال المسمى (الثريا) والمرتبط بالأقمار الصناعية للطرفين المتحدثين، فكنا نجد العنت الشديد لحين إتمام المكالمة التي كانت تنزل على قلبي برداً وسلاماً، حيث تطمئنني على أوضاع الأهل والمدينة وسط ظروف تلك الحرب القاسية التي أرهقت أعصابنا وجرّعتنا العلقم.

وقبيل نهاية الفصل الدراسي الثاني من ذلك العام، حزمت أمري والأستاذ عدنان الدليمي، على إنهاء تعاقدنا مع جامعة الزرقاء، والعودة إلى بلدنا، رغم إلحاح الجامعة على التمديد... لكن قناعتنا كانت أن نكون في ديارنا قبالة المحنة التي ألمّت بالجميع... ولقد أقامت لنا رئاسة الجامعة حفل توديع حضره رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها ورؤساء الأقسام، وتحدث فيه الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان رئيس الجامعة مقيّماً جهود الدكتور الدليمي وجهودي في خدمة الحركة العلمية للجامعة، وتقديم العطاء المعرفي الخصب، وأعرب عن أسفه لاختيارنا إنهاء العقود ودعا الله ﷻ أن تتاح الفرصة ثانية للعودة إلى العمل في الجامعة...

وأعقبه الدكتور عبد الله الخباص، عميد كلية الآداب، مؤكداً المعاني نفسها، ثم سُلمت إلينا جملة من الهدايا التكريمية، فرددنا على كلماتهم الوفية بالمزيد من الشكر والامتنان على الحفاوة التي لقيناها في هذه الجامعة المباركة من لدن رئيسها وعمدائها وتدريسييها وإدارييها وطلبتها، فكان بحق حفل يعكس المحبة التي كانت ولا تزال شعار الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان وكل العاملين معه... فبارك الله فيهم جميعاً...

عدت إلى بلدي الموصل... فإذا بي أفاجأ بأنها غير تلك التي عشت فيها ما يزيد على الستين عاماً... الدبابات والمصفحات الأمريكية تجوب شوارعها... والجنود الأمريكان يسرحون ويمرحون في ساحاتها... والموساد الإسرائيلي الذي تغطيه الحماية الأمريكية، يجتاز الشوارع بسياراته المظللة السوداء، ويرسم الخطط اللئيمة القذرة في تصفية الرؤوس المؤثرة في البلد من العلماء والأساتذة الجامعيين والخبراء..

لقد أصبحت ظهور الشعب العراقي مكشوفة لهؤلاء الغزاة، وبخاصة بعد القرار الخبيث لحاكم العراق العسكري، اللص الكبير، برايمر، بحلِّ الجيش العراقي والمؤسسات الأمنية كافة، وهي واحدة من أقذر الخطوات التي شهدها التاريخ البشري وأكثرها شناعة... وكأنه بالتوجيه الصهيوني الذي ورثه عن الحاكم اليهودي السابق كارنر، قد أراد ذبح العراقيين من الوريد إلى الوريد... بعد ما كانت دباباته قد أعانت الغوغاء، والعصابات التي جلبوها معهم من رومانيا، قد ذبحت التراث العراقي من الوريد إلى الوريد، عبر الهجمات اليومية على المتاحف، ودور الوثائق، والمخطوطات، والمكتبات العامة وصالات الفنون التشكيلية، حيث كانت مدافع الدبابات الأمريكية تكسر الأبواب وتسمح للمهاجمين الذين يدخلون، ليس للسرقة، ولكن للتخريب والحرق والتدمير...

إنها واحدة من أبشع عمليات التصفية الثقافية في التاريخ، بحيث أن مجزرة هولاكو تتضاءل أمامها بكل تأكيد... ولقد أتيح للشباب المؤمن في الموصل أن يتصدى للمحاولة نفسها، متخذاً من الجوامع والمساجد نقاط

انطلاق لملاحقة المجرمين، فأنقذوا ـ بذلك ـ تراث الموصل وموجوداتها المالية والثقافية من الدمار...

إلا أن العراقيين لم ينتظروا طويلاً... إذ سرعان ما تشكلت خلايا المقاومة منذ اليوم الأول لدخول الأمريكان والبريطانيين العراق، وراحت تلاحقهم في كل مكان، وتلحق بهم من الخسائر البشرية والمادية الشيء الكثير، الذي أخذ يتصاعد بمرور الوقت، وتزداد بقع المقاومة فاعلية ومساحة حتى أرغمتهم أخيراً على الاستسلام والانسحاب مرغمين من العراق، بعد ثمانية سنوات من احتلاله...

بعد فترة قصيرة من رجوعي إلى الموصل فاتحني بعض الأخوة في هيئة علماء العراق، وعلى رأسهم الأخوان الشيخ الدكتور بشار الفيضي والشيخ الدكتور فيضي الفيضي بالانضواء إلى عضوية الهيئة، وكانت علاقتي برئيسها الأستاذ الدكتور حارث الضاري ﷺ قد توثقت عبر أيام عملنا المشترك لمدة سنتين في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبيّ، فلم أتردد لحظة في إعلان موافقتي...

حيث كنا نجتمع صباح السبت من كل أسبوع في مكتب خاص في مقر رابطة علماء الموصل لتبادل الرأي في جملة من الأمور... واستمر الحال لمدة سنتين مع ثلة خيرة من علماء الموصل ودعاتها ومثقفيها وأساتذتها الجامعيين، ولم تتعد اجتماعاتنا تلك دائرة المناقشة في الأمور السياسية التي يتعرض لها العراق، ولم تحاول أن تنزل إلى الشارع وتلمّ حولها الجماهير، أو تقيم المؤسسات الدعوية الفاعلة، وبعد سنتين من هذه المراوحة في مكاننا، اخترت ـ كعادتي في التحرّر من أي ارتباط تنظيمي ـ أن أقدّم استقالتي من عضوية الهيئة، بعد تقديم مذكرة تفصيلية إلى رئاستها أبيّن فيها جملة من قناعاتي ومرئياتي.

جاءني بعدها عدد من الأخوة من زعماء الحزب الإسلامي في الموصل، يعرضون عليّ الانتماء إلى الحزب وأن أكون في عضوية هيئته المحلية، ولكني أصريت على الاعتذار.

بعد عودتي إلى الموصل بأسابيع قليلة عرض عليّ الأخ والصديق الأستاذ الدكتور دريد عبد القادر نوري، معاون عميد كلية الآداب للشؤون العلمية أن أرجع للعمل في الكلية... كنت والحق يقال متردداً في الأمر، لكنه ألحّ عليّ وأغراني بالموافقة بقوله بأنه سيتولى شخصياً متابعة موضوع الإعارة وأن عليّ فقط أن أتقدم في الطلب... ثم ما لبث بعد فترة وجيزة أن جاءني بالموافقة كاملة...

ليس هذا فحسب بل إنه هيأ لي مكتباً محترماً في كلية الآداب حيث بدأت عملي فيها بإلقاء المحاضرات على طلبة المراحل الأولية، والدراسات العليا، فضلاً عن الإشراف على الرسائل والأطروحات، والمشاركات الفاعلة في مناقشتها... ولقد مارست والدكتور دريد دوراً فاعلاً في إعادة تصميم المناهج الدراسية لقسم التاريخ، عبر جملة من الاجتماعات أكدنا فيها على الثوابت الإسلامية، وأزحنا العديد من المفردات التي ترتطم بها.

ثم ما لبث الأمر الجامعي أن صدر بتعييني والأخ الصديق الأستاذ الدكتور طارق العباوي عضوين في مجلس الجامعة، ممثلين عن التدريسيين... فكنا نجتمع وسائر الأعضاء بمعية رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور سعد الله توفيق، في يوم من كل أسبوع لمناقشة القضايا والمستجدات الجامعية وتقرير سياساتها العامة... وكان مما يزعجني وعدد من أعضاء المجلس دخول بعض الضباط الأمريكان على الاجتماع، حيث كانوا مكلفين بدعم الجامعة، وإعادة بناء مرافقها وكلياتها... وقد يكون ذلك مبرراً عبر تلك الظروف الصعبة والمعقدة التي يجتازها العراق.

لكن ما هو ليس بمبرر أن ينبري أحدهم في القول بضرورة منح الحرية الكاملة للطالبات وعدم إلزامهن بلبس الحجاب. فما كان مني إلا أن أقول له بالحرف: انه ليس من حقكم مطلقاً أن تدسّوا أنوفكم في الأمور الأخلاقية والسلوكية لمدينة ملتزمة كالموصل، فنحن أحرار فيما نقرره في مسائل حساسة

ذات بعد ديني كهذه... فما كان منه إلا أن يلتزم الصمت ولم يرد عليّ بكلمة واحدة...

وباعتباري ممثلاً عن التدريسيين في مجلس الجامعة، لم آل جهداً، بين الحين والحين، في دعوة رئاسة الجامعة للتحرك مع وزارة التعليم العالي، من أجل تعديل رواتبهم بما يتناسب مع الدور الذي يؤدونه، وبما يقرّب مستويات الرواتب من تلك التي تعطى في الدول العربية المجاورة التي لا تملك ما يملكه العراق من ثروة نفطية هائلة، وكنت أضرب المثل بما يعطى للأستاذ الجامعي، في الأردن وسوريا على سبيل المثال، وهو أضعاف ما يعطى للأستاذ العراقي.

وثمة أمر جامعي آخر أصدره الدكتور سعد الله توفيق رئيس الجامعة، بتعييني رئيساً للجنة المشرفة على تأسيس كلية العلوم الإسلامية، حيث اقتضى ذلك مني جهداً متواصلاً مع سائر الأعضاء في تصميم مناهج الكلية على مدى سنواتها الأربع... وفي مقابلة التدريسيين المتقدمين للعمل فيها، والموافقة على بعضهم ورفض بعضهم الآخر... وفي تحديد المواصفات المعمارية للكلية المزمع إنشاؤها... ومن ثم في مقابلة الطلبة والطالبات المتقدمين للقبول في الكلية، وفق معايير تجاوزنا بها الصيغ التقليدية، إلى الاعتماد على المعدلات العالية، حتى يكون الخريجون كفاء لحمل مسؤوليتهم في هذا الفرع المعرفي المتميز.

وما لبثت الكلّية، بعد أن أجرينا امتحاناً شاملاً للطلبة المتقدمين، أن افتتحت، حيث عرض عليّ رئيس الجامعة أن أتولى عمادتها فاعتذرت، فأصرّ على طلبه، لكنني أقنعته بعد لأي باختيار غيري... فانا ممن يرفض أشد الرفض قبول المناصب الإدارية والانحناء لإغراءاتها الأدبية والمالية... وأرفض أن يسحبني أي شيء عن مهمتي الأساسية في البحث والتدريس.

وإلى جانب ذلك كُلفت أن أكون عضواً في الهيئة التأسيسية لكلّية البنات، حيث تم الاجتماع مع رئيسها، عميد كلّية التربية، لمناقشة الأقسام الأساسية

للكلّية، والصيغ الإجرائية للقبول فيها... وما لبثت هذه الكلّية الناشئة أن افتتحت بعد أشهر معدودات.

أما موضوع الثقافة القومية الذي كان يعطى لطلاب الكلّيات كافة زمن البعث، فقد كُلفت برئاسة اللجنة التي ستعيد النظر فيه، فاستبدل بــ (الثقافة الإسلامية) التي تعطي للطالب الجامعي التأسيسات الحضارية للفكر الإسلامي في سائر شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، وتقدم الثوابت المتفق عليها بخصوص هذا الفكر الوسطي الشامل الذي تتضاءل إزاءه كل معطيات الوضعيين وظنونهم وأهوائهم...

وعرضت الأمر على مجلس الجامعة بصيغة ورقة مكتوبة، فقبله عدد من العمداء، وتردد عدد آخر، محاولين، حماية لوجودهم في مناصبهم، التأكيد على موضوع (حقوق الإنسان) في محاولة منهم لعدم إزعاج السلطة الأمريكية الحاكمة التي ذبحت حقوق الإنسان وادعت زيفاً وكذباً أنها جاءت لكي تحميه، ولكي نضع الأقسام العلمية أمام الأمر الواقع، أسرعت بالاتفاق مع الأخ الأستاذ الدكتور موفق الجوادي بتأليف كتاب يحمل عنوان (مدخل إلى الثقافة الإسلامية) تضمّن المفردات التالية: في معنى الثقافة، الإسلام مشروعاً حضارياً، العقيدة الإسلامية، الشريعة الإسلامية، العبادات، النظام السياسي، النظام الاجتماعي، النظام الاقتصادي، مقومات تفعيل الثقافة الإسلامية، نحو وحدة ثقافية لعالم الإسلام.

وسرعان ما صدر الكتاب عن جامعة الموصل، وتم الاتفاق بيني وبين رئيس الجامعة على ترك الخيار مفتوحاً للقسم الذي يرغب في إعطائه للطلاب... وقد اختارته العديد من الأقسام والحمد لله... وإن كانت أمنيتي أن يعمم على الأقسام كافة، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الجامعات العربية والإسلامية، ولكن ماذا تفعل إزاء العمداء ورؤساء الأقسام إياهم، ممن لا يريدون المساس بما ترتئيه سلطة الاحتلال التي سعت منذ اللحظات الأولى، إلى تغيير

المناهج الدراسية، وليّ عنقها بما يتلاءم والرؤية الأمريكية الذرائعية للحياة؟ رؤية المصنع والكباريه والسوبر ماركت، والتي ترفض الاعتراف بعالم الغيب، وباليوم الآخر... لا بل بالله ذاته ﷻ... وتسعى للهيمنة الفكرية على العالم بادّعاء الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، ومطاردة الإرهاب، رغم أنها باعتراف العشرات من الباحثين الأمريكيين أنفسهم، سيدة الإرهاب في هذا العالم؟! ويكفي أن نتذكر ما فعلته بهيروشيما وناغازاكي، وبأفغانستان والعراق...

وفي السياق ذاته كُلفت وأستاذاً آخر في الذهاب إلى كلية العلوم السياسية لاختيار كتاب منهجي ضمن مقررات الكلية عن **حقوق الإنسان**، فأقنعناهم باعتماد كتاب الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان عن حقوق الإنسان، ذلك أنه يقدم في الرؤية العلمية الدقيقة للموضوع، ويكشف عن عوار الموقف الغربي من حقوق الإنسان قبالة الموقف الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!!

وكنت، منذ عملي في عمّان، في جامعة الزرقاء الأهلية، قد تلقيت من الأخ الدكتور أنس صديق الشيخ علي، المستشار الأكاديمي في لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، طلباً في أن أكون مسؤولاً عن القسم العربي في المشروع الذي اقترحه المعهد باسم (مشروع الدعم الأكاديمي للجامعات العراقية) وذلك بتوجيه الدعوات إلى الأشخاص والجهات العلمية، بتقديم ما يقدرون عليه من كتب ومؤلفات للجامعات العراقية، بعدما تعرضت له مكتباته كافة من نهب وحرق وتخريب، فقمت بمساعدة الأخ ماجد أبو غزالة، الموظف في مكتب الأردن للمعهد العالمي، بتوجيه شبكة طويلة من الرسائل إلى عدد كبير من الهيئات العلمية والأشخاص الأكاديميين والعلماء، نطلب منهم فيها تزويدنا بما يقدرون عليه من الكتب والدوريات.

فلما عدت إلى الموصل، ومضت عدة أسابيع على عودتي، إذا بالأخ ماجد يبشرني بأنه سيرسل شاحنة كبيرة معبأة بالكتب المهداة إلى جامعة الموصل، بما فيها جانب كبير من مكتبة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري رحمه الله.

فاستقبلنا الشاحنة ووضعنا محتوياتها في مخازن والد الأخ لقمان عثمان لبيع الأخشاب والأطقم الجاهزة، ريثما جاءت سيارات الجامعة لنقل تلك الكمية إلى مكتبتها المركزية... والحمد لله...

في ذلك العام (٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٤م) انفتحت عليّ جملة من طلبات إلقاء المحاضرات الأكاديمية لفصل دراسي أو فصلين، في كلية التربية، وكلية العلوم الإسلامية، وكلية البنات وكلية الإمام الأعظم... فكنت ألبي هذه الطلبات رغبة مني في إيصال الفكر الإسلامي الحضاري إلى عقول الطلبة الجامعيين الذين تلقوا المحاضرات بقبول حسن... هذا إلى جملة أخرى من الدعوات لإلقاء جملة من المحاضرات العامة في العديد من كليات الجامعة، بدءاً من كلية الطب فالصيدلة فالهندسة فعلوم الحاسبات فالعلوم الإسلامية فالمعهد الفني فكلية العلوم والتربية، لتحقيق الهدف نفسه حيث كانت القاعات تغص بالطلبة والطالبات فضلاً عن الأساتذة الجامعيين...

وإلى جانب ذلك تلقيت طلبات الجهات الإسلامية العاملة في الموصل، بالذهاب مع وفدها إلى بغداد، للمشاركة في مؤتمر يعقده السنة والشيعة، لغرض تحديد أهداف الطرفين، وتوحيد عملهما المشترك ضد تحديات الاحتلال الأمريكي، ولصبّ الماء البارد على أية نزعة طائفية قد تخرج بالجماعتين عن المطلوب.

ذهبنا إلى بغداد، ووضعت وأحد الأخوة لدى وصولنا ورقة عمل لغرض طرحها في اللقاء تعبيراً عن وجهات نظرنا، وأكدنا فيها على ضرورة التزام الرفض التام للوجود الأمريكي في العراق، وجملة من الثوابت الأخرى، وكلف الشيخ إبراهيم النعمة بقراءتها على المنصة... وتوجهنا في صبيحة اليوم التالي إلى قاعة الاجتماع الذي حضرته قيادات عديدة من السنة والشيعة...

لكن الذي حدث هو استئثار بعض المتحدثين الشيعة بالكلام، بحيث أنهم لم يعطوا أية فرصة للشيخ النعمة لقراءة الورقة وطرح وجهة النظر السنية، وأنهم كانوا يتجاوزون كل ما من شأنه أن يستفز الطرف الأمريكي، وانتهى

الاجتماع دون التوصل إلى قرارات عملية ملزمة، رغم الشعارات العديدة التي علقت في أطراف القاعة تدعو إلى توحيد المواقف... وحينذاك أدركنا ألّا جدوى من اجتماعات كهذه لا تأتي بطائل على الإطلاق...

وثمة دعوة لحضور مؤتمر في أربيل دعت لعقده رابطة المؤرخين الإسلاميين في العراق، فرأيتها فرصة جيدة لتأكيد العلاقة الحميمة عبر التاريخ الإسلامي بين الكرد وبين هموم الأمة الإسلامية، وقدمّت في المؤتمر بحثاً بعنوان (**الكرد في ظلال العصر الإسلامي**) حشدت فيه عشرات الشواهد على دور الكرد في بناء الحضارة الإسلامية، وفي تقبل الفتح الإسلامي لإقليمهم برحابة صدر... وفي انتمائهم المخلص لهذا الدين، وفدائيتهم في الدفاع ـ على مدى التاريخ الطويل ـ عن ثوابته ومؤسساته.

وعرضت لجملة من علماء الكرد ومفكريهم ممن تألقوا في الدراسات اللغوية والفقهية... فضلاً عن منظومة كبيرة من الدويلات الإسلامية التي أنشأوها والتي جاوزت العشرين عدداً... هذا إلى تضحياتهم المعروفة في دعم الخلافة العباسية ضد خصومها، وللتصدي للحركة الكمالية في تركيا، حيث قادوا حركة ثورية انتهت بزعمائهم جميعاً إلى الإعدام...

في خريف عام (٢٠٠٣م) أعلن عن فوزي والأخ الأستاذ الدكتور أنور الزغبي بجائزة أفضل كتاب في العلوم الإنسانية لذلك العام، مناصفة مع الأستاذ المذكور... ودعيت من قبل رئاسة جامعة الزرقاء لحضور حفل التكريم، وتسلّم الجائزة... فما كان مني إلا أن أتجه إلى عمّان وأبدأ بزيارة رئيس جامعة الزرقاء الأستاذ الدكتور إسحاق فرحان، الذي رحب بقدومي وهنأني على فوزي بالجائزة.

ثم ما لبثنا أن غادرنا مكتب الرئيس إلى الصالة الرئيسية التي اكتظت بالحضور حيث جرى الحفل التكريمي الذي بدأ بكلمة للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ﵀ رئيس الهيئة التحضيرية للجائزة، أعقبتها كلمة الدكتور عبد الله الخباص، عميد كلية الآداب، ثم عرض للسيرة العلمية للفائزين دعي